لماذا سقطت الخلافة العثمانية؟
قراءة في عوامل ضعف الأمّة

لماذا سقطت

الخلافة العثمانية ؟

قراءة في عوامل ضعف الأمّة

الدكتور غازي التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

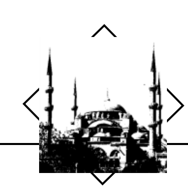


مقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (آل عمران) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ (الأحزاب) ، أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. أمّا بعد:



فهذا كتاب ألّفته تحت عنوان "**لماذا سقطت الخلافة العثمانية؟: قراءة في عوامل ضعف الأمّة**"، تحدّثت فيه عن العوامل التي أضعفت أمّتنا، وكانت سبباً في سقوط الخلافة العثمانية بشكل غير مباشر، كما تحدّثت في القسم الأخير من الكتاب عن العوامل التي أدّت إلى سقوط الخلافة العثمانية بشكل مباشر، ومن أجل توضيح هذه الحقائق قسّمته إلى عدّة أبواب، واحتوى كل باب على عدّة فصول، وقد جاء **الباب الأول** تحت عنوان (بناء المسلم والأمّة والدولة) واحتوى على ثلاثة فصول، تحدّثت في الفصل الأول عن كيفية بناء الرسول ﷺ للمسلم الصحابي، ثم تحدّثت في الفصل الثاني عن بناء الأمّة المسلمة، وبيّنت أنّ هذه الأمّة المسلمة خطوة جديدة في الفضاء الجاهلي، لأنّ المجتمع الجاهلي عرف القبيلة، فكان تكوين هذه الأمّة هي الحلقة الجديدة التي تقابل القبيلة، ثم تحدّثت عن بعض صور ارتباط المسلم الصحابي بالأمّة المسلمة، ثم تحدّثت عن صفات الأمّة المسلمة التي وردت في القرآن الكريم، وراعيت فيها أسباب النزول فكانت الصفة الأولى هي صفة الوحدة، ثم كانت الصفة الثانية هي صفة الوسطية، ثم كانت الصفة الثالثة هي صفة الخيرية.



ثم تحدّثت في الفصل الثالث من الباب الأول عن بناء الدولة في المدينة وهي التي جاءت ثمرة سعي الرسول ﷺ في بناء المسلم الصحابي والأمّة المسلمة لمدّة ثلاث عشرة سنة، وتحدّثت عن الأصول التي بنيت عليها هذه الدولة فكانت: التشريع لله، ووجوب الشورى، والمساواة والعدل.

ثم طرحت في **الباب الثاني** سؤالاً هو: ما الذي أضعف الأمّة؟ واحتوى هذا الباب على فصلين: الأول: تحدّثت عن عدم معرفة تاريخ المسلمين عصر انحطاط حضاري، ثم تحدّثت في الفصل الثاني عن عوامل ضعف الأمّة، فكانت هناك خمسة عوامل هي:

الأول: تداخل أفكار بشرية مع أصول الدين الإلهي.

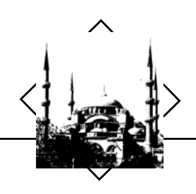
الثاني: انتشار التصوّف.

الثالث: نشوء الفِرَق.

الرابع: القصور في تطبيق الشورى، وغياب الاختيار في منصب الخليفة.

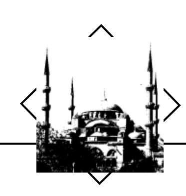
الخامس: التقصير في تحقيق المساواة والعدل.

ثم تحدّثت في **الباب الثالث** عن الخلافة العثمانية لأنها الخلافة الأخيرة في الوجود الإسلامي حسب التسلسل التاريخي، فجاء هذا الباب



في فصلين: الأول: سردت فيه سيرة مؤسس الخلافة العثمانية، ثم تتبعت سيرة الخلفاء العثمانيين، ثم تحدّثت في الفصل الثاني عن موقف الخلافة العثمانية من عوامل الضعف التي أشرنا إليها في الباب الثاني، فوجدنا أنّ الخلافة العثمانية لم تعالج هذه العوامل، بل زاد بعضها استفحالاً كالتصوّف.

ثم انتقلت في **الباب الرابع** إلى توضيح العوامل المباشرة التي أدّت إلى سقوط الخلافة العثمانية، وكان الغرب هو المحرّك الأساسي لتلك العوامل، فكان العامل الأول هو استعمار بعض البلدان الإسلامية كعدن والجزائر وتونس ومصر إلخ...، وقام العامل الثاني على مساعدة الدول الغربية لبعض الحكام على الانفراد بالسلطة كما حدث مع محمد علي باشا وغيره، وقام العامل الثالث على إشعال الغرب للثورات في الجزء الأوروبي من الخلافة العثمانية، وقام العامل الرابع على استغلال الغرب للطوائف، وقام العامل الخامس على إضعاف الغرب للخلافة اقتصادياً، وقام العامل السادس على دفع الغرب العرب والأتراك للاقتتال.



ثم جاء **الباب الخامس** يحمل عنوان: استهداف الغرب تمزيق الأمّة وتفتيتها والتمهيد لاستئصالها، واستخدم الغرب ست أدوات لتحقيق هذا الهدف، وكانت الأدوات كالتالي:

الأداة الأولى: قيام حكومات بفرض النموذج الغربي بعد الحرب العالمية الأولى والثانية.

الأداة الثانية: إيجاد أكبر تقسيمات سياسية في المنطقة.

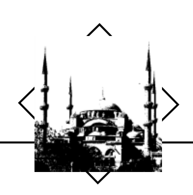
الأداة الثالثة: إقامة اسرائيل.

الأداة الرابعة: إثارة وتحريك النعرات العِرقية والطائفية.

الأداة الخامسة: التشكيك في الثوابت التي تقوم عليها الأمّة.

الأداة السادسة: مشاريع أمريكية لتفتيت الأمّة.

وأختم مقدّمتي ذاكراً قول الله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ (إبـراهيم)، فهاهم يمكرون لاستئصال هذه الأمّة بعد أن أزالوا آخر دولة وسلطان للمسلمين، لكنّ الله –سبحانه وتعالى– محيط بمكرهم، وسيحبط مكرهم، لأنه قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال).



ولقد كانت الصحوة الإسلامية هي الخطوة الأولى في إحباط هذا المكر، وستتبعها خطوات أخرى -بإذن الله- تحقق أهداف العلماء والمخلصين في عودة الإسلام إلى مركز الفعل والتأثير في سيرة البشرية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

الدكتور غازي التوبة

الكويت في 11 من جمادى الآخرة 1429هـ

الموافق 15 من حزيران (يونيو) 2008م

altawbah@al-ommah.org
altawbah939@hotmail.com

الباب الأول

بناء المسلم والأمة والدولة

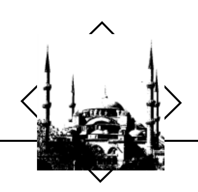


بنى الرسول ﷺ في حياته ثلاثة أمور: المسلم أولاً، ثم الأمّة ثانياً، ثم كانت الدولة ثالثاً. ونحن سنستعرض في السطور التالية كيفية بنائه لهذه الأمور الثلاثة.

الفصل الأول

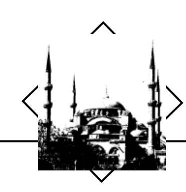
بناء الفرد المسلم الصحابي

شكّل القرآن الكريم أساس الكيان الحضاري للمسلمين، فكان مرجعهم في كل شؤونهم، فاستمدوا منه أحكامهم التشريعية، وأخذوا منه تصوراتهم الدينية، واستندوا إليه في أحكامهم الفقهية إلخ... وقد كان ذلك تطبيقاً لبعض آيات القرآن الكريم التي وصفت القرآن الكريم بأنه تبيان لكل شيء، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل،89)، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل،44)، ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (النحل،64) . وقد تعامل المسلمون مع القرآن الكريم



على هذا الأساس فأصبح الكتاب الركيزة في كل بنائهم الحضاري، لكن القرآن الكريم ترافق اعتماده كمرجعية لكيان المسلمين الحضاري مع أمرين اثنين بناهما الرسول ﷺ هما: النفوس العظيمة، والعقول الكبيرة، وهذه الأمور الثلاثة هي الأعمدة التي ارتفع عليها كيان المسلمين الحضاري، فما السند الرئيسي الذي استند إليه الرسول ﷺ في بناء النفوس العظيمة والعقول الكبيرة؟

كان التوحيد (عبادة الله وحده) نقطة الاستناد الرئيسية في بناء النفوس العظيمة حيث قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء)، وتعني عبادة الله في أحد جوانبها الرئيسية: تعظيم الله، والخضوع له، والخوف من ناره ومقامه، ورجاء جنته تعالى، وحبه تعالى أكثر من كل محبوبات الدنيا، وقد جاءت الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وحج لتغذي هذه الجوانب النفسية، فعندما يصلي المسلم يفعل ذلك تعظيماً لله تعالى على مخلوقاته العظيمة، وعندما يركع يفعل ذلك طمعاً في جنته تعالى وخوفاً من ناره، وعندما يسجد يفعل ذلك حمداً لله تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وعندما يصوم المسلم ويمتنع عن أهم شهوتين هما: الطعام والنساء



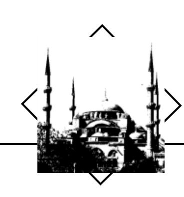
يفعل ذلك في سبيل محبوب أعظم هو الله تعالى، وعندما يحج المسلم إلى المسجد الحرام ويضحي في سبيل ذلك بوقته وماله وجهده يفعل ذلك تعظيماً لله تعالى وخضوعاً وامتثالاً لأوامره تعالى.

أما الآلية التي تتحقق بها العبادة فهي الهدم والبناء: هدم الشرك وبناء التوحيد، لأن كل الصيغ التي دعت إلى عبادة الله احتوت النفي والإثبات، وقدمت النفي على الإثبات، كما جاء على لسان الأنبياء نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام في سورة الأعراف مثلاً حيث قالوا جميعاً: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (الآيات من سورة الأعراف)، ويؤكد ذلك أيضاً كلمة الشهادة التي يدخل المسلم الإسلام بها حيث يقول: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله"، حيث ينفي في البداية استحقاق أي إله العبادة ثم يثبتها لله تعالى.

أما بناء العقول الكبيرة فقد استند الرسول ﷺ في بنائها إلى مفهومي الميزان والحكمة اللذين تحدث عنهما القرآن الكريم، حيث وردت كلمة الميزان في آيتين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ ﴾ (الشورى)،



وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد،25)، وقد فسّر ابن تيمية كلمة "الميزان" التي وردت في الآيتين السابقتين بأنها الأمور العقلية التي يحتاجها الناس في حياتهم والتي تجعل أحكامهم على الأشياء المحيطة صحيحة، والتي تجعل تعاملهم مع الكون سليماً، من مثل ربط الأسباب بالنتائج، والفهم، والتعليل والتحليل، وقد جاء كلامه -أي ابن تيمية- في معرض الرد على الذين كانوا يوجبون على المسلمين بناء عقائدهم على مقدمات فلسفية، فبيّن أنّ الله أرحم بعباده من أن يكلهم إلى الفيلسوف فلان وإلى الفلسفة العلانية من أجل بناء عقولهم، لذلك أنزل مع أنبيائه الميزان الذي يبني عقولهم من أجل أن يكون هناك تعامل صحيح مع الكتاب، لأنه دون موازين عقلية صحيحة لن يكون هناك تعامل صحيح مع الكتاب، ولن يؤتي الكتاب ثمرته المرجوّة. ويتضح ذلك في إجابات القرآن الكريم عن الأسئلة التي وجهها المسلمون أو المشركون إلى الرسول ﷺ من مثل ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة،189)، ومن مثل﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء)، وفي إجابات الرسول ﷺ



من مثل إجابته عن سؤال المرأة التي جاءت إلى النبي وقالت: إن أمي نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: "نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء" [1]، وفي خطبة الرسول ﷺ عندما كسفت الشمس يوم وفاة ابنه ابراهيم، وربط الناس بينهما، فقال الرسول ﷺ: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينخسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة" [2]. ففي كل الإجابات السابقة للقرآن الكريم أو للرسول ﷺ نجد صوراً من البناء العقلي السليم، ففي جواب القرآن عن السؤال حول الأَهِلَّة، كان التوجيه إلى الجانب العملي المفيد للأَهِلَّة وهو أنها "مواقيت للناس والحج"، وفي جواب القرآن الكريم عن السؤال حول الروح كان التوجيه إلى التوقف عن البحث لأن هذا نطاق جديد لا يمتلك الإنسان وسائل البحث فيه وهو من أمر الله، وفي جواب الرسول ﷺ عن سؤال المرأة حول مشروعية حجها عن أمها كان التوجيه إلى التفكير العلمي في

---

[1] حديث صحيح، أخرجه البخاري (396/6).

[2] متفق عليه، أخرجه البخاري واللفظ لمسلم (443/4).



المقايسة بين دَيْن العباد ودَيْن الله والخلوص إلى أنّ دَيْن الله أحق بالوفاء، وفي خطبته ﷺ بعد وفاة ابراهيم توجيه للمسلمين بالابتعاد عن التفكير الخرافي، وتوجيه إلى التفكير العلمي الذي يربط تحولات الشمس والقمر بحركة الكون ضمن إرادة الله عزّ وجلّ وليس بحادثة وفاة أحد أو ولادة أحد حتى ولو كان ابناً لرسول الله ﷺ.

أما السند الثاني الذي استند إليه الرسول ﷺ في البناء العقلي فهو مفهوم الحكمة، فقد وردت كلمة الحكمة في عدة آيات كريمة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة)، وقد امتن الله على العرب ابتعاث الرسول محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (البقرة). وقد وردت عدة أقوال في تحديد معنى كلمة "الحكمة"، فقد جاء فيها أنها السنّة النبوية، وأنها الأحكام المتفق عليها بين جميع الأديان والملل، وأنها الإصابة في القول والعمل إلخ... وبغض النظر عن تحديد المعنى المقصود لكلمة "الحكمة" والذي قد يجمع بين الأقوال السابقة جميعها، فإن "الحكمة"



ترتبط بشكل أولي بالفهم والإدراك والعقل إلخ...، لذلك لابد من أجل أن تتحقق الحكمة في أية قضية من أن يكون هناك فهم لعناصر القضية، وإدراك لعلاقتها بما قبلها وما بعدها، وتحليل لكيفية تطويرها إلخ... وكل هذا يحتاج إلى تدبّر وتعقّل، وقد جاءت السنّة النبوية الشريفة مليئة بالشواهد العملية على الحكمة في صورتها المثلى والتي تنتهي إلى الإصابة في القول والعمل، لذلك كانت أقوال الرسول ﷺ تتصف بأنها من "جوامع الكلم" أي "الألفاظ القليلة ذات المعاني الكثيرة"، وكانت أعماله صواباً دائماً، وإذا كانت خلاف الأَوْلى في بعض أحيان قليلة نبهه الوحي إلى ما هو الأَوْلى ليعمله، وبذلك أصبح الرسول ﷺ أُسوة للمسلمين كما وضح الله تعالى ذلك فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(الأحزاب).

ومما يلفت النظر أن الآيات التي تحدثت عن الحكمة ربطت بين تعليم الكتاب والحكمة من جهة، والتزكية من جهة ثانية وهو أمر جديد كل الجدة، إذ المعهود سابقاً ولاحقاً أن التزكية مرتبطة بتعلم الكتاب وحده لأنه مستودع الهدى، ولكن أن تكون تزكية النفوس وتطهرها ناتجة عن تعلم الكتاب وتعلم الحكمة فهو الأمر الجديد الذي يرفع من شأن العقل،



ويوجه المسلمين إلى ضرورة أن تكون عقولهم مبنية بناء سليماً ليكون التعامل السليم مع الكتاب، وينتج عن ذلك تزكية وتطهّر حقيقيّان.

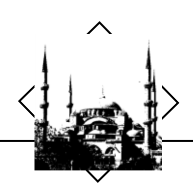
بُني الكيان الحضاري للمسلمين -كما رأينا- على ثلاثة أعمدة: الكتاب والميزان والحكمة، وقد أفرزت تلك الأعمدة نفوساً عظيمة وعقولاً كبيرة، فأين حدث ذلك الخلل الذي عرقل استمرار مشروع الحضارة الإسلامية؟ قطعاً لم يحدث الخلل في الكتاب، لأنه محفوظ بحفظ الله حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر)، وبالفعل فإن إحدى ميزات الحضارة الإسلامية أنّ كتابها محفوظ بفضل الله ثم بفضل جهود الصحابة الذين اجتهدوا في حفظه في صدورهم أولاً، ثم في تدوينه بين دفتي المصحف الشريف الذي يبدأ بسورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس ثانياً، لكن الخلل حدث في بناء النفوس العظيمة والعقول الكبيرة، وقد كان التصوّف أحد أسباب هذا الخلل، حيث أخذت العبادة فيه منحى جديداً يقوم على تعذيب الجسد من أجل الوصول إلى الحقيقة، وهو منحى جديد لم تعرفه أصول العبادة الإسلامية التي تعتبر الاستجابة لمتطلبات الجسد عبادة، وأصدق دليل على ذلك قول الرسول ﷺ: "وفي بضع أحدكم صدقة" قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له



فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً" [1]، وقد أدى ذلك التصوّف إلى الاستلاب النفسي للمسلم وإلى ضعف فاعليته العقلية ممن أدى إلى خلل في تعامله مع الكتاب، لذلك نحتاج الآن مرة ثانية إلى تفعيل مفهومي الميزان والحكمة من أجل إعادة الفاعلية العقلية للمسلم المعاصر، لكي يحسن التعامل مع الكتاب حيث سيؤدي ذلك إلى التزكية المطلوبة وتتحقق دعوة ابراهيم عليه السلام عندما قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة).

---

[1] حديث صحيح، أخرجه مسلم، (177/5).



الفصل الثاني

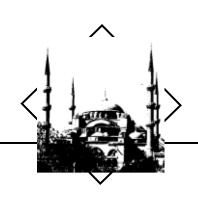
بناء الأمّة المسلمة

في اللحظة التي بنى الرسول ﷺ الفرد المسلم الصحابي كان يبني الأمّة المسلمة، وقد استمرّ هذا البناء طيلة الفترتين المكّية والمدنية، وقد اتضح ذلك من خلال اهتمامه بالجانب الجماعي في حياة المسلم الصحابي حيث لم يقتصر اهتمامه على الجانب الفردي في حياة المسلم الصحابي. ويتضح من دراسة سيرة الرسول ﷺ أنه اتجه منذ اللحظة التي نزل عليه الوحي بكلمة "اقرأ"، اتجه إلى تشكيل أُمّة مسلمة، لأنها تجسّد حقيقة الإسلام بشكل بشري، وكان المسلم الذي يؤمن بالإسلام يصبح عضواً تلقائياً في هذه الأمّة يعيش في رحمها وفي كنفها، وله حقوق فيها وعليه واجبات نحوها.

وقد وصف القرآن الكريم النبي محمداً ﷺ بأنه النبي الأُمِّي نسبة إلى "أُمَّة" في أحد الآراء، وهو الذي سيكوّن أُمّة في مقابل أمّة اليهود الذين يدّعون أنهم شعب الله المختار، لذلك قال تعالى: ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ



وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (الأعراف). وقد أوضحت آيات أخرى أنّ النبي محمداً ﷺ أُرسل إلى "الأُمِّيين" وهم الناس الآخرون غير أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ (الجمعة).



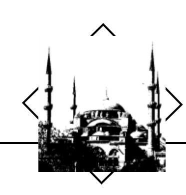
ويتضح أيضاً من سيرته ﷺ أنه كان حريصاً على المحافظة على هذه الأمّة، وعلى تمتين بنائها التنظيمي، ويتضح من دراسة سيرته ﷺ أنّ هذا الحرص على بناء الأمّة لم ينقص في المدينة بل ازداد تدعيمه لها ولكن بصورة مختلفة وتشريعات مناسبة، ونحن سندرس أفعال الرسول ﷺ ، فهذه الجماعة كانت هي نواة الأمّة المسلمة التي استمرّت إلى يومنا هذا.

1- الأمّة المسلمة مقابل القبيلة:

عرف العرب قبل الإسلام القبيلة نموذجاً وحيداً للتجمّع كما عرفوا العصبية القبلية محوراً للانتماء. وقد صوّر الشاعر الجاهلي هذه العصبية الطاغية فقال:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

لذلك كانت الأمّة المسلمة بقيادة محمد ﷺ جماعة فريدة في البيئة الجاهلية لأنها أوجدت نموذجاً جديداً للمجتمع لا يعتمد القبلية ولا الولاء القبلي بل يقوم على اللقاء في الله وعلى الأخوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات).

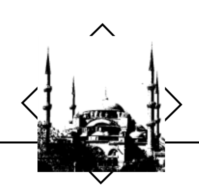


لذلك احتوت الأمّة المسلمة الأولى في داخلها أفراداً من قبائل وأفخاذ وعشائر مختلفة، من قريش وتميم وبني هاشم وبني أُمَيّة وبني مخزوم إلخ...، كما ضمّت إليها أفراداً من أعراق مختلفة فهناك بلال الحبشي وصُهَيْب الرومي وسلمان الفارسي إلخ...

إنّ هذه الأمّة التي كوّنها الرسول ﷺ والتي كانت نواة الأمّة الإسلامية فيما بعد هي التي كانت تخيف القيادة المشركة، فأمر محمد ﷺ ليس أمر مصلح لم يعجبه جانب من جوانب الحياة الدينية أو الاقتصادية أو السياسية في مكّة، ولو كان الوضع هكذا لتمّ الردّ عليه وتفنيد وجهات نظره، وليس أمر محمد ﷺ أمر قبيلة أو عشيرة تتطلّع إلى مرعى تحتكره أو ماء تستحوذ عليه فيمكن مقاتلتها أو التنازل لها عنه، لكنه أمر أمّة جديدة في أهدافها التي تسعى إليها، وفي اللقاء الذي تتضامن وتلتقي عليه، وفي نوعية الأشخاص المتجمعين من ناحية أصولهم وقبائلهم.

2- بعض صور ارتباط الصحابي بالأمّة المسلمة:

كان الرسول ﷺ يربط المسلم بالأمّة عندما يعلن إسلامه وانتقاله من الكفر إلى الإيمان، يتحرّك مع هذه الأمّة، يشاركها في كل مظاهر وجودها من تلقّي العلم، وتبليغ المشركين كلام الله ونشر الدعوة، ومقارعة



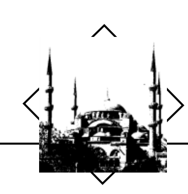
الباطل، والردّ على الافتراءات، وتحمّل الإيذاء، والإسرار إن كانت هناك سرية، والجهر إن كانت الدعوة في المرحلة الجهرية. إذن لم تكن علاقة المسلم بالرسول ﷺ علاقة فردية يأخذ منه الإسلام وينطلق على سجيّته دون أيّ التزام، بل كان يصبح عضواً ملتزماً في أمّة ذات جسم واحد، ونحن سندرس مظهرين من مظاهر الحياة الاجتماعية التي كانت يحياها الفرد في تلك الأمّة الوليدة:

الأول: التعليم:

كان الصحابي يتلقّى العلم في بداية التقائه بالرسول ﷺ وكانت دار الأرقم هي المحضن الأول للصحابة، وكان القرآن الكريم محور تدارسهم، ثم أصبح الصحابة الذين تعلّموا من الرسول ﷺ ودرسوا القرآن الكريم وفهموا تعاليم الإسلام رسله إلى أماكن أخرى، فكان مصعب بن عُمَيْر رضي الله عنه هو مُعَلّم الإسلام لأهل المدينة في وقت من الأوقات.

الثاني: نشر الدعوة:

قال ابن عبّاس –رضي الله عنهما– لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه، فقالوا



من هذا فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، قال: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت (تبّت يدا أبي لهب وتبّ ....) (المسد،1) [1].

وعن أبي هريرة قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) فقال: "يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطّلب لا أُغني عنكم من الله شيئاً، يا صفيّة عمّة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئاً" [2].

وقد ساهم الصحابة جميعهم في نشر الدعوة، فقد نقلت كتب السيرة أنّ الصحابة اجتمعوا مرّة وقالوا: ما سمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط فمن رجل يسمعهموه ....؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوا،

---

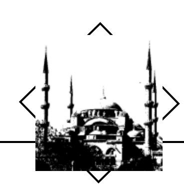
[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (221/6)، ومسلم (134/1).

[2] متفق عليه، أخرجه البخاري (408/8)، ومسلم (133/1) من طريقين عن أبي هريرة.



فقال: دعوني فإنّ الله سيمنعني، وانطلق إلى الكعبة وقرأ بصوت عال: "الرحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان." فتأمّل القريشيون فيه وجعلوا يتساءلون: ما يقول ابن أم عبد؟ أجاب بعضهم: إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، وجعلوا يضربونه في وجهه وهو ماض في تلاوة السورة حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وآثار النطحات على وجهه، فقالوا: هذا الذي خفنا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ... لئن شئتم لأعاودنهم غداً بمثلها، قالوا: لا حسبك، أسمعتهم" [1].

[1] سيرة ابن هشام، ج1، ص314.



صفات الأمّة الإسلامية

لو تتبعنا حديث القرآن الكريم عن صفات الأمّة الإسلامية حسب نزول السور لوجدنا أنّ أول حديث عن صفات الأمّة الإسلامية هو وصفها بالوحدة، ورد في سورتي الأنبياء والمؤمنون وهما مكّيتان وتحملان الرقمين 53 و74 في ترتيب النزول، والتي قال الله فيها: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأنبياء)، ثم جاءت الصفة الثانية عن الوسطية في سورة البقرة والتي يقول الله فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (البقرة،143).

وقد كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة تأكيداً على شخصية الأمّة المستقلّة، ثم جاءت الصفة الثالثة وهي صفة الخيرية في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ (آل عمران،110) في سورة آل عمران في نهايات العهد المدني بعد أن تشكّلت الأمّة وواجهت اليهود والنصارى



والمشركين وانتصرت عليهم ورسمت الآليّة التي ستصبح بها خير أمّة أُخرجت للناس وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ونحن سنستعرض كل هذه الصفات حسب ترتيب نزولها:

الصفة الأولى: الأمّة الإسلامية أمّة واحدة.

الصفة الثانية: الأمّة الإسلامية أمّة وسط.

الصفة الثالثة: الأمّة الإسلامية خير أمّة أُخرجت للناس.

الصفة الأولى: أمّة واحدة:

تحدثت "سورة الأنبياء" عن معظم الأنبياء السابقين وهم: موسى، وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، وذو النون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، عليهم السلام جميعاً، وذكرت طرفاً من سيرتهم وحياتهم ومواقفهم وعبادتهم ودعوتهم وصراعهم مع الباطل، وصبرهم على أذى الكافرين، وفضل الله عليهم، ثم عقّبت بعد ذلك بآية قال تعالى فيها: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأنبياء)، كما تحدثت سورة أخرى هي "المؤمنون" عن عدد من الأنبياء هم: نوح، وهود، وموسى، وهارون،



وعيسى، عليهم السلام ثم قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المؤمنون).

أشارت الآيتان السابقتان بعد الحديث عن معظم الانبياء إلى أن أمة الأنبياء جميعهم أمة واحدة، فما الذي تعنيه الأمّة الواحدة؟

معاني الأمّة الواحدة:

هناك معنيان للأمّة الواحدة:

الأول: وحدة الدين والملّة:

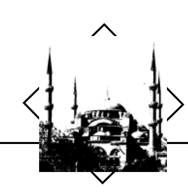
الأمة الواحدة تعني الدين الواحد والملة الواحدة لجميع الأنبياء من لدن آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام وهو دين الإسلام الذي أوحاه الله إليهم، وأشارت آيات أخرى إلى مثل هذا المعنى فصرّحت إلى انتماء بعض الأنبياء إلى دين الإسلام فطلب يوسف عليه السلام أن يتوفاه الله على الإسلام، قال تعالى: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يوسف)، وقد وصى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أولادهما أن يموتوا على دين الإسلام بعد أن أعلنا إسلامهما قبل ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ



وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (آل عمران)، وقد بيّن القرآن أنّ تسمية المسلمين قديمة وليست جديدة فقد قام بها إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ (الحج،78).

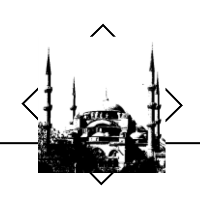
الثاني: وحدة الجماعة:

الأمة الواحدة تعني الجماعة الواحدة التي تشمل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وأتباع جميع الأنبياء السابقين، وقد أعطى هذا الربط الأمة الإسلامية امتداداً بعيداً في التاريخ، فالأمة الإسلامية ليست وليدة الحاضر وليست من إنشاء محمّد صلى الله عليه وسلم وحده بل هي أمة عريقة ساهم في تكوينها جميع



الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتشكلت مادتها من جميع المؤمنين بالتوحيد، وكان محمد ﷺ القائد الأخير لأنه خاتم الأنبياء، وكانت جماعته آخر حلقة في الأمّة الإسلامية لأنّ رسالته هي الرسالة الأخيرة إلى البشرية.

لقد أنشأ الإسلام أمّة واحدة بكل معنى الكلمة، وتجلّت وحدتها في أمور متعددة منها: عقيدتها الواحدة التي تقوم على توحيد الله، وقبلتها الواحدة التي تتجه إليها في عبادتها، وقيادتها الواحدة التي كانت تعود إليها، وشريعتها الواحدة التي كانت ترجع إليها إلخ...، ولم ينشئ أمّة واحدة فحسب بل كان حريصاً على ألاّ تختلف وألاّ تتمزّق، لذلك حذرها من مصير الأمم السابقة التي تفرّقت إلى شِيَع وأحزاب، والتي قطّعت دينها إلى قطع مختلفة، لذلك حذّر من الاختلاف فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ ﴾ (آل عمران)، وقال تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ ﴾ (المؤمنون)، وقال تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ ﴾ (الأنبياء)، ومما يساعد على وحدة الأمّة حفظ مرجع الأمّة وهو الذِّكْر فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ



لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر)، في حين أنّ الله تعالى بيّن لنا أنه أوكل حفظ التوراة إلى اليهود فقال تعالى:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ (المائدة،44).

فما العوامل والأدوات التي ابتكرتها عقول أعلام الأمّة الإسلامية للمحافظة على وحدة الدين؟

العوامل التي ساعدت على تحقيق الأمّة الواحدة:

وقد قام أعلام الأمّة الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي بما يجب عليهم نحو أصلي الدين: القرآن والسنّة وذلك من زاويتين: الأولى: حفظ نصوصهما. والثانية: إيجاد آلية واضحة لتحديد معانيهما. وسنبيّن ذلك في السطور التالية:

1- القرآن الكريم:

عندما توفي الرسول ﷺ كان القرآن محفوظاً في صدور عدد كبير من الصحابة، ومُدوّناً على سَعْف النخيل والعظام والجلود، ولم يكن



مجموعاً بين دفّتي مصحف واحد، ثم حدثت المعارك مع المرتدّين واستشهد عدد كبير من الصحابة ففزع عمر بن الخطاب ﵁ من ضياع شيء من المصحف مع استفحال القتل في المسلمين، فاقترح على أبي بكر الصديق ﵁ جمع القرآن الكريم بين دفتي مصحف واحد، ووافق أبو بكر الصديق بعد تردد على فكرة عمر بن الخطاب، وشكّل لجنة لذلك أَوْلَى رئاستها إلى زيد بن ثابت ﵁، وقام بذلك خير قيام، وكان المصحف الذي انتهت إليه اللجنة هو المصحف الأُم الذي كان أساساً لوحدة المسلمين، ثم نسخت المصاحف التي أرسلت إلى بقية الأمصار في عهد عثمان من المصحف الأم الذي كان محفوظاً عند حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ثم وجد علماء المسلمين أنّ هناك حاجة إلى إعجام حروف القرآن فكان التنقيط، ثم وجدوا حاجة إلى تشكيل الآيات فكانت الحركات التي تضبط نطق الكلمة، ثم دون العلماء أسباب نزول الآيات، كما دوّنوا المكي والمدني من الآيات، كما فرّقوا بين الناسخ والمنسوخ إلخ...، كل ذلك من أجل توحيد قراءته ثم توحيد فهمه.

2– السنّة المشرفة:

اجتهد علماء المسلمين في جمع أحاديث الرسول ﷺ لأهميتها في فهم الدين، لذلك كانت كتب الصحاح والمسانيد والسنن، وقد ابتكر



المسلمون عدة علوم مساعدة في تمييز صحيحها من ضعيفها، وهي: علم الإسناد، وعلم مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وعلم الرواية وعلم الدراية إلخ...

3- اللغة العربية:

إنّ فهم القرآن والسنّة مرتبطان باللغة العربية، وقد أشارت عدّة آيات إلى هذا المعنى فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ (يوسف)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ ﴾ (الزخرف)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ ﴾ (الشعراء)، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ (الرعد،37).

وقد كان أثر هذا الربط اهتمام العلماء باللغة العربية، فابتكروا عدّة علوم من أجل ضبط اللسان العربي وتقنينه والتقعيد له، منها: علم النحو والصرف، ومعاجم اللغة، وفقه اللغة، وعلم البلاغة، وعلم البيان والبديع إلخ...



4- السيرة والتاريخ:

لقد كانت كتابة سيرة الرسول ﷺ مهمة للمسلمين من أجل معرفة وقائع حياته ﷺ والاقتداء بها والسير على منوالها، كما كان تاريخ مسيرة المسلمين مهمة لمعرفة بعض أحكام الشرع الإسلامي فيها والاعتبار من وقائعها، لذلك كله دَوَّنَ العلماء المغازي والسير التي أَرَّخَت لحياة الرسول ﷺ ، ولحروب المسلمين مع المشركين، فكانت سيرة ابن اسحاق، وكانت المغازي للواقدي، وكانت طبقات ابن سعد، ثم كان تاريخ الطبري إلخ...

5- أصول الفقه:

لقد ابتكر الشافعي علم أصول الفقه من أجل ضبط العلاقة بين النص الثابت والواقع المتغيّر، ومن أجل تقنين العملية الاجتهادية، ومن أجل التوصّل إلى اجتهاد سليم في كل الأحيان، فكان الخاص والعام، والمطلق والمقيّد، والقياس، والاستحسان إلخ...



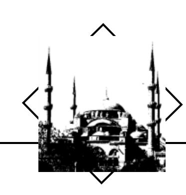
وحدة الثقافة:

لقد قامت العلوم السابقة بأحد دورين:

1- حفظ النصوص: سواء أكانت هذه النصوص آيات أم أحاديث أم آثاراً من الصحابة تم جمعها وتصنيفها.

2- وضع آلية واضحة من أجل تحديد معنى النصوص السابقة وتوحيد فهمها.

وقد ساعد كل ذلك على توليد ثقافة واحدة كان لها دورها في الحفاظ على وحدة الأمّة الإسلامية على مدار القرون السابقة، أمّا مادة الثقافة الإسلامية فكانت مستمدة من القرآن والسنّة اللذين أعطيا المسلمين تصوّراً عن الكون، ولفتا انتباههم إلى دقّة نظامه، وبيّنا لهم مادة خلق الإنسان وكيفيّة نشأته، وفصّلا لهم صفات ربّهم الذي ليس كمثله شيء، ووضّحا لهم جانباً من عالم الغيب بما فيه من ملائكة وجنّة ونار، وقصّا عليهم قصص الأمم السابقة ووجّها نظرهم إلى الاعتبار من سيرتها، ووضّحا لهم السلوك الأمثل للنجاح في الدنيا والنّجاة في الآخرة، وحدّدا لهم هدفاً أسمى وهو تحقيق العبوديّة لله تعالى، وبيّنا لهم الحلال والحرام والمشتبهات، وأوجبا عليهم إتيان الحلال والابتعاد عن الحرام والمشتبهات، وقد كانت نتيجة ذلك كلّه أن قام مجتمع يلتزم مبادئ الإسلام وقِيَمه



وأخلاقه، وقامت حكومة تنشر الإسلام وتدعو إليه وتدافع عن حرماته، وقامت أسرة تراعي آداب الإسلام وتغرس الفضائل في نفوس أبنائها، وقام اقتصاد يتجنّب الربا ويجمع الزكاة، وقامت فنون تراعي قيم الجمال الإسلامية، وقام فرد ذو حيويّة نفسية وعقلية عالية إلخ... إذن شكّلت حقائق الإسلام ومبادئه وقيمه وأفكاره وأخلاقه نسيج الثقافة الإسلامية التي كانت غذاء للفرد والمجتمع المسلمين على مدار القرون السابقة.

لقد رأينا أنّ وحدة الأمّة الإسلامية تعني وحدة الملة والدين وتعني وحدة الجماعة، وقد رأينا أنّ وحدة الدين تجسدت بوحدة الثقافة، وقد بقي علينا أن نتساءل عن الجانب الثاني من الوحدة وهو وحدة الجماعة، فنتساءل: بم تجسدت وحدة الجماعة في تاريخ الأمّة الإسلامية؟ الجواب: تجسّدت بظاهرة العلماء، إذن لنر في السطور التالية العوامل التي أدت إلى تشكّل هذه الظاهرة وبروزها.

ظاهرة العلماء تحقيق لوحدة الجماعة:

لقد برزت هذه الظاهرة على مدار التاريخ الإسلامي نتيجة تقدير الإسلام للعلم والعلماء، فقد حث الإسلام المسلم على العلم وأجزل مثوبة العالم، فعن أبي الدرداء ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من



سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما صنع، وإنّ العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" [1]. وأجزل مثوبة الذين يتدارسون كتاب الله ويتذاكرونه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله إلا غشيتهم الرحمة وحفّتهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده" [2]. وكانت أول آية أنزلت على محمد ﷺ قول جبريل ﷺ له: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ (العلق)، وقد امتدح القرآن القلم الذي هو أداة الكتابة فقال تعالى: ﴿ "نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ ﴾ (القلم)، وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤ ﴾ (طه)، وحث الإسلام

---

[1] حديث صحيح، صحيح ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني، كتاب العلم، حديث رقم (223).

[2] حديث صحيح، أخرجه مسلم، (212/13).



على التدبّر فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد)، وحث القرآن على التفكّر فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الزمر)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران).

إنّ هذا الحثّ على القراءة والتفكّر والتدبّر أنتج علوماً في كل مجال: في مجال التاريخ، والجغرافيا، والفلك، والطب، والصيدلة، والزراعة، والصناعة الخ...

أهمية العلماء في الدين الإسلامي:

وقد أعلى الإسلام شأن العلماء ومرتبتهم فقد قال الرسول ﷺ: "العلماء ورثة الأنبياء" [1]، وقد أثنى الإسلام على العلماء فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ (المجادلة،11)،

---

[1] جزء من حديث سبق تخريجه ص40.



﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ (آل عمران،18)، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ ﴾ (فاطر،28).

وقد أورد الشاطبي في كتاب الموافقات فقرة تحت عنوان: "المفتي قائم مقام النبي ﷺ " وهي ذات ارتباط بموضوعنا وتبيّن أهمية العلماء في حفظ الدين ونقله، ودلّل الشاطبي على ذلك فقال:

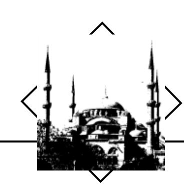
"والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النقل الشرعي في الحديث "إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم" [1]. وفي الصحيح: "بينا أنا نائم أتيت بقدح من لبن فشربت حتى أني لأرى الري يخرج من أظافري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب. قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: العلم" [2] وهو معنى الميراث. وبُعِث النبي ﷺ نذيراً لقوله: "إنما أنت نذير" وقال في العلماء: "فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم" الآية ... وأشباه ذلك.

---

(1) سبق تخريجه ص 40 .

(2) حديث صحيح، أخرجه البخاري، (146/1).



والثاني: أنه نائب عنه في تبليغ الأحكام، لقوله: "ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب"، وقال: "بلغوا عني ولو آية"، وقال: "تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمع ممن يَسمع منكم". وإذا كان كذلك فهو معنى كونه قائماً مقام النبي.

والثالث: أنّ المفتي شارع من وجه، لأنّ ما يبلغه من الشريعة إمّا منقول عن صاحبها، وإمّا مستنبط من المنقول، فالأول يكون فيه مُبلّغاً. والثاني يكون فيه قائماً مقامه في إنشاء الأحكام. وإنشاء الأحكام إنما هو للشارع، فإذا كان للمجتهد إنشاء الأحكام بحسب نظره واجتهاده فهو من هذا الوجه شارع، واجب اتباعه والعمل على وفق ما قاله. وهذه هي الخلافة على التحقيق، بل القسم الذي هو فيه مبلغ لابد من نظره فيه من جهة فهم المعاني من الألفاظ الشرعية، ومن جهة تحقيق مناطها وتنزيلها على الأحكام. وكلا الأمرين راجع إليه فيها، فقد قام مقام الشارع أيضاً في هذا المعنى. وقد جاء في الحديث "أنّ مَنْ قرأ القرآن فقد أُدرجت النبوة بين جنبيه" [1].

---

[1] حديث ضعيف، السلسلة الضعيفة، الشيخ ناصر الدين الألباني، (120/11)، حديث رقم (5118).



وعلى الجملة فالمفتي مخبر عن الله كالنبي، ومُوَقِّعٌ للشريعة على أفعال المكلفين بحسب نظره كالنبي، ونافذ أمره في الأمّة بمنشور الخلافة كالنبي. ولذلك سموا أولي الأمر، وقرنت طاعتهم طاعة الله ورسوله في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" والأدلة على هذا المعنى كثيرة" [2].

---

[2] الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، م2 ج4 ص178-179.



الصفة الثانية: الوسطية:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة،143). إنّ المقصود بالأمّة الوسط: أمّة العدل، والهدى، والخير، والشرف، والفضل. وإنّ اتصافها بتلك الصفات أمر طبيعي حتى تستطيع أن تقوم بالمهمة الموكلة بها، فلابد لمن يشهد على الناس من أن يكون عادلاً حتى تكون شهادته مقبولة هذا مقتضى قوله تعالى، ولكن لابد للشاهد حتى يؤدي شهادته بصورة صحيحة من أن يكون أيضاً بالإضافة إلى العدل في حالة وعي كامل ليدرك حال المشهود عليه حتى تكون شهادته مؤدية لغرضها، وبالفعل هذا ما حقّقته الأمّة الإسلامية من أجل أن تقوم بأمانة الشهادة، فكانت واعية لذاتها: التوحيد الذي تقوم عليه وحافظة له على مدار التاريخ السابق، وواعية لحال الآخرين: الضلال الذي انتهوا إليه، هذا فيما يتعلّق بأصل الشهادة، أما ما يتعلّق بأنواع الشهادة فستكون على مستويين:

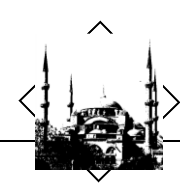


الأول: الأمم التي سبقت أمّة محمد ﷺ:

ستشهد الأمّة الإسلامية على الأمم التي سبقت بعثة الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء)، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾ (النحل،89)،

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ (الحج).

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "يجيء النبي ومعه الرجلان ويجئ النبي ومعه الثلاثة وأكثر من ذلك وأقل فيقال له هل بلّغت قومك؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلّغكم؟ فيقولون لا. فيقال من شهد لك؟ فيقول محمد وأمّته، فتدعى أمّة محمد فيقال هل بلّغ



هذا؟ فيقولون نعم. فيقول وما علمكم بذلك؟ فيقولون أخبرنا نبينا بذلك أنّ الرسل قد بلّغوا فصدقناه، قال فذلكم قوله تعالى: "وكذلك جعلناكُم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" [1].

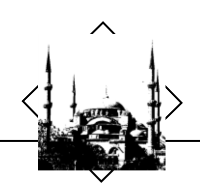
الثاني: الأمم التي جاءت بعد محمد ﷺ:

يؤكد هذه الشهادة قوله تعالى: ﴿ لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة،143)، فقد جاءت صيغة العبارة بالمضارعة، والمضارعة تعني الاستمرارية في الشهادة، وستتضمن هذه الشهادة دعوة البشر إلى التوحيد وعبادة الله، وتخليصهم من الشرك والأوثان، وهذا الواجب مستمر إلى قيام الساعة وذلك لأنّ الأمّة الإسلامية هي أمّة آخر رسول وأمّة آخر كتاب أنزله الله تعالى إلى البشر.

وقد أثمرت تلك الشهادة على الأمم التي جاءت بعد رسالة محمد ﷺ أنّ الإسلام انتشر بواسطة الدعاة الشاهدين أكثر مما انتشر بالفتوحات، وكانت النتائج الواضحة في أنّ الإسلام انتشر منذ قرون

---

[1] حديث صحيح، صحيح ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني، رقم الحديث (4284).



عديدة في اندونيسيا والهند وآسيا الداخلية وجنوب الصحراء الأفريقية إلخ...

الصفة الثالثة: الخيرية:

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران،110).

وصف الله تعالى الأمّة الإسلامية بأنها "خير أمّة أُخرجت للناس" وعزا ذلك إلى تحلّيها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما هو خُلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وماذا قال الشرع عنه؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

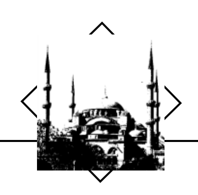
وصف القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (التوبة،71)، ووصف القرآن الكريم الرسول محمداً ﷺ بأنّ إحدى صفاته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ



ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف،157)، وقد وجّه لقمان إبنه فقال: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (لقمان)، وبيّن أنّ الله تعالى عاقب بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (المائدة).

وقد اعتبرت الأحاديث أنّ تغيير المنكر واجب على كل مسلم، فقال الرسول ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" [1]، وقد هدّدت الأحاديث الشريفة المسلمين بالعذاب الشديد إن لم يؤدّوا الواجب في

[1] حديث صحيح، أخرجه مسلم، (167/1).



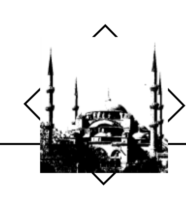
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده ، لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهونَّ عن المنكر، أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تدعنّه فلا يستجيب لكم" [1]، لذلك اعتبرت السنّة أنّ ذروة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مواجهة الظالمين فقال الرسول ﷺ: "سيّد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام ظالم فأمره ونهاه فقتله" [2].

بيّنت الآيات والأحاديث السابقة أهمية خُلُق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنزلته، وهو من صفات الرسول الكريم المبشَّر به في الكتب السابقة، وهو من صفات المؤمنين، وهو من الأخلاق التي وجّه لقمان ابنه إليها، وهو من أسباب تَنَزُّل العذاب إذا لم يُؤدّ على وجهه الصحيح، وهو من أول النقص الذي دخل على بني إسرائيل وكان من

---

[1] حديث حسن، رواه أحمد والترمذي والبيهقي، وحسّنه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم (7070).

[2] حديث صحيح، رواه الحاكم والطبراني، وصحّحه الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم (374).



أسباب هلاكهم ولعنتهم، لذلك أفرد له العلماء فصولاً في كتبهم، وبيّنوا وجوبه، ومراتبه، وشروط القيام به، والسؤال الذي يرد الآن:

ما دور هذا الخُلُق في بناء الأمّة الإسلامية؟

لقد جعل هذا الخُلُق الأمّة الإسلامية تستمر في تطبيق مبادئها ومُثُلها العُليا التي نشأت عليها وقامت من أجل تحقيقها، لأنه أوجب على كل مسلم أن يكون فاعلاً مؤثِّراً في بيئته المحيطة به: يدعو إلى التوحيد والإستقامة والفضيلة والرحمة إلخ... لأنه المعروف، وينهى عن الشرك والانحراف والرذيلة إلخ... لأنه المنكر .



الفصل الثالث

بناء الدولة الإسلامية

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن أمر أصحابه بالهجرة، وأقام الرسول ﷺ في المدينة دولة المسلمين الأولى، وكان الميثاق الذي أعلنه في المدينة قد رتّب العلاقات بين المسلمين من جهة، واليهود من جهة ثانية، ثم بدأت الأحكام تتوالى: شرائع الصيام والزكاة والحجّ والحدود والجهاد والزواج والطلاق والميراث إلخ... وكان الرسول ﷺ يرسل الكتائب للجهاد، ويرسل السفراء إلى الدول المجاورة، ويستقبل وفود القبائل والدول المجاورة في مسجد المدينة، وكان يجادل النصارى واليهود في مختلف الشؤون، وتميّزت هذه الدولة عن غيرها من دول العالم سابقاً وحالياً بعدّة أصول، فما هي هذه الأصول:

الأصول التي قامت عليها الدولة الإسلامية:

1- التشريع والحكم للّه:

إنّ الشرع المطبّق والأحكام المنفّذة ليس لمحمد ﷺ دخل فيها، وليست شرائع من قبيلة أو من حزب أو من طبقة إنما هي من الله، وهي



وحي يوحى إلى محمد ﷺ ، وليس فيها انحياز لأحد، لأنّ الله ليس له نسب مع أحد، ولا قربى له مع أحد جلّ وعلا، وهذا التشريع مناسب للفطرة، بعضه ثابت لا يتغيّر إلى قيام الساعة، وبعضه ترك الدين الإسلامي الأحكام فيه إلى ظروف الزمان والمكان، تستهدف خير الإنسان وتستهدف مقاصد خمسة كما ذكر علماء المقاصد، هي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العقل، وحفظ العرض.

2- الشورى واجبة:

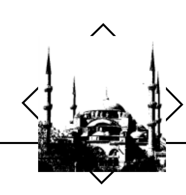
قامت الدولة على الشورى، فقد امتدح الله المؤمنين بالشورى فقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى،38)، وكان الرسول ﷺ أول المشاورين مع أنه كان أغنى الناس عن المشاورة لما آتاه الله من الحكمة والعقل الراجح والوحي، ومع ذلك فقد أمره الله بمشورة المسلمين بعد غزوة أُحد التي جاءت مشاورته لهم ونزوله على رأيهم في التصدّي للمشركين خارج المدينة خسارة عليهم، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩



﴾ (آل عمران)، وقد استمرّت الشورى أمراً ماضياً في حياة المسلمين من بعده، وقد نفّذها خلفاؤه فكان الخلفاء الراشدون لا يبرمون أمراً إلا بعد أن يشاوروا من حولهم من أجلاّء الصحابة، والوقائع في هذا المجال أكثر من أن تحصى.

ويمكن أن نمثّل على الشورى في الموقف من أرض سواد العراق التي فتحت بالقتال، وكان المفروض أن توزّع كغنائم بين المقاتلين، لكنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان يرى رأياً آخر، وهو إبقاء أهلها عليها وأخذ خراجها، ويوزّع على المسلمين، وكانت حجّته آيات سورة الحشر التي قال الله فيها:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحشر).



وكان يقول: أين نصيب "والذين جاءوا من بعدهم ..."؟، وكان بلال الحبشي أبرز مخالف له، فكان يقول: من يكفيني من بلال؟ ثم استقرّ الرأي بعد المشاورة والتحاور لعدّة أيّام على إبقائها في يد أصحابها من أجل أن يستفيد عموم المسلمين: حاضرهم وقادمهم من جهة، ومن أجل ألاّ ينشغل المسلمين بزراعة الأرض عن الجهاد من جهة أخرى.

الاختيار هو الأصل في شرعية منصب خليفة المسلمين:

ومما يندرج تحت مبدأ الشورى هو أنّ أبا بكر الصديّق ﷺ أصبح خليفة باختيار المسلمين له، وقد أخذ شرعيته من هذا الاختيار وليس من شيء آخر، وقد تم هذا الاختيار في سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع الأنصار واعتبروا في بداية الاجتماع أنهم أولى بالخلافة من غيرهم، لأنهم نصروا الرسول ﷺ وآووه، وقد أسرع عمر بن الخطّاب وأبو بكر الصدّيق إلى هذا الاجتماع، وأقنعوا الأنصار أنّ هذا الأمر يجب أن يكون في قريش، لأنهم أهل محمد، وأنّ العرب تدين لهم، ثم دعا عمر بن الخطّاب إلى مبايعة أبي بكر الصدّيق، وتقدّم عمر فبايع أبا بكر الصدّيق ثم تتابَع المسلمون وبايعوه بعد ذلك.



وقد اعتبرت كتب السياسة الشرعية وكتب الأحكام السلطانية أنّ شرعية الخليفة عند أهل السنّة والجماعة تأتي من اختيار المسلمين له، في حين أنّ الشيعة اعتبروا أنّ شرعيته تأتي من النص عليه، لذلك اعتبروا أنّ علياً هو أولى بالخلافة لأنّ كتبهم تذكر أنّ الرسول ﷺ نصّ على ولاية عليّ في حديث الغدير، لكنّ أهل السنّة لا يعتبرون هذا الرأي صحيحاً، ويعتبرون أنّ الرسول ﷺ لم ينصّ على أحد وإنما ترك الأمر شورى بين المسلمين وقد اختار المسلمون أبا بكر الصّديق رضي الله عنه.

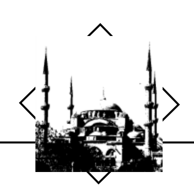
ولاشكّ بأنّ التقعيد لهذا الأمر، واعتبار أنّ الاختيار هو الأصل في ترسية الحكم هي خطوة متقدّمة في تاريخ البشرية حيث لم يعرفها إلا حديثاً، ونستطيع أن نلمح في تولّي أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه خلافة المسلمين بعد الرسول ﷺ ، وهو الذي ليس من أبناء محمد ﷺ ولا عشيرته ولا تربطه به رابطة قربى أو عائلة، وإنما تربطه به رابطة العقيدة والدين فقط، نستطيع أن نلمح كسراً لتقديس بعض العائلات واعتبار الوراثة والقرابة هي التي تعطي الحق في الملك.



3- المساواة:

اعتبر الإسلام أنّ المؤمنين أخوة فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (الحجرات،10)، وقد اعتبر الإسلام آصرة الدين والإيمان في الله هي أصل اللقاء الذي يجمع المؤمنين، ولم يعترف بأيّة رابطة أخرى كالعِرْق والجنس والقبيلة، لذلك فإنّ الأمّة الإسلامية امتازت عن غيرها من الأمم السابقة أنها تكوّنت من أجناس وشعوب وقبائل مختلفة، وقد جاء ذلك لأنّ الرسول ﷺ بُعِث إلى الناس كافة وليس للعرب وحدهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ،28)، وقال تعالى أيضاً: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف،158).

وأكّد الرسول ﷺ ذلك في أحد أحاديثه فقال: "فُضّلت على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكَلِم، ونصرت بالرعب، وأُحِلّت لي



الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون" [1].

وقد جاء ذلك أيضاً لأنّ القرآن الكريم كتاب الله إلى الناس جميعاً فقال تعالى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ ﴾ (ص)، وقد جاء ذلك أيضاً لأنّ الإسلام أقام الرابطة بين الناس على أساس الإيمان بالله ولم يقمها على جنس أو نسب أو قبيلة فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ (الحجرات،10)، وقال الرسول ﷺ: " أيها الناس إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألاَ لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلاّ بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم " [2].

وقد حقّقت الأمّة الإسلامية جوهر التعارف الذي من أجله كانت الحكمة في خلق الشعوب والقبائل حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

[1] حديث صحيح، أخرجه مسلم، (109/3).

[2] حديث صحيح لغيره، الشيخ ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، (79/3) حديث رقم (2963).



ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات،13)، ونجحت فيما فشل فيه قادة آخرون كالاسكندر المقدوني الذي قصد أن يمزج بين العِرقين الفارسي واليوناني عندما أقام حفلة الزواج الضخمة له ولضباطه قُبيل وفاته على كريمة كسرى أنوشروان وكريمات أشراف المجتمع الفارسي من أجل خلق حضارة عالمية ومجتمع عالمي.

لقد أعطى هذا التعارف بين الأجناس والأقوام والقبائل الأمّة الإسلامية حيوية عظيمة وتنوّعاً في القيادة ساعدها في مواجهة أعدائها في المشرق والمغرب، فكانت دول السامانيين والغزنويين والسلجوقيين والزّنكيين والأيُّوبيين والمماليك والموحّدين والمرابطين والعثمانيين إلخ...

4- العدل:

أقام الإسلام حكمه على العدل بين الناس، لذلك قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ (النساء)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ



وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ (الأنعام)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ (المائدة)، وقد عقّب الرسول ﷺ عندما جاءه أسامة بن زيد يستشفع في حدّ من حدود الله فقال ﷺ: "إنما أهلك الذين مِنْ قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" [1]. وقد تجلّى العدل كأروع ما تكون الصورة في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة فيما يتعلّق بالأموال.

---

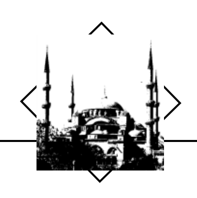
[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (294/11)، وأخرجه مسلم (54/9).



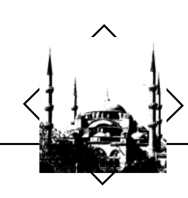
☾ ☾ ☾

أقام الإسلام الدولة الإسلامية على هذه القواعد، ثم اتسعت الدولة الإسلامية فشملت بلاد الشام ومصر وبلاد فارس في عهد الخلفاء الراشدين، ثم اتسعت وشملت كل الشمال الأفريقي ووصلت إلى الأندلس في الغرب وإلى بلاد الهند في الشرق في العهد الأموي، ثم شملت أوساط آسيا في العهد العباسي، ثم اكتسحت أوروبا إلى أواسطها في العهد العثماني، وقد احتوت الدولة شعوباً وأعراقاً متعدّدة، وقد ابتكرت قيادات الدولة آليّات مختلفة من أجل تنظيم هذه الأرض الواسعة والشعوب المتعدّدة في مختلف المجالات الاقتصادية والإدارية والعسكرية والقانونية.

ثم مرّت على هذه الدولة أحداث متعدّدة، كانت تقوى فيها وتضعف، وقد اجتهد بعض الباحثين في تحقيب الخلافة الإسلامية فجعلها تمر بمراحل بدأها: بمرحلة النشأة والتكوين وتتمثّل في عهد النبوة والخلفاء الراشدين، ثم مرحلة الارتفاع والقوة وتتمثّل في العهدين الأموي والعباسي الأول، ثم مرحلة التفكك والضعف وتتمثّل في العهد العباسي الثاني، ثم مرحلة الانحطاط والظلام وتتمثّل في عهد المماليك والعثمانيين، ثم مرحلة النهضة وتتمثّل في مجيء نابليون بونابرت إلى المنطقة وعهد محمد علي



باشا والدول القومية التي قامت في بلادنا العربية بعد سقوط الخلافة العثمانية، وللأسف فإنّ هذا التحقيب منقول عن الحضارة الغربية، ويطابق بين حضارتنا وحضارتهم، ويعتبر أن الحضارة الغربية هي النور الذي جاء لإنقاذنا على يد بونابرت والاستعمار الغربي، وأنّ ما سبقها عصر انحطاط وظلام، كما كانت العصور الوسطى التي سيطرت فيها الكنيسة في أوروبا تعني الحجر على العقول والعلم وتعني سيطرة الخرافات والشعوذة، فإلى أيّ حدّ يَصْدُق هذا القياس والتطابق؟ لاشكّ أنّ هذا القياس والتماثل خاطئ، بمعنى أنّ أمّتنا لم تعرف عصر انحطاط الذي يعني موت العقل، وتوقّف الإبداع العلمي إلخ...، وهو ما سأحاول أن أثبته في الفصل التالي، بل عرفت ضعفاً، وكانت وراء هذا الضعف عوامل متعدّدة، ولاشكّ بأنّ هناك فرقاً كبيراً بين الضعف والانحطاط، فالضعف يعني إمكانية معالجة عوامل الضعف من خلال المرجعية الموجودة وهي الدين الإسلامي، في حين أنّ الانحطاط يعني تصادم الأمّة والدولة مع أصول الفطرة ويتطلّب هدم البناء الموجود والتطلّع إلى العلاج والدواء من خلال مرجعية أخرى.



إنّ عدم التفريق بين الضعف والانحطاط عند كثير من الباحثين أدّى إلى الوقوع في أخطاء عظيمة في التعامل مع واقع الأمّة، وإلى أخطاء أعظم في معالجة هذا الواقع، لذلك سنوضّح الفرق بين الضعف والانحطاط، ونجيب على تساؤل مهم وهو: **هل عرفت أمّتنا عصر انحطاط**؟ ثم سنتحدّث عن العوامل التي أضعفت أمّتنا.

الباب الثاني

ما الذي أضعف الأمة ؟



ما الذي أضعف الأمّة؟

قبل أن نتحدّث عن العوامل التي أضعفت الأمّة، نتساءل: هل عرفت أمّتنا عصر انحطاط؟ لأنّ الإجابة على هذا السؤال يعني تغييراً نوعياً في معالجة الواقع من أجل إصلاحه، فالانحطاط يعني الأزمة الشاملة، والتناقض مع الفطرة، وموت العقل، ويتطلّب تغيير المرجعية من أجل بناء مجتمع جديد، وحياة جديدة كما حدث مع أوروبا بعد عصر الانحطاط، حيث اضطرت إلى إقصاء الكنيسة من أجل بناء حضارة جديدة، لكن الضعف لا يتطلّب ذلك، بل يتطلّب معالجة عوامل الضعف من خلال المرجعية نفسها، وهذا ما حدث في عدّة أماكن في التاريخ الإسلامي وفي أزمنة مختلفة، إذن: سنجيب في الفصل التالي على هذا السؤال: **هل عرف تاريخ المسلمين عصر انحطاط؟**

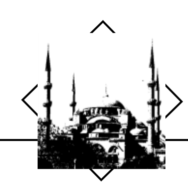


الفصل الأول

هل عرف تاريخ المسلمين الحضاري عصر انحطاط ؟

درس بعض الباحثين تاريخ حضارتنا وقسّموه إلى عدّة مراحل، واعتبروا العهدين المملوكي والعثماني من عهود الانحطاط، وأبرز مظاهر الانحطاط في رأيهم: جمود العقول، وقلّة الإبداع العلمي، والتكرار والاجترار في الإنتاج العلمي إلخ...، ومن أبرز الذين شرحوا هذه الحالة ونظّروا لها اثنان هما: مالك بن نبي ومحمد عابد الجابري. الأول: في كتبه عن مشكلات الحضارة، والثاني: في كتبه عن العقل العربي.

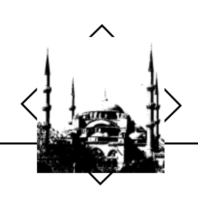
لقد اعتبر مالك بن نبي أنّ عوامل التعارض الداخلية في المجتمع الإسلامي بلغت قمتها في نهاية دولة الموحدين، ولم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة، بل أضحت عناصر خامدة ليس بينها صلة مبدعة، وربط مالك بن نبي بين الانحطاط وبين القابلية للاستعمار، فاعتبر أنّ هذه القابلية للاستعمار معامل باطني يستجيب للمعامل الخارجي، وأبرز نتائج هذا المعامل الباطني: البطالة، وانحطاط الأخلاق الذي يؤدي



إلى شيوع الرذيلة، وتفرّق المجتمع الذي يؤدي إلى الفشل من الناحية الأدبية.

لقد طرح مالك بن نبي آراءه عن مشكلات الحضارة في الخمسينات من هذا القرن، ثم جاء محمد عابد الجابري في الثمانينات ليطرح دراسته عن العقل العربي في كتابين: الأول: عن تكوين العقل العربي، والثاني: عن بنية العقل العربي، فماذا جاء فيهما مما له علاقة بموضوع انحطاط الأمة وجمودها العقلي والعلمي؟

لقد اعتبر الجابري أنّ أهم عامل ساهم في تكوين العقل العربي هو عصر التدوين، لأنه الإطار المرجعي الذي يشدّ إليه جميع فروع الثقافة وينظّم مختلف تموجاتها اللاحقة إلى يومنا هذا، فصورة العصر الجاهلي وصورة صدر الإسلام والقسم الأعظم من العصر الأموي إنما نسجتها خيوط منبثقة من عصر التدوين، وقد استند الجابري في تقرير ذلك إلى نص للذهبي يقول فيه: "في سنة ثلاث وأربعين ومائة للهجرة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة، ومالك للموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة،



وصنف ابن اسحاق في المغازي، وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي. ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب. وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة" [1].

ثم درس الجابري الأنظمة المعرفية التي شكلت بنية العقل العربي، وأشار إلى أزمته التي نتجت عن تصادم وتداخل الأنظمة المعرفية الثلاثية وهي البيان والعرفان والبرهان، وكان أبو حامد الغزالي الذي تشخّص في تجربته الروحية وإنتاجه الفكري هذا التصادم والتداخل.

ثم أشار الجابري إلى لحظتين متمايزتين في العقل العربي، الأولى: تمتد من بدايات عصر التدوين إلى لحظة الغزالي كان العقل العربي فيها فاعلاً منتجاً. الثانية: ما بعد لحظة الغزالي ابتدأ ما أسماه بالتداخل التلفيقي بين النظم المعرفية الثلاثة وأصبح العقل العربي فيها جامداً.

---

[1] تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ص416 .



لكن الدكتور جورج صليبا توصّل في كتاب له تحت عنوان "الفكر العلمي العربي: نشأته وتطوره" إلى نتائج مخالفة لما توصّل إليه الكاتبان السابقان، لأنه اتبع منهجية جديدة في دراسة العلوم العربية، وتقوم هذه المنهجية على رصد التطورات العلمية للعلوم العربية وعلى عدم الانطلاق من نظريات مسبقة، وطبق ذلك على علم الفلك فتوصّل إلى أنّ العصر الذهبي لعلم الفلك العربي هو العصر الذي يطلقون عليه عصر الانحطاط بالنسبة للعلوم العربية بشكل عام، ويشير في هذا الصدد إلى نظريات ابتدعها نصير الدين الطوسي في كتابيه "تحرير المجسطي" الذي ألّفه عام 1247م، و "التذكرة في الهيئة" الذي ألفه بعد الكتاب السابق بنحو ثلاث عشرة سنة، وقد أفرد الطوسي فصلاً كاملاً للرد على علم الفلك اليوناني ولإقامة هيئته البديلة، وفي أثناء هذا العرض يستخدم الطوسي مرة ثانية النظرية الجديدة التي كان قد اقترحها بشكل مبدئي في كتاب "تحرير المجسطي"، وإذا بهذه النظرية تظهر هي الأخرى بعد حوالي ثلاثة قرون في أعمال كوبرنيك بالذات وبالشكل الذي ظهرت فيه في "تذكرة" الطوسي.

وقد درس المستشرق كارادي فو هذا الفصل بالذات من "تذكرة" الطوسي في أواخر القرن التاسع عشر، وكان قد عثر فعلاً على نظرية الطوسي الجديدة، لكنه لم يستطع أن يضعها في إطارها الصحيح لأنه كان



يعمل ضمن العقلية التي لا تتوقع أن تجد أعمالاً إبداعية في هذه المرحلة المتأخرة التي وُسمت بعصر الانحطاط.

ولم يتوقف الأمر عند الطوسي وحده بل شمل الإبداع في علم الفلك عشرات من الآخرين في القرون التالية وكان من أبرزهم شمس الدين الخفري الذي كان معاصراً لكوبرنيك والذي كان يتحلّى بمقدرة رياضية وبدراية في دور الرياضيات في صياغة العلوم ندر أن يوجد مثلها في أعمال الذين أَتَوْا قبل القرن السابع عشر الذي تم فيه فعلاً تكوين العلم الحديث.

وعند التدقيق نجد أنّ اعتبار أنّ هناك عصر انحطاط في المجال العقلي كلام غير دقيق وعلى العكس فإنّ النظرة الفاحصة المدقّقة المتبصرة تلغي مثل هذا الحكم وتبيّن أن علم الفلك –على الأقل– لا ينطبق عليه مثل هذا الحكم حسب الدراسة المتبحرة التي قام بها الدكتور صليبا وحسب النتائج الأكيدة التي توصل إليها.

إن كل تلك الأحكام التي وصفت مرحلة ما بعد الموحّدين بالانحطاط لم تأت حصيلة دراسة موضوعية للوضع العلمي في تلك المرحلة، لذلك جاءت الأحكام غير علمية، وهي غير ملزمة لنا بحال من الأحوال.

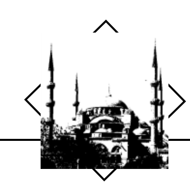


لذلك على الباحثين الذين يريدون أن يقوّموا فترة من تاريخنا الحضاري، عليهم أن يدرسوا الإنتاج العقلي والعلمي لتلك المرحلة، ثم عليهم أن يصدروا الحكم المناسب حسب حيثيات الإنتاج. كما فعل الدكتور صليبا في مجال علم الفلك، وأنا متأكد من أنهم سيصلون إلى نتائج مختلفة كما وصل الدكتور صليبا، لأن الاطلاع الأول على تلك المرحلة يفاجئنا بأسماء لامعة ذات عقلية فذة من مثل: ابن تيمية، وابن خلدون، وابن حجر العسقلاني، والذهبي، والشاطبي إلخ... وعلماء موسوعيين ذوي عقليات مبتكرة كأمثال: القلقشندي، والفيروز آبادي إلخ...، ويفاجئنا بمخترعات علمية متعددة في مجال الجغرافيا والميكانيك والرياضيات والصناعة إلخ... ولا يمكن أن تتفق تلك المعطيات مع الجمود والانحطاط.



☾ ☾ ☾

والآن: بعد أن أجبنا على السؤال الذي طرحناه في بداية الفصل، وهو: هل عرف تاريخ المسلمين الحضاري عصر انحطاط؟ وكان الجواب هو أنه لم يعرف التحقيب الحضاري لخلافتنا وأمّتنا عصر انحطاط، بدليل أنّ العقل لم يمت، وأنّ الفطرة كانت تأخذ حقّها، لذلك فإنّ الوهن الذي أصاب أمّتنا، والتأخّر الذي اعتراها يمكن أن نسمّيه "ضعفاً"، وهو ما سنحاول أن نحدّد عوامله في الفقرة التالية.



العوامل التي أضعفت المسلم والأمّة والدولة

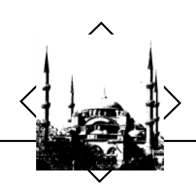
لاشك أنّ هناك تفاعلاً بين عناصر بناء الكيان الإسلامي الثلاثة: الفرد والأمّة والدولة، وهناك حيوية واضحة كافية في هذه العناصر الثلاثة، مما جعل الدولة الإسلامية تمتد إلى أكثر من 1300 عاماً إلى حين سقطت في عام 1926م، أمّا الأمّة والفرد المسلمان فما زالا موجودين حاضرين في قِيَمِهما وشخصيتهما الخاصة يحاولان أن يعيدا الدولة الإسلامية.

ونحن سنحدّد أبرز العوامل التي أدّت إلى ضعف كل عنصر من العناصر السابقة: الفرد والأمّة والدولة، ومما يجدر التنبيه إليه هو أنّ بعض العوامل قد يؤدّي إلى ضعف عاملين أو أكثر أو يتسبب في ضعف العوامل الثلاثة.

أمّا العوامل التي أضعفت الفرد المسلم فهي:

1- تداخل أفكار بشرية مع أصول الدين الإلهي.

2- التصوّف.



أمّا العوامل التي أضعفت الأمّة بالدرجة الأولى ثم أضعفت الدولة ثانياً فهي:

1- تكوّن الفِرَق: الخوارج، والشيعة، والمعتزلة.

2- ضعف الأداء الشوري، وغياب الاختيار في تنصيب الخليفة.

3- القصور في المساواة والعدل.

ونحن سندرس بالتفصيل كل عامل من هذه العوامل.



الفصل الثاني

عوامل ضعف الأمّة

العامل الأول في ضعف الأمّة:

تداخل أفكار بشرية مع أصول الدين الإلهي

امتاز الدين الإسلامي بأنه وحي من الله، وبأنّ هذا الوحي محفوظ من الله، وامتاز بأنه يراعي الفطرة، وامتاز كذلك بأنّ هناك جوانب ثابتة وأخرى متغيّرة بحسب الفطرة الإنسانية، ولكنّ هذا الامتياز لم يراع في مراحل لاحقة، فتداخلت معه بعض الأفكار البشرية التي جاءت بدون داع حقيقي لا مجال للدخول في تفاصيل مجيئها ودخولها مع بُنية الدين الأساسية، وكنت قد درست هذا التداخل في كتب سابقة، لكنّ الذي تهمّني الإشارة إليه هو أنّ هذا التداخل أعطى تأثيرات سلبية في المجالين: النفسي والعقلي عند المسلم، ونحن سنعرض لنماذج من تداخل الأفكار البشرية وآثارها على الجانبين: النفسي والعقلي عند المسلم.

لقد كان مذهب الذرّة أول الأفكار البشرية التي تداخلت مع أصول الدين الإسلامي وقد جاء هذا التداخل على يد المعتزلي أبي هذيل



العلاّف، لأنّ ترجمة مذهب الذرّة كانت معروفة في محيطه آنذاك[1] ، ثم انتقل مذهب الذرّة إلى أهل السنّة والجماعة على يد أبي الحسن الأشعري، وكان أبرز ما يكون ذلك دعوته إلى اعتماده في رسالته "الاستحسان في خوض علم الكلام" حيث ادعى أنّ أصول مذهب الذرّة ومصطلحاته موجودة في القرآن الكريم، لذلك وصف الأشعري أهل السنّة المعادين لاستخدام مذهب الذرّة في إثبات أصول مذهبهم وفي محاججة المعادين بالجهل طالما أنّ أصول مذهب الذرّة وأدلّته جميعاً مثبوتة في ثنايا القرآن، ومما جعل الحاجز ينكسر أمام مذهب الذرّة عند أهل السنّة، ويصبح مقبولاً عندهم هو لقاء أبي الحسن الأشعري بالبربهاري شيخ الحنابلة آنذاك، وإرضاء الأول للثاني بالكتاب الذي ألّفه بعد ذلك وهو "الإبانة عن أصول الديانة" والذي كانت حقائقه وأصول تدليله مطابقة لمدرسة أحمد بن حنبل مما جعل الأشعري مقبولاً عند أهل السنّة والجماعة في حين أنّ غيره ممن سبقوه مثل سعيد بن كلاب مع مشابهته له في أصل الموقف

---

[1] انظر كتابي "جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي"، ص112.



لم يصبح مقبولاً عند أهل السنّة لأنّ الإمام أحمد بن حنبل لم يزكّه ولم يتقبّل كلامه [1].

إنّ ولوج مذهب الذرّة إلى أهل السنّة على يد أبي الحسن الأشعري رافقه تلجلج واضطراب وعدم وضوح كالعادة في كل بداية مخالفة لما هو قائم وما هو متعارف عليه، لكن تأتي مرحلة بعد ذلك تترسّخ فيها الأمور، وتتضح، وتدخل تفصيلات كثيرة، وهذا ما حدث على يد الباقلاني، حيث فصّل في عرض مذهب الذرّة في كتاب "التمهيد" وترافق ذلك مع موهبة خاصة في جودة التأليف ومنهجيّتها، لذلك اعتبر ذلك الكتاب البداية الحقيقية للعقيدة الأشعرية لأنّ تبويباته التي اتبعها هي التي اعتمدت من قِبل كل الأشاعرة الذين جاؤوا بعده، ليس هذا فحسب، بل من كل الذين كتبوا كتباً في "العقيدة" تقريباً.

وإنّ دراسة كتاب "التمهيد" والاطلاع عليه تبيّن بوضوح وجود مصطلحات مذهب الذرّة من مثل: الجسم والعرض والجوهر، وتبيّن وجود

---

[1] انظر تفصيل التعليل لقبول أبي الحسن الأشعري عند أهل السنّة في كتابي "جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي" (ص،155-157).



أدلّته كدليل الحدوث [1]، وتبيّن تداخل مذهب الذرّة مع القضايا الإسلامية مثل: صفات الله تعالى، ووجوده، وتبيّن نقل إشكالات من البيئة الفلسفية إلى المحيط الإسلامي من مثل: هل الصفات عين الذات أم غيرها؟

ثم استمر تداخل مذهب الذرّة مع قضايا العقيدة عند الجويني، وأبرز الكتب التي فصّلت هذا التداخل هو كتاب "الشامل".

ثم تأتي مرحلة أخرى تداخل فيه المنطق مع العقائد والفقه وأصول الفقه على يد شخصيّتين هما: الغزالي، وابن حزم.

أمّا العقائد فقد أورد الغزالي في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" واستخدم كثيراً من الأقيسة المنطقية بعد أن بدّل أسماءها [2]، أمّا أصول الفقه فقد ملأ الغزالي كتاب "المستصفى" بتفصيلات عن علم المنطق، فذكر القوانين التي توضّح الحدّ، وتحدّث عن التصديق والتصوّر والبرهان،

---

[1] انظر كتاب التمهيد للباقلاني، ص17.

[2] الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، ص9 وما بعدها.



أمّا الفقه فقد ألّف الغزالي كتباً بكاملها من أجل تبيئة المنطق فيها، منها: "الفسطاس المستقيم"، "معيار العلم".

أمّا ابن حزم فقد دعا إلى استخدام المنطق قبل الغزالي فألّف كتاباً تحت عنوان "التقريب لحدّ المنطق" وأكثر فيه من الأمثلة الفقهية.

ثم انفتح الباب بعد ذلك لتداخل أنواع أخرى من الفلسفة في كل مجالات الثقافة الإسلامية عند معظم العلماء والكتّاب في المراحل التي تلت الغزالي مثل: الرازي، والإيجي، والتفتازاني، والسنوسي إلخ...

والآن ما نتائج هذا التداخل؟ أمران هما:

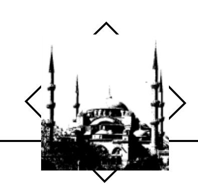
الأول: الفقر النفسي.

الثاني: ارتكاسات في مجال البناء العقلي.

ونحن سنستعرض كلا من النتيجتين في السطور التالية.

الأول: الفقر النفسي:

ليس من شكّ بأنّ القرآن والسنّة هما مصدرا البناء النفسي والعقلي للمسلم، فقد ذكر القرآن الكريم والسنّة المشرّفة صفات الله تعالى، وبيّنا



كثيراً من أفعاله تعالى، ووضّحا الأمور التي يحبّها والتي يكرهها، وفصّلا وقائع نصره لرسله وللمؤمنين، وإهلاكه للجبارين والمتكبّرين، كما ذكرا الكثير عن خلق الملائكة والشياطين وأفعالهم ومهماتهم وأدوارهم، وعن نعيم الجنّة وصوره، وعن عذاب النار وأصنافه، وقد كان القرآن والسنّة[1] في كل ما تحدّثا به يملآن المسلم تعظيماً لله وخضوعاً وحبّاً وثقة وخوفاً ورجاء.

ثم تداخلت الأفكار البشرية بكل أصنافها مع البناء الثقافي الإسلامي، وكان أثر ذلك الإفقار النفسي للمسلم، ولو أخذنا العقيدة كنموذج على هذا التداخل فإننا نجد الفروق التالية بين العقيدة كما عرضها القرآن والسنّة والعقيدة كما عرضتها كتب العقائد بعد التداخل:

1- تقليل صفات الله التي يجب أن نؤمن بها.
2- اللجوء إلى تأويل أفعال الله تعالى بحجّة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات.
3- تعطيل بعض صفات الذات بنفس الحجّة السابقة.

---

(1) عرضت بالتفصيل لكيفية شحن القرآن والسنّة لنفسية المسلم في كتابي "جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي"، انظر الصفحات (4-14).



4- تأويل كل صفات الله الخبرية.

5- تولّد مشاكل نتيجة التداخل السابق لا أصل لها في نظر المنهجية الإسلامية مثل:

أ - حشد الدلائل على وجود الله مع اعتبار القرآن الكريم لها قضية فطرية، والأهمّ من ذلك الاشتراط على المسلم أن يتعلّم تلك الأدلّة من أجل أن يكون إيمانه صحيحاً.

ب- التساؤل عن الصفات هل هي عين الذات أم غيرها؟

6- عدم الأخذ بحديث الآحاد في مجال العقائد.

7- غياب الحديث عن كثير من أركان الإيمان بالله أو محدودية ذلك الحديث إن وجد.

8- عدم الحديث عن المشاكل التي اعتبرها القرآن مشاكل تهدّد الإيمان مثل: الشرك والوسائط وصورة الاتصال بالله.

إنّ كل تلك العناصر كان لها أحد دورين: إمّا الإفقار النفسي للفرد، وإمّا إشغاله بأمور لا أصل لها في المنهجية الإسلامية كانت على حساب



بنائه النفسي [1].

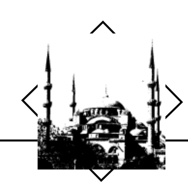
الثاني: ارتكاسات في مجال البناء العقلي:

أفرزت المنهجية الإسلامية القائمة على القرآن الكريم والسنّة المشرفة بناء عقلياً فاعلاً لدى المسلم والأمّة، وتجسّد ذلك بفاعلية فكرية كانت لها مظاهر متعدّدة على مدار التاريخ الماضي: منها اكتشافات غيّرت مجرى التاريخ، ومنها القدرة على اختراع بعض العلوم، ومنها الإعمار الذي اشتمل على كل فروع الحياة، وقد كان سبب ذلك توجيه القرآن الكريم المسلم إلى النظر والتفكّر والعلم والتعلّم من جهة، وأنّ الرسول محمداً جاء بالحكمة التي هي إعطاء أحكام عقلية مطابقة للواقع من جهة ثانية [2].

---

[1] انظر تفصيل الحديث عن هذه الأمور ودورها في الإفقار في كتابي "جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي" الصفحات (176-180)، (192-194)، (218-220)، (237-239).

[2] تحدّثت بالتفصيل عن فاعلية المسلم العقلية ومظاهرها وأسبابها في كتابي "الأمّة الإسلامية بين القرآن والتاريخ: دراسة وتحليل" في الصفحات (136-157) ولامجال للإعادة هنا، فليرجع إليها من شاء التوسّع في ذلك.



لكنّ هذا البناء العقلي أصابته ارتكاسات بسبب تداخل التراث الفلسفي مع مرجعية الأمّة، وتجسّدت الارتكاسات في المظاهر التالية:

أ - التنكّر للسببية.
ب- توهّم تعارض العقل والنقل.
ج- التشكيك في قيمة أصلي الحياة الإسلامية: القرآن والسنّة.

ونحن سنتعرّض لكل واحدة من هذه الارتكاسات في الصفحات التالية:

أ - التنكّر للسببية:

إنّ الاعتقاد بالسببية أصل في بناء العقل السليم، وتقوم على الاعتراف بالعلاقة والنتيجة، فالحرارة تولّد التمدّد في الحديد، والبرودة تولّد التجمّد في الماء إلخ...، لكنّ هذا الأمر البديهي الذي أقرّ به الإسلام ودعا إليه القرآن والسنّة تعرّض إلى الاهتزاز على يد الأشاعرة، فتنكّر له الغزالي وغيره من المتكلّمين المسلمين بحجّة الردّ على الفلاسفة والدهريين الذين ينكرون وجود الخالق، ويعتبرون أنّ الأسباب هي الفاعل، فقال الأشاعرة ردّاً عليهم وإبطالاً لحجّتهم إنّ الله هو الفاعل، فالسكّين لا تقطع والنار لا تحرق إلا بمشيئة الله، مع أنّ الارتباط بين السبب والنتيجة



يمكن أن يكون دليلاً على عظمة الخالق وقدرته، وكما قال ابن تيمية: "إنّ الذين أنكروا الارتباط بين الأسباب والنتائج لم يقيموا ديناً ولا دنيا" .

إنّ هذا التنكّر للسببية عند الأشاعرة هدم جانباً من البناء العقلي عند الأمّة المسلمة، وهدم جانباً كبيراً من البناء العلمي الذي يقوم على التجربة العلمية والتي كانت أساس نهضة الحضارة الغربية الحديثة، وإنّ هذا التنكّر فتح الباب واسعاً للتصوّف لكي ينتشر ويترسّخ في الحياة الإسلامية بكل ما فيه من شطح وتغييب للعقل.



ب- توهّم تعارض العقل والنقل:

يُفترض ألاّ يكون هناك تعارض بين العقل والنقل، أو كما قال ابن تيمية إنه لابدّ من توافق النقل الصحيح مع العقل الصريح، وإذا حصل تعارض فذلك يدلّ إمّا على عدم صحّة النقل وإمّا على عدم صواب العقل، لكنّ المتأثّرين بالفلسفة توهّموا التعارض بينهما في بعض الأحيان لذلك لجأوا إلى حلّ هذا التعارض إمّا بتقديم العقل على النقل، وإمّا بالتأويل، وقد فتح كلا الحلّين شروراً عظيمة على الشخصية المسلمة وعلى المجتمع الإسلامي وعلى الأمّة الإسلامية، أبرزها إخضاع الشريعة الإسلامية للعقل البشري القاصر من جهة، ولتأويلات الفلسفات المختلفة من جهة ثانية.

ج- التشكيك في قيمة أَصْلَيْ الحياة الإسلامية: القرآن والسنّة:

شكّل الدليل السمعي بشقّيه الآية والحديث أصلاً رئيسياً من أصول صياغة الحياة الإسلامية في كل مجالاتها، إنّ إيمان المسلم بأنّ الدليل السمعي وحي من الله استتبع أن يكون لديه إيمان بأنّ فيه علماً كاملاً، وحقاً شاملاً، وصواباً أكيداً، وبالتالي يولّد عنده اليقين في مختلف مجالات حياته: الدينية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية والعقلية والفنية إلخ...



ولقد كان هذا الإيمان جزءاً من شخصية كل صحابي، وانتقل هذا الفهم إلى الأجيال التالية من المسلمين، لكن برزت مقولات من بعض الأشخاص في مرحلة تالية تشكّك في قيمة الدليل السمعي وفي قيمة حديث الآحاد وأنا سأستعرض ذلك في الفقرتين التاليتين:

1- التشكيك في الدليل السمعي:

الرازي أبرز من قالوا إنّ الدليل السمعي لا يفيد اليقين فقال: "مسألة الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقّن أمور عشرة: عصمة رواة تلك الألفاظ، وإعرابها وتصريفها، وعدم الاشتراك والمجاز والنقل والتخصيص بالأشخاص والأزمة، وعدم الإضمار والتقديم والتأخير والنسخ وعدم المعارض العقلي الذي لو كان لرجّح عليه، إذ ترجيح النقل على العقل يقتضي القدح في العقل المستلزم للقدح في النقل، لافتقاره إليه، فإذا كان المنتج ظنّياً فما ظنّك بالنتيجة؟"[1] وقد تصدّى بعض العلماء

---

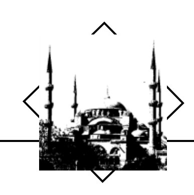
[1] انظر "محصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين" ص51، وانظر "الأربعين في أصول الدين" ص414 وكلاهما للرازي.



للمقولة السابقة[2] ،وبيّنوا خطورتها وعدم صوابها، ولا مجال للتفصيل في عرض وجهات النظر المتقابلة بشأن الموضوع السابق، لأنّ المقام لا يتسع لذلك، ولكنّ الأهم التنبّه إلى مدى خطورة النقلة التي يشكّلها القول الجديد الذي يعارض معارضة كاملة الأساس الذي بنى المسلمون عليه حياتهم، وإلى مدى الهدم الذي ينتج عنه وهو التشكيك في أهم أصل من أصول حياة المسلمين السابقة، وإلى مدى الخطورة التي تنتج عن حلّ الإشكالية المتوهّمة بين الدليل النقلي والعقلي بالتوجّه إلى التأويل الذي سيجعل الحقائق الإسلامية عرضة للتغيرات المستمرّة حسب أهواء وتخيّلات ومقولات ومفهومات الشخص المؤوّل.

---

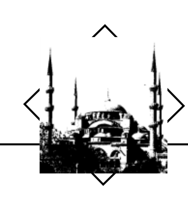
[2] انظر كتاب ابن تيمية "موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول" أو "درء تعارض العقل والنقل".



2- عدم إفادة حديث الآحاد العلم والعمل:

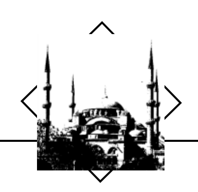
تجسّد الفقه في مدرستين: الأولى: مدرسة الرأي، الثانية: مدرسة الحديث. وقد تمثّلت مدرسة الرأي بأبي حنيفة في الكوفة ومالك في المدينة رحمهما الله، وكان لهما موقف من حديث الآحاد وشروط لأخذ العلم منه وللعمل به، ثم جاء الشافعي تلميذ مالك فدرس الموطّأ على يديه وأخذ فقه أهل المدينة منه، ثم سافر إلى العراق والتقى بمحمد بن الحسن الشيباني وأخذ عنه فقه العراقيين، ثم عاد إلى مكّة، ونصر السنّة في عدّة مجالات كان أبرزها حديث الآحاد فأوجب الأخذ به، والعمل به دون شروط واعتبره قادراً على تخصيص القرآن، واستهجن أن يُرَدّ حديث الآحاد ولا يُعمل به لأوهى الأسباب كما فعل مالك، ووضّح موقفه، وحشد حججه في كتبه المنقولة: "الرسالة"، و"الأُمّ"، و"جماع العلم"، و"اختلاف مالك".

ليس من شكّ بأنّ هذا الموقف سديد وسليم وقد جلب خيراً عميماً للأمّة الإسلامية لأنه جعلها تتفاعل مع قسم كبير من سنّة الرسول ﷺ ، لذلك أخذ الشافعي بحقٍّ لقب "ناصر السنّة" واعتبر "مجدّد المائة الثانية".



ثم جاء أحمد بن حنبل تلميذ الشافعي وسار على نهجه، وشدّد على قيمة حديث الآحاد، ووافق أستاذه على أنّ حديث الآحاد يفيد علماً ويوجب عملاً، وجمع كتاب "المسند" لكي يكون مصدراً من مصادر الربط بين الفقه والسنّة.

كان المفترض أن تبقى مسيرة الفقه بعد أحمد بن حنبل مرتبطة بما انتهى إليه أحمد بن حنبل على الأقل في الموقف من حديث الآحاد، لكننا نجد أنّ مسيرة الفقه عادت مرّة ثانية إلى الوراء واشترطت شروطاً لأخذ العلم من حديث الآحاد ولإيجاب العمل به، يمكن أن نمثّل على هذا الموقف بالآمدي والغزالي، ونجد تفصيلاً لذلك في كتاب "الإحكام في أصول الأحكام" للآمدي، و "المستصفى" للغزالي.



العامل الثاني في ضعف الأمّة:

التصـوّف

يقسّـم المتصـوّفة الـدين إلى ظـاهر وبـاطن، وإلى شـريعة وحقيقـة، ويعتبرون أنفسهم أهل الباطن وأهل الحقيقة، في حين أنّ الآخرين يهتمّون بالرسوم والظاهر والشريعة، ويعتبرون مثل الشيعة أنّ الولاية هي نقطة الانطلاق، ويؤسّسون لها من خلال النصوص التي وردت عن الولاية في القرآن الكريم والحديث الشريف، فقال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ﴾ (يونس)، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ ﴾ (التوبة، 71)، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ ﴾ (المائدة)، كما يستشهد المتصوّفة بحديثين على التأسيس للولاية وهما قول الرسول ﷺ: "إنّ من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل: من هم لعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابّوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس" ثم قرأ: (ألا إنّ أولياء الله لا خوف



عليهم ولا هم يحزنون)" [1]. ويروي المتصوّفة حديثاً آخر يدلّ على الولاية وهو قوله ﷺ: "إنّ الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته" [2].

ويرى المتصوّفة أنّ الولاية ضرورية لبقاء هذه الأمّة وحفظ دينها، لأنها ثالثة البراهين التي لابد منها لبقاء آيات الله ظاهرة، فهناك برهانان، أولهما: "البرهان الخبري"وقوامه أخبار القرآن والسنّة، وثانيهما "البرهان العقلي" وقوامه "الحجج العقلية" على وجود الله وصدق الرسول، وثالثهما "البرهان العياني" وهو ما يؤدّيه أولياء التصوّف، ولما كانت نبوة محمد ﷺ

---

[1] حديث صحيح، أخرجه ابن حبّان في صحيحه، والشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (93/3) حديث رقم (3023).

[2] حديث صحيح، أخرجه البخاري (158/20).



تقوم على المعجزة، فإنّ برهان الأولياء يقوم على الكرامات الذي هو من جنس المعجزة، فالولاية استمرار للنبوة، والكرامة استمرار للمعجزة.

ويرى المتصوّفة أنّ الأولياء يجوز أن يسمعوا من الأنبياء، ويرون أنّ مرتبة الولاية تنتهي بالوصال، وأدنى الوصال مشاهدة العبد ربه بعين قلبه، وكما يقول النوري: "مكاشفات العيون: الأبصار، ومكاشفات القلوب: الاتصال" [1]، ويستند المتصوّفة في قولهم هذا على حديث شريف قال الرسول ﷺ فيه: "إنّ لله تعالى وتبارك شراباً لأوليائه إذا شربوا سكروا وإذا سكروا طربوا وإذا طربوا طابوا وإذا طابوا ذابوا وإذا ذابوا خلصوا وإذا خلصوا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم".

ويرى المتصوّفة أنّ الأولياء يأخذون عن الله والرسول ﷺ بالكشف، ويرى ابن عربي أنّ هذا الولي يقيم الله له مظهر محمد ﷺ وهو يأخذ الوحي عن جبريل فيأخذ نفس الشرع من جبريل كما أخذ محمد ﷺ ، إنّ هذا الولي يستطيع تصحيح الحديث النبوي مع النبي

---

[1] اللمع، الطوسي، ص442.

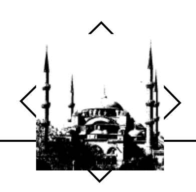


محمد ﷺ نفسه، بصورة مباشرة ودونما حاجة إلى إسناد [1]، والخلاصة إنّ ابن عربي لا يجعل الكشف فقط تجلّياً للذات الإلهية للعارف، بل أيضاً العلم اليقين بما هو صحيح وما هو غير صحيح في الشريعة، أي يوسّع ابن عربي دائرة التصوّف لتشمل "الشريعة" فضلاً عن "الحقيقة".

ولا تقف سلطة الولاية عند المتصوّفة عند حدود العلم والاتصال بالله بل إنّ نفوذهم يسري في الأمّة كلها، فبهم يحفظ الله كيانها، بل وكيان الكون بأسره، ويجعلون لهم هيكلاً كهيكل الدولة، وقد تحدّث عن هذا أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني المتوفى سنة 322هـ، وهو من متصوّفة بغداد ممن صحب الجُنيد والنوري، يجعل هيكل دولة الولاية الصوفية كما يلي: الغَوْث ويليه أربعة عمد يليهم سبعة أخيار ثم أربعون من البدلاء ثم سبعون من النجباء ثم ثلاثمائة من النقباء، ثم يعين مساكنهم كالتالي: "فمسكن النقباء في المغرب ومسكن النجباء في مصر ومسكن الأبدال في الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمداء في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة. فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل

---

[1] الفتوحات المكية، ابن عربي، ج1، ص150-151.



فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد ثم أجيبوا وإلا ابتهل الغوث، فلا يتم سؤاله حتى تجاب دعوته" [1].

أمّا الهجويري فيعد منهم: "أربعة آلاف وهم المكتومون ولا يعرف أحدهم الآخر، ... وهم في كل الأحوال مستورون عن أنفسهم وعن الخلق ... أمّا أهل الحل والعقد وقادة حضرة الحق ... فثلاثمائة يُدعَوْن الأخيار وأربعون آخرون يسمون الأبدال وسبعة آخرون يقال لهم الأبرار وأربعة يسمون الأوتاد وثلاثة آخرون يقال لهم النقباء وواحد يسمونه القطب أو الغوث، وهؤلاء جميعاً يَعْرِفون أحدهم الآخر ويحتاجون في الأمور لإذن بعضهم البعض". ثم يضيف: "والأخبار المروية ناطقة بهذا وأهل السنّة مجتمعون على صحة هذا" [2]. هذا ولربما يقصد بـ "الأخبار" هنا الحديث الذي يرويه المتصوّفة والذي جاء فيه على لسان النبي: "إنّ لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، ولله تعالى في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى، ولله تعالى في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، ولله تعالى في الخلق خمسة قلوب على قلب جبريل، ولله

---

(1) الطبقات الكبرى، الشعراني، ج1، ص95.

(2) المصدر السابق، الهجويري، ص448.



تعالى في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، ولله تعالى في الخلق واحد قلبه على قلب اسرافيل. فإذا مات الواحد أبدل الله عز وجل مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله تعالى مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة. فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء"، ويضيف رواة هذا الحديث: "قيل لعبد الله بن مسعود كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون ويسألون فتنبت لهم الأرض ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء" [1].

وطالما أنّ هؤلاء الأولياء يتصرّفون بالكون، لذلك فالمطلوب من المسلمين أن يتجهوا إليهم بالدعاء والاستغاثة والاستعانة، ومن هنا يقع المسلمون في الشرك الذي نهى عنه الإسلام، وجاء ليقطع دابره، ومن هنا يكون التوجّه إلى القبور وإقامة المشاهد عليها، ويقع المحذور الذي حذّر منه رسول الله ﷺ ، والذي جاء ليخالفه.

---

[1] حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، ج1، ص44.



أمّا قضية الشطح عند المتصوّفة وقولهم بعض الألفاظ المكفّرة من مثل: "سبحاني ما أعظم شأني"، "ما في الجبّة إلا الله"، والتي اعتذر لهم ابن خلدون بأنّ حالة الوجد عندهم أكبر من طاقتهم فتجعلهم يتلفّظون بهذه الألفاظ، وقد اعتبر ابن تيمية بأننا يمكن أن نمتحن هؤلاء المتصوّفة ونضعهم على حدّ جدار لنعرف مدى صدقهم في أقوالهم، وهل يتراجعون عنها عندما يقفون على حافة جدار، والجدير بالذكر أنّ ما يستند له المتصوّفة في دعواهم تلك يقوم على أساس أنّ الاتصال ممكن بذات الله عند المتصوّفة سواء عن طريق الحلول أو الاتحاد أو اكتشاف وحدة الوجود، بعد أن يقتل المتصوّف الجانب المادي في جسده عن طريق المجاهدات المضنية والمهلكة من أجل أن يطلق روحه من أَسْر الجسد، والأمران مخالفان لأوامر الإسلام، فالإسلام أقام بناءه على أساس أنّ ذات العبد منفصلة عن ذات الله ولا يمكن أن تلتقي بها، مهما ارتقى المسلم في مصاف العبادة، ومهما جاهد شهواته، فسيبقى عبداً، وبالعكس يزداد شرفه كلما تحقّقت عبوديته لله بمعنى كلما ازداد خوفاً من الله ورجاء له وتعظيماً وخضوعاً ومحبّة إلخ... أي كلما ازداد عبودية زاد شرفاً والعكس صحيح كلما ازداد شرفاً ازداد عبودية هذا من جانب، لذلك وصف الله محمداً ﷺ بالعبودية في رحلة الإسراء والمعراج التي تعتبر من أشرف



المقامات التي ارتقاها رسول الله فقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (الإسراء). ومن الجانب الآخر نهى الإسلام عن إهلاك الجسد واعتبر أنّ التمتع بالشهوات والطيبات عبادة إذا نوى بها حمد الله عليها كما جاء في الحديث الشريف: "في بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً" [1].

وأمّا عن قضية الشيخ، فالصوفية توجب اتباع الشيخ لأخذ الطريقة، قال أبو يزيد البسطامي: "من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان"[2].

وترى المتصوّفة أنّ علاقة المريد بالشيخ يجب أن تكون علاقة طاعة بشكل مطلق، طاعة ظاهرة بالجوارح وباطنة بالقلب، نقل القشيري عن

---

[1] حديث صحيح، أخرجه مسلم (177/5).

[2] الرسالة، القشيري، ص181.



أبي علي الدقّاق: "بدء كل فرقة: المخالطة. يعني أنّ من خالف شيخه لم يبق على طريقه، وانقطعت العلاقة بينهما وإن جمعتهما البقعة، فمن صحب شيخاً من الشيوخ ثم اعترض عليه بقلبه، نقض عهد الصحبة ووجبت عليه التوبة. على أنّ الشيوخ قالوا: حقوق الأستاذين لا توبة عنها" [1] .

ولقد كان التصوّف ذا آثار مختلفة، فقد أدّى إلى الاستلاب النفسي عند المسلمين، وأدّى إلى استهلاك طاقاتهم وتفريغها في أوهام السعي للاتحاد بالله أو سراب حلول الله بالعبد أو خيالات اكتشاف وحدة الوجود. في حين أنّ العبادة في الإسلام شحن إيجابي للنفس من أجل القيام بأعباء الحياة ومواجهة الباطل في الأرض.

وقد أدّى التصوّف بالمسلمين إلى الابتعاد عن السببية التي أصّلها القرآن، وقامت عليها حياة المسلمين وذلك لأنّ العلم والمعرفة والتصوّف يأتي عن طريق الكشف، وأنه يمكن الحصول على المعرفة عن طريق الغنوص وهو الاتصال الروحي، وقد أدّى انتشار التصوّف إلى القول

---

[1] الرسالة، القشيري، ص150-151.

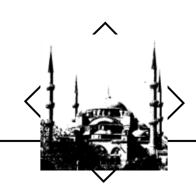


بتجاوز الأسباب والمسبّبات والقفز عليها، وترك التدبير لأنهم اعتبروا أنّ التوكّل على الله يقتضي ترك التدبير.

وأدّى التصوّف إلى انسحاب المتصوّفة من المجتمع والانشغال بالذات لأنه يقوم على قاعدة "دع الخلق للخالق"، لذلك أدّى هذا المنهج إلى عدم اهتمام المسلمين بمحيطهم الاجتماعي، وإلى فشو المنكرات والشرك والبِدَع وعدم التصدّي لها انطلاقاً من تلك الأصول الصوفية.

وأدى التصوّف إلى أن يعتقد المتصوّف بعد المجاهدات التي يقوم بها والتي توصله إلى الاتحاد بالله أو حلول الله فيه أو اكتشاف وحدة الوجود بسقوط التكاليف عنه، لذلك فإنه يستبيح كل المحرّمات، ويعتقد أنّ هذه التكاليف هي للعبد، وإنه انعتق من هذه العبودية، لذلك فلا تكاليف عليه، وهذا يؤدّي إلى الانحلال الخُلُقي الذي رأينا كثيراً من المتصوّفة قد وقعوا فيه.

وقد ذكر الدكتور محمد عابد الجابري أنّ التصوّف السنّي منقول عن التصوّف السابق على الإسلام، ناهيك عن التصوّف الفلسفي الموجود لدى السهروردي المقتول والحلاّج وابن سينا وغيرهم، والذي هو منقول عن التصوّف الفلسفي السابق على الإسلام، وقد اجتهد الدكتور الجابري



أن يثبت أنّ العرفانية الهرمسية هي البُنية الأُم للفكر العرفاني السنّي وغيره، وهو أوضح ذلك من خلال مصطلح واحد أساسي في الفكر الصوفي الإسلامي، وهو مصطلح "المقامات" ورأى أنّ التدرّج في المقامات مطابق لفكرة "المعراج" الهرمسي، وأنّ هذه المقاربة بين فكرة "المقامات" الصوفية وفكرة "المعراج" الهرمسي والإسماعيلي هي مقاربة على صعيد المعنى والمضمون. وعلى الرغم من أنها ترقى إلى مستوى المطابقة فإنّ باب العناد والجدال سيبقى مفتوحاً أمام المتصوّفة الذين سيتمسّكون بالقول إنهم إنما أخذوا فكرة "المقام" من القرآن وسيكون لادعائهم هذا ما يؤسّسه نوعاً من التأسيس ما دامت كلمة "مقام" قد وردت في القرآن في سياق يحتمل التأويل الصوفي. غير أنّ هذه الدعوى تنهار تماماً إذا عرفنا أنّ لفظ "مقام" في الأدبيات الصوفية ليس هو اللفظ الذي استعمل أول الأمر للدلالة على المعنى الصوفي المراد به، ذلك أننا إذا رجعنا إلى الشخصية الصوفية الأولى التي فصلت القول في "المقامات"، وهي أبو سليمان الداراني المتوفى سنة 205هـ وجدناه يعبّر عن الفكرة بلفظ "الدَّرَج" حيناً وبلفظ "المقام" حيناً آخر. من ذلك مثلاً أنه يخاطب تلميذه أحمد بن أبي الحواري قائلاً:



"ما من شيء من درج العابدين إلا ثبت، إلا هذا التوكل المبارك، فإني لا أعرفه إلا كسام الريح ليس يثبت" [1]. وواضح أنّ عبارة "درج العابدين" هنا هي ما سيستقرّ الاصطلاح عليه بـ "مقامات العارفين". وواضح كذلك أنّ استعمال كلمة "درج" قبل استقرار كلمة "مقام" دليل على أنّ الفكرة هنا سابقة للفظ، وأنّ المتصوّفة لم يأخذوا فكرة "المقام" من القرآن كما يدّعون، بل إنما أخذوها من الموروث العرفاني السابق على الإسلام فترجموها إلى العربية أولاً بكلمة "درجة"، و "درج" ، ثم استقر الاصطلاح فيما بعد على كلمة "مقام"، وغني عن البيان القول إنهم إنما فضلوا هذه الأخيرة لورودها في القرآن ولإيهام الناس أنهم إنما "يستنبطون" معارفهم من القرآن. هذا في حين أنّ كلمة "درج" أكثر تعبيراً عن المعنى المقصود. فالأمر يتعلّق بـ "المعراج"، "معراج السالكين" أي بالصعود من درجة إلى درجة. أمّا كلمة "مقام" فهي تفيد مكان الإقامة. وليس من الضروري أن يكون مرحلة للانتقال صعوداً، بل قد يكون مرحلة من مراحل السفر على سطح مستو، سطح الأرض [1].

---

[1] حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، ج2، ص256.

[1] بُنية العقل العربي، الجابري، ص373.



العامل الثالث في ضعف الأمّة:

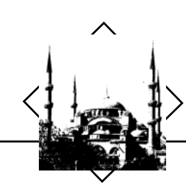
نشـوء الفِرَق [1]

نشأت عدّة فِرَق في نهاية حكم الخلفاء الراشدين والحكم الأُمَوي وهي: فِرَق الخوارج والشيعة والمعتزلة، ولاشكّ أنّ نشوء الفِرَق كان عاملاً مهمّاً في إضعاف الأمّة، وفي تفرّقها، وفي دبّ الوهن في جسمها. فما العوامل التي أدّت إلى نشوء هذه الفِرَق؟

العامل الرئيسي الذي ولّد هذه الفِرَق هو عدم تطابق فهمها مع فهم القرآن والسنّة كما نقله الصحابة، وعدم استطاعتها التخلّص من الموروثات السابقة من أجل التفاعل مع الدين الجديد ويمكن أن نوضّح ذلك بالنسبة لثلاث فِرَق وهي: الخوارج، والشيعة، والمعتزلة.

---

[1] ذكرت في كتابي "الأمّة الإسلامية بين القرآن والتاريخ: دراسة وتحليل" أنّ علماء الأمّة وعوا أهمّية الوحدة في استمرار وجود الأمّة وفاعليتها، لذلك أولوا اهتماماً كبيراً لأصلي هذه الوحدة، وهما: القرآن الكريم والسنّة المشرّفة من زاويتين الأولى: حفظ نصوصهما، والثانية: إيجاد آلية واضحة لتحديد معانيهما، وقد بيّنت ذلك بالتفصيل في كتابي المذكور أعلاه الصفحات (42-47).



الفرقة الأولى: **الخوارج:**

انشقّت الخوارج عن علي ﵁ إثر معركة صِفِّين، لأنه رضي التحكيم مع معاوية وكفّرت الطرفين وقاتلهم علي بن أبي طالب في معركة النهروان، ثم تبلورت أفكارهم بعد ذلك، وقامت على أساس التكفير بالذنب والمعصية فكل من يرتكب كبيرة من الكبائر فهو مخلّد في النار، وقد اتصفوا بكثرة العبادة وخير من تحدّث عنهم الرسول ﷺ ، وأنا سأنقل الأحاديث التي تحدّثت عنهم ثم سأجتهد في استخلاص صفاتهم منها، وهذه الأحاديث الشريفة هي:

1- عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول الناس، يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. فمن لقيهم فليقتلهم، فإنّ قتلهم أجر عند الله لمن قتلهم" [1].

[1] حديث صحيح، رواه ابن ماجة والترمذي، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع (8052) وصحيح ابن ماجه وصحيح الترمذي.



2- عن أبي سَلَمَة، قال: قلت لأبي سعيد الخُدري: هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر في الحرورية شيئاً؟ فقال: سمعته يذكر قوماً يتعبّدون: "يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصومه مع صومهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. أخذ سهمه فنظر في نصله فلم ير شيئاً. فنظر في رصافه فلم ير شيئاً. فنظر في قدحه فلم ير شيئاً. فنظر في القذذ فتمارى هل يرى شيئاً أم لا" [1].

3- عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنّ بَعدي من أمّتي. أو سيكون بَعدي من أمّتي قوماً يقرأون القرآن، لا يجاوز حلوقهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه. هم شرار الخلق والخليقة". قال عبدالله بن الصامت: فذكرت ذلك لرافع بن عمرو أخي الحكم بن عمرو الغفاري فقال: وأنا أيضاً سمعته من رسول الله ﷺ [2].

---

[1] حديث صحيح، رواه ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني في ظلال الجنة (923).

[2] حديث صحيح، رواه ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (242/1) حديث رقم (170).



4- عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: "ليقرأنّ القرآن ناس من أمّتي، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية" [1].

5- عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ بالجعرانة وهو يقسّم التبر والغنائم، وهو في حجر بلال، فقال رجل: اعدل يا محمد! فإنك لم تعدل. فقال: "ويلك! ومن يعدل بعدي إذا لم أعدل؟" فقال عمر: دعني يا رسول الله حتى أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: "إنّ هذا في أصحاب، أو أُصَيْحاب له، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" [2].

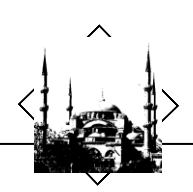
6- عن ابن أوفى، قال: قال رسول الله ﷺ: "الخوارج كلاب أهل النار" [3].

---

[1] حديث صحيح، رواه ابن ماجه وأحمد، الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة (200/5) حديث رقم (2201).

[2] حديث صحيح لغيره، رواه ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني في ظلال الجنّة رقم (943).

[3] حديث صحيح، الشيخ ناصر الدين الألباني في ظلال الجنّة (142/2) حديث رقم (904).



7- عن ابن عمر، أنّ رسول الله ﷺ قال: "ينشأ نشء يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. كلّما خرج قرن قطع" قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كلما خرج قرن قطع" أكثر من عشرين مرّة. "حتى يخرج في عراضهم الدجال" [1].

8- عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج قوم في آخر الزمان، أو في هذه الأمّة يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، أو حلوقهم، سيماهم التحليق، إذا رأيتموهم، أو إذا لقيتموهم، فاقتلوهم" [2].

9- عن أبي أُمامة، يقول: شرّ قتلى تحت أديم السماء، وخير قتيل قتلوا، كلاب أهل النار، قد كان هؤلاء مسلمين فصاروا كفّاراً. قلت: يا أبا أُمامة هذا شيء تقوله؟ قال: بل سمعته من رسول الله ﷺ [3].

صفات الخوارج:

---

[1] حديث حسن، رواه ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (246/1).

[2] حديث صحيح، رواه ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني في ظلال الجنّة (945، 940).

[3] حديث حسن، رواه ابن ماجه، الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح ابن ماجه (248/1).



من خلال استقرائنا للأحاديث السابقة نستطيع أن نذكر صفاتهم وهي:

1- أنهم كثيرو قراءة القرآن، لكنّ قراءتهم للقرآن سطحية ليس فيها تدبّر ولا تعمّق، وأشارت الأحاديث إلى ذلك من خلال عدّة تعبيرات: "لا يجاوز تراقيهم"، "لا يجاوز حلوقهم".

2- أنهم كثيرو الصلاة والصيام، لكنّ هذه العبادات لا تثمر سلوكاً قويماً، بل تثمر رسوماً ومظاهر، وتأتي التعبيرات عن ذلك بقول الرسول ﷺ: "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية".

3- يأتي وصف صريح لهم بأنهم من أشرّ خلق الله لأنهم لم يستعملوا عقولهم في تدبّر النصوص، ولم يوطّنوا قلوبهم على الثبات في أمر الدين فيقول الرسول ﷺ: "هم شرار الخلق والخليقة"، "الخوارج كلاب أهل النار"، "شرّ قتلى قتلوا تحت أديم السماء".

4- يدعو الرسول ﷺ إلى قتلهم ويمتدح قاتليهم فيقول: "فمن لقيهم فليقتلهم فإنّ قتلهم أجر عند الله لمن قتلهم"، "إذا رأيتموهم، أو إذا لقيتموهم فاقتلوهم"، "وخير قتيل من قتلوا".



هذه هي صفاتهم التي تنبّأ الرسول ﷺ بها، فماذا قال التاريخ عنهم؟

نجد أنّ الوقائع التاريخية جاءت مصدّقة لكلام الرسول ﷺ ، ولتوصيفه لهم، فقد ذكرت كتب التاريخ أنهم كانوا قوّامين للّيل، بكّائين، شديدي الخوف من النار ومن عذاب جهنم، ومع ذلك كانوا شديدي الاستهانة بدماء المسلمين وحرماتهم، ومن أبرز القواعد التي بنوا عليها تفكيرهم هي التكفير بالمعصية والذنب، وهي تدلّ على تناول سطحي للأحكام، وظاهري للآيات والأحاديث دون أيّة محاولة لتدبّر، أو إعمال عقل، أو ربط بين مختلف الآيات والأحاديث والأحكام، فمن أين جاءتهم هذه السطحية والظاهرية وعدم التدبّر؟ الحقيقة: إنها جاءت من بيئتهم البدوية[1] ولم يستطيعوا أن يرتقوا بعقولهم، ويستفيدوا من تعليمات الإسلام، لذلك كان الجنوح والشطط [2].

---

[1] إذا استعرضنا أوضاع الفئات التي انضوت تحت لواء الخوارج نجد أنّ جميعها قبائل بدوية.

[2] الرسول ﷺ كان يدرك خطورة البداوة لذلك حرّم الرسول ﷺ العودة إلى البداوة لمن تحضّر.



الفرقة الثانية: **الشيعة:**

الأرجح أنّ تقنين قواعد المذهب الشيعي بدأ من جعفر الصادق. وقد كان تحت يديه مجموعتان علميّتان إحداهما تحت إشراف موسى الكاظم وكان من أبرز علمائها هشام بن الحكم، والثانية بإشراف ابنه إسماعيل، وكان من أبرز علماء المجموعة الثانية: أبو الخطاب وميمون القداح، وقد نتج عن هاتين المجموعتين فرقتان: الشيعة الإثناعشرية، والإسماعيلية التي أنشأت الدولة الفاطمية، وسنكتفي بالحديث عن الفرقة الأولى، لأنها أكثر حضوراً في حياتنا المعاصرة، ونحن سنتعرّض لأهم الأمور التي قامت عليها فرقة الشيعة.

الأصول التي قامت عليها فرقة الشيعة:

1- في مجال السياسة:

اعتبر أهل السنّة أنّ الرسول ﷺ ترك اختيار الإمام للمسلمين، لذلك اجتمع المسلمون بعد وفاته في سقيفة بني ساعدة واختاروا أبا بكر رضي الله عنه، لكنّ الشيعة ترى أنّ الرسول ﷺ نصّ على إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويَرْوُون في ذلك عدّة أحاديث أبرزها حديث غدير خم



الذي قال فيه الرسول ﷺ: "من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق حيث دار، ألا هل بلّغت؟" [1] قالها ثلاثاً حسب الرواية.

وتُنَظِّر فرقة الشيعة لقضية الإمامة فتقول: "ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بتنصيبهم، بل هي قضية أصولية وهي ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول ﷺ إغفاله وإهماله وتفويضه إلى العامة وإرساله. ويجمع الشيعة القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر، وما كان في الدين الإسلامي أمر أهم من الإمام حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمّة، وإنما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق. فلا يجوز أن يفارق الأمّة ويتركهم هملاً يرى كل واحد منهم رأياً ويسلك كل واحد منهم طريقاً ولا يواقع في ذلك غيره، بل يجب أن يعيّن شخصاً هو

---

[1] صحّح الشيخ ناصر الدين الألباني الجزء الأول فقط من الحديث "من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" في السلسلة الصحيحة (330/4) حديث رقم (1750).

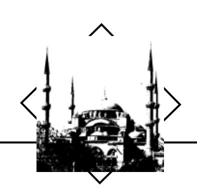


المرجوع إليه وينصّ على واحد هو الموثوق به والمعوّل عليه. وقد عيّن عليّاً في مواضع تعريضاً وفي مواضع تصريحاً" [1].

وذكرت الشيعة عدداً من الروايات التي تؤيّد وجهة نظرهم من ذلك وهي بين التلميح والتصريح، وأهل السنّة يعترفون ببعض هذه الروايات لكن لا يعتبرونها تلميحاً ولا تصريحاً من الرسول ﷺ على أنّ الخليفة من بعده هو علي بن أبي طالب، وبالإضافة إلى التلميح والتصريح لجأت المصادر الشيعية إلى التأويل الباطني لبعض الأدلة الدينية، من ذلك ما يُروى عن الإمام محمد الباقر، من أنه قال في تفسير آية النور: " ... كمشكاة فيها مصباح: يعني نور العلم في صدر النبي. المصباح في زجاجة: الزجاجة صدر علي: علّم النبي عليّاً علماً يوقد من شجرة مباركة هي نور العلم ..."، ومن ذلك أيضاً تأويلهم لقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (المائدة) إذ قالوا: المقصود بـ "النور" هو محمد و بـ "الكتاب": القرآن. وإنّ نور محمد يَسْري في الأئمة من وَصِيِّهِ علي بن أبي طالب إلى ذريته من بعده. ولتأكيد هذا المعنى يَرْوُون عن النبي حديثاً يقول فيه: "إنّ الله خلقني وخلق عليّاً والحسن

---

[1] المِلَل والنِّحَل، الشهرستاني، ج1، ص146.



والحسين من نور واحد، فعَصَرَ ذلك النور عصرة فخرجت منه شيعتنا" كما يروون عن جعفر الصادق، الإمام الشيعي السادس، قوله: "إنّ العلم الذي أُنزل على آدم لم يرفع، وما مات عالم إلا وقد ورث علمه"، وعن الباقر قوله: "إنّ علياً كان عالماً والعلم يتوارث"، وعن جعفر الصادق أنه سُئِل عن معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۞ ﴾ (الرعد)، فقال: "المنذر رسول الله ونحن الهداة، في كل عصر منّا إمام يهدي الناس إلى ما جاء به رسول الله مما جهلوه، وأول الهداة عليّ". وتذكر روايات الشيعة عن النبي أنه قال: "ليتولّ الله علياً والأوصياء من بعده، وليسلم لفضله فإنهم الهداة بعده، لقد أعطاهم الله علمي وفهمي وجعلهم في صفي وأهلاً لولايتي وللإمامة مني بعدي" [1].

---

[1] نجد هذه الروايات وكثيراً غيرها في مختلف المصادر الشيعية. ومن أهم المصادر الاثنا عشرية أصول الكافي لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني.



2- في مجال أركان الدين:

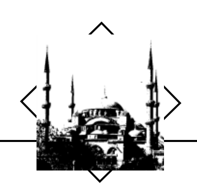
اعتبرت الشيعة أنّ قضية الإمامة من أركان الدين بل أهمّها، ويروون حديثاً يقول: "بُني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والولاية" وتضيف نفس الرواية: "وما نودي بشيء مثل ما نودي بالولاية" [1]. ويَرْوُون حديثاً آخر عن الإمام الباقر يقول فيه: "بُني الإسلام على سبع دعائم: الولاية، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد" [2].

والولاية في التصوّر الشيعي سلطة "إلهية" خصّ الله بها الأنبياء والأولياء سواء بسواء. ذلك أنّ كل الفرق بين النبي والولي، حسب ما يَرْوُونه عن جعفر الصادق هو أنّ النبي يحلّ له من النساء أكثر من أربع بينما لا يحلّ ذلك للوليّ، وهم يؤكّدون وجهة نظرهم في الولاية بأحاديث يملأون بها كتبهم، ومن ذلك الحديث الذي يرويه المسعودي فيقول: "وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إنّ الله

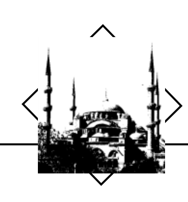
---

[1] ذكر هذا النص موسى الصدر في تقديمه لكتاب هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية.

[2] تأويل الدعائم، النعمان، ص51.



حين شاء تقدير الخليقة وذر البرية وإبداع المبدعات نصب الخلق في صورة كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء وهو انفراد ملكوته وتوحيد جبروته، فأتاح نوراً من نوره فلمع، ونزع قبساً من ضيائه فسطع، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصورة الخفية فوافق ذلك صورة نبيّنا محمد ﷺ. فقال الله عزّ وجلّ من قائل: أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطح البطحاء وأموّج الماء وأرفع السماء وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يشكل عليهم دقيق ولا يعييهم خفي، وأجعلهم حجّتي على بريّتي والمنبهين على قدرتي ووحدانيتي. ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والإخلاص وبالوحدانية، فبعد أخذ ما أخذ من ذلك الشارب ببصائر الخلق انتخب محمداً وآله وأراهم أنّ الهداية معه والنور له والإمامة في آله، تقديماً لسنة العدل وليكون الإعذار متقدماً، ثم أخفى الله الخليقة في غيبه وغيَّبَها في مكنون علمه ثم نصب العوامل وبسط الزمان وموج الماء وأثار الزبد وأهاج الدخان وكان عرشه على الماء، فسطح الأرض على ظهر الماء وأخرج من الماء دخاناً فجعله السماء، ثم استجابت الأرض والسماء إلى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها وأرواح اخترعها وقَرَن بتوحيده نبوة محمد ﷺ فشهره في



السماء قبل بعثته في الأرض. فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة وأراهم ما خصّه به من سابق العلم حيث عرفه عند استنبائه أسماء الأشياء، فجعل الله آدم محراباً وكعبة وباباً وقبلة أسجد إليها الأبرار والروحانيين الأنوار، ثم نبّه آدم على مستودعه وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه، بعدما سمّاه إماماً عند الملائكة، فكان حظ آدم من الخير ما أراه من مستودع نورنا. ولم يزل الله تعالى يخبئ النور تحت الزمان إلى أن وصل محمداً ﷺ في ظاهر الفترات، فدعا الناس ظاهراً وباطناً وندبهم سراً وإعلاناً، واستدعى عليه السلام التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذر قبل النسل فمن وافقه وقبس من مصباح النور المقدم اهتدى إلى سره واستبان واضح أمره، ومن ألبسته الغفلة استحق السخط" ثم يضيف الحديث على لسان جعفر: "وانتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أئمّتنا فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض، فبنا النجاة ومنّا مكنون العلم وإلينا مصير الأمور وبمهدينا تنقطع الحجج، خاتمة الأئمة ومنقذ الأمّة وغاية النور ومصدر الأمور. فنحن أفضل المخلوقين وأشرف الموحّدين وحجج رب العالمين، فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض على عروتنا" ويختم المسعودي قائلاً: "فهذا ما رُوِيَ عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه



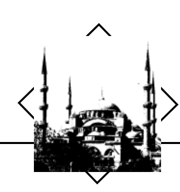
محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" [1].

يقوم تصوّر الولاية عند الشيعة الإثناعشرية على أنّ هناك "الحقيقة المحمدية" و"النور المحمدي" الذي لمع وسطع من نور الله فكان أول ما أبدعه الله، هذا النور الذي يسري في الكون منذ الأزل والذي كانت منه نبوة آدم ومن جاء بعده من الأنبياء إلى أن وصل محمداً ﷺ، فانتقل منه إلى الأئمة الشيعة، ويقول جعفر الصادق مؤكداً هذا المعنى: "إنّ الله خلقنا من نور عظمته ثم صوّر خلقنا من طينة مخزونة مكنونة من تحت العرش فأسكن ذلك النور فيه. فكنا نحن خلقاً بشراً نورانيين، ولم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا فيه نصيباً، وخلق أرواح شيعتنا من طينتنا" [2].

---

[1] مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، تحقيق يوسف أسعد داغر (بيروت، دار الأندلس، 1965)، ج1، ص 38-39 .

[2] أورده الملا صدرا، على شرح كتاب الكليني، أصول الكافي، كتاب التوحيد، باب النوادر، شرح الحديث الثالث.



ويسري النور المحمدي في أئمة الشيعة من طريقين، الطريق الأول: المنطلق من الحقيقة المحمدية التي كانت أول ما أبدع الله، والطريق الثاني: البشري المنحدر من شخص النبي محمد، فإنّ علم الإمام سيكون أكمل وأتم من علم الأنبياء السابقين لمحمد ﷺ ، وهذا ما يقرّره حديث منسوب إلى جعفر الصادق يقول فيه: "وربّ الكعبة لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما، لأنّ موسى والخضر عليهما السلام أعطيا ما كان، ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة، وقد ورثناه من الرسول وراثة" [1].

وإذن، فهناك مرتبتان: مرتبة الرسول وهو الذي يوحى إليه ويكلّف بتبليغ الرسالة، ومرتبة النبي والإمام ويوحى إليهما ولكن دون أن يكلّفا بتبليغ رسالة جديدة وإنما يشرحان رسالة الرسول الذي يندرجان في دوره. وهذه المرتبة الثانية هي مضمون "الولاية" عند الشيعة، إنها نبوة الإمام، وهي مستمرّة ولم تختم، ولن تختم إلا بعودة الإمام الغائب، الإمام الثاني عشر. أمّا ما خُتِمَ بمجيء محمد "خاتم النبيين والمرسلين" فهو

---

[1] أصول الكافي، الكليني، ص157.



الرسالة، وبالتحديد "نبوة التشريع" التي تتضمّن بيان الفروض والأحكام. أمّا النبوة بمعنى تلقّي الكلام الإلهي فهي مستمرّة في أشخاص الأئمة.

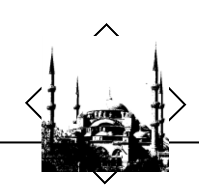
وكما أنّ النبوة صنفان: **عامة مطلقة**، وهي النور المحمدي، أو الحقيقة المحمدية التي تسري في الوجود، كما قلنا، ومنها اقتبس الأنبياء أنوار النبوة، و**خاصة مقيّدة**، وهي هذه الأنوار التي يقتبسها كل نبي والتي تشكّل روح نبوته، فإنّ الولاية صنفان كذلك: ولاية مطلقة تباطن النبوة العامة ويختمها علي بن أبي طالب، وولاية خاصة تباطن دور كل نبي من الأنبياء الكبار ويختمها الإمام الأخير في دوره، الإمام الثاني عشر برجعته. وبالنسبة لدور النبي محمد، فخاتم الولاية الخاصة بدوره هو الإمام الشيعي الثاني عشر الغائب.

وإنما كان علي بن أبي طالب خاتماً للولاية المطلقة لأنه من نفس نور محمد، كما تقول المصادر الشيعية التي تروي عدّة أحاديث تؤكّد هذا المعنى، منها حديث يقول فيه النبي: "أنا وعلي من نور واحد" وآخر يقول فيه: "خُلقت أنا وعلي من نور واحد قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام". ويشرح هذا الحديث كيف انتقل هذا النور الواحد، نور محمد وعلي، الذي كان أول ما خلق الله، بين طبقات الأنبياء وأئمة أدوارهم



حتى انقسم إلى جزئين: جزء حلّ في محمد وجزء حلّ في علي. وتؤكّد المصادر الشيعية هذا المعنى بحديث أكثر شهرة تذكره حتى المصادر السنّية. في هذا الحديث يخاطب النبي محمد ابن عمه علي بن أبي طالب قائلاً: "لولا أن يقول فيك طوائف من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمرّ على ملأ من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يَسْتَشْفون به. ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك، ترثني وأرثك وأنت مني بمنزلة هارون من موسى. إلا أنه لا نبي بعدي". وتروي المصادر الشيعية حديثاً عن النبي ﷺ يقول فيه: "أُرسل علي مع كافة الأنبياء سراً وأُرسل معي جهراً" ويعزّزون هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ (الرعد)، فيفسّرون هذه الآية بأنّ لكل نبي هادياً وبما أنّ نور الأنبياء قبس من النور المحمدي، وبما أنّ نور علي من نور محمد، فإنّ علياً سيكون حاضراً سراً مع كل نبي.

هذه المنزلة التي ترفع المصادر الشيعية إليها علي بن أبي طالب ينسحب أثرها مباشرة على الأئمة إذ تجعل "الحقيقة المحمدية" الأزلية تسري فيهم من جهة فاطمة بنت الرسول ومن جهة زوجها علي بن أبي طالب، أي من جزئي "النور المحمدي" معاً، الجزء السرمدي والجزء



البشري. ومن هنا كان الأئمة أكمل علماً من الأنبياء السابقين على محمد، ومن هنا أيضاً نفهم معنى الحديث الذي يُروى عن جعفر الصادق ويقول فيه: "إنّ الإمام إذا أراد أن يَعْلَمَ عَلِمَ" بمعنى أنه إذا أراد علم الغيب علمه، وقوله: "إنّ سليمان ورث داود وإنّ محمداً ورث سليمان وإنا ورثنا محمداً، وإنّ عندنا علم التوراة والإنجيل والزبور وتبيان ما في الأرواح". وتضيف الرواية أنّ جعفر نفى أن يكون المقصود هو مجرد معرفة ما في التوراة والإنجيل والزبور وقال: "ليس هذا هو العلم، إنّ العلم هو الذي يحدث يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة" أي وحياً. ومن هنا نفهم أيضاً معنى قول جعفر الصادق لأصحابه أنه كان يتأمّل القرآن حتى يسمعه من جبريل كما سمعه محمد صلى الله عليه وسلم [1].

3- في مجال التشريع والفقه:

تلتقي فرقة الشيعة مع أهل السنّة في القرآن الكريم، ولكنها تختلف معها بعد ذلك في بقية الأصول كالسنّة والإجماع والقياس، والمصادر الأخرى كالاستحسان والمصالح المرسلة إلخ...، فقد ألّف هشام بن الحكم رسالة تحت عنوان "نقض رسالة الشافعي"، فهم لا يأخذون بالقياس،

---

[1] أصول الكافي، الكليني، ص54.



ويستنكرون القياس ويشنّعون عليه فيقولون: "أول من قاس إبليس عندما قال: (خلقتني من نار وخلقته من طين)"، أمّا بالنسبة لمصادر السنّة الأخرى فإنّ الشيعة لا تعترف بمراجع الحديث السنّية كالبخاري ومسلم...، ولها مصادرها الحديثية كالكافي للكليني، وهم يشترطون أن يكون الحديث مروياً عن واحد من أهل البيت، وهم يعتبرون روايات الأئمة الاثنى عشر في مرتبة الحديث الشريف، لأنها تأتي إلهاماً من الله، وتأتي من معصومين، وهي تكمل ما بدأ الرسول ﷺ ، ويعتقد بعض الشيعة أن الإمام الثاني عشر الغائب يظهر في بعض الأحيان لأتباعه، ويفتي لهم في بعض القضايا والمعضلات، ويوجّههم إلى الصواب في هذه الفتوى، فمن الطبيعي أن تختلف الأحكام الفقهية في مجالات الطهارة والصلاة والصيام والزكاة بين الشيعة والسُّنة إلخ... نتيجة الاختلاف في الأصول التي تستند إليها الأحكام الفقهية.

ونشير في نهاية الكلام عن الشيعة إلى أنّ الدكتور محمد عابد الجابري يلتقي في دراسته عن العرفان الشيعي مع الدكتور هنري كوربان في كتابه "تاريخ الفلسفة الإسلامية" في القول بإنّ العرفان الشيعي متأثّر بالموروث العرفاني القديم السابق على الإسلام على "مستوى الموقف والمادة المعرفية"، وهو متأثّر بشكل أدقّ بالموروث الهرمسي، لذلك قال هنري



كوربان عن الشيعة: "إنهم أول من تهرمس في الإسلام"، ومن هنا يقرّر الدكتور الجابري أنّ التأويل العرفاني الشيعي للقرآن ليس "استنباطاً" ولا "إلهاماً" وإنما هو تضمين ألفاظ القرآن الكريم أفكاراً مستقاة من الموروث العرفاني القديم السابق على الإسلام [1].

---

[1] للدكتور محمد عابد الجابري، انظر بُنية العقل العربي، ص371-379.



الفرقة الثالثة: **المعتزلة:**

طرحت فرقة المعتزلة آراء في عدّة مجالات دينية، منها ما يتعلّق بالله وصفاته، ومنها ما يتعلّق بحرية الإنسان والقضاء والقدر، ومنها ما يتعلّق بحكم مرتكب الكبيرة إلخ...، ومن الجدير بالذكر أنّ كل تلك الآراء كانت متأثّرة بآراء فلسفية سابقة، ونحن سنستعرض بشكل سريع بدايات فرقة المعتزلة وما انتهت إليه.

تحدّث المؤلّفون في الفِرَق الإسلامية عن أنّ أربع شخصيات مهّدت لفرقة المعتزلة، طرحت كل واحدة منها رأياً في موضوع مستقل، وهذه الشخصيات هي: معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم، والجهم بن صفوان. ثم اجتمعت هذه الآراء عند شخصية واحدة هي واصل بن عطاء والذي عاصر الحسن البصري. وكان أبرز ما تحدّث به معبد الجهني[1] هو القدر فقال: "لا قدر والأمر أُنُف"، وكذلك قال غيلان الدمشقي مثل ما قال به معبد الجهني، وقد حاوره ربيعة الرأي وعمر بن عبد العزيز في دمشق في مسألة القدر وتراجع بعدها عن مقولته،

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، حوادث سنة 80هـ، ج9، ص134.



وقد قال الجعد بن درهم[1] بخلق القرآن، أمّا الجهم بن صفوان[2] فهو من أبرز المؤسسين لفرقة المعتزلة التي تنسب إليه أحياناً فيقال: "المعتزلة جهمية" وقد نقلت كتب الفِرَق قوله بأنّ الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وأنّ الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل بالله فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلاّ الله وحده، وأنه هو الفاعل، وأنّ الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز، وأنّ علم الله محدث، وأنه لا يُقال إنّ الله لم يزل عالماً بالأشياء، وأنّ القرآن مخلوق، وكان الجهم يخرج بأصحابه فيقفهم على المجذومين، ويقول: "انظروا أرحم الراحمين يفعل مثل هذا؟" إنكاراً لرحمته كما أنكر حكمته.

ثم كانت النشأة الرئيسية لفرقة المعتزلة على يد واصل بن عطاء، وقد بيّن الشهرستاني أنّ اعتزاله يقوم على أربع قواعد أخذها عمن سبقه من الأسماء التي أشرنا إليها، وهذه القواعد الأربع هي:

---

[1] البداية والنهاية، ابن كثير، ج9، ص350.

[2] مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري، ج1، ص212. الملل والنحل، الشهرستاني، ج1، ص86-88. الفَرق بين الفِرَق، البغدادي، ص158.



أولها: القول بنفي صفات الباري تعالى؛ من العلم والقدرة، والإرادة والحياة، وكانت هذه المقالة في بدايتها غير نضيجة، ويشير إلى دور المقولات البشرية في تكوين هذه الفكرة، ويبيّن أنها جاءت بعد مطالعة كتب الفلسفة.

ثانيها: القول بالقدر، ويقرّر الشهرستاني أنّ أصحاب واصل بن عطاء سلكوا في ذلك مسلك معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وقرّر واصل بن عطاء هذه القاعدة أكثر مما كان يقرّر قاعدة الصفات.

ثالثها: القول بالمنزلة بين المنزلتين، وقد فصّل عبد القاهر البغدادي في كتابه "الفرق بين الفِرَق" الظروف التي كانت موجودة والتي كانت سبباً في هذا الحكم، فلما ظهرت فتنة الأزارقة من الخوارج بالبصرة والأهواز، واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب، زعم واصل بن عطاء أنّ الفاسق من هذه الأمّة لا مؤمن ولا كافر، مما جعل الحسن البصري يطرده من مجلسه، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة، وانضم إليه



قرينه عمرو بن عبيد، فقال الناس يومئذ فيهما: إنهما اعتزلا قول الأمّة، وسُمّي أتباعهما من يومئذ "معتزلة" [1].

رابعها: قوله في الفريقين من أصحاب الجمل، وأصحاب صفّين إنّ أحدهما مخطئ لا بعينه، وكذلك قوله في عثمان وقاتليه وخاذليه، قال: إنّ أحد الفريقين فاسق لا محالة، وأقل درجات الفريقين أنه لا يقبل شهادتهما كما لا تقبل شهادة المتلاعنين.

ثم جاء دور أبو الهذيل العلاّف وقد نقل الشهرستاني قوله في الصفات بأنّ الباري عالم بعلم، وعلمه ذاته، قادر بقدرة، وقدرته ذاته، حيّ بحياة، وحياته ذاته، ويوضّح الشهرستاني أنّ هذا الرأي مقتبس من الفلاسفة الذي اعتقدوا أنّ ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته بل هي ذاته.

وقد أوضح الشهرستاني أنّ أبا الهذيل يشبه قوله في القدر قول أصحابه، إلا أنه قدري الأولى، جبري الآخرة، فمذهبه في حركات أهل

---

[1] الفرق بين الفرق، عبد القادر البغدادي، ص82.



الخلدين أنها ضرورية لا قدرة للعباد عليها، وكلها مخلوقة للباري تعالى، إذ لو كانت مكتسبة للعباد لكانوا مكلّفين بها.

وقد نقل الشهرستاني عن أبي الهذيل قوله بانقطاع حركات أهل الخلدين وأنهم يصيرون إلى سكون دائم، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار.

ثم جاء النظّام الذي ذكر الشهرستاني بأنه طالع كثيراً من كتب الفلسفة، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة وينقل عنه[1] قوله في الإرادة أنّ الباري -تعالى- ليس موصوفاً بها على الحقيقة. وقوله إنّ أفعال العباد كلها حركات فحسب وموافقته الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزّأ، وأحدث القول بالطفرة.

وينقل عنه قوله: إنّ الجواهر مؤلّفة من أعراض اجتمعت، واعتبر الألوان والطعوم والروائح أجساماً.

---

[1] الملل والنحل، الشهرستاني، ج1، ص53 وما بعدها.



وقوله: إنّ الله -تعالى- خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن، ولم يتقدّم خلق آدم خلق أولاده، غير أنّ الله -تعالى- أكمن بعضها في بعض، فالتقدّم والتأخّر إنما يقع من ظهورها من مكامنها دون حدوثها ووجودها، وإنما هذه المقالة من أصحاب الكُمون والظهور من الفلاسفة.

وقوله في إعجاز القرآن: أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا من مثله بلاغة وفصاحة.

وقوله: إنّ الإجماع ليس بحجّة في الشرع، وكذلك القياس.

لاحظنا من خلال عرض بعض أقوال مؤسسي فرقة المعتزلة أو من خلال أقوال أعلامها في مرحلة لاحقة، لاحظنا تأثّرها بالمخزون الثقافي الموجود في المنطقة من مثل مذهب الذَّرَّة الذي أصبح أصلاً في التقعيد للفرقة، وأصلاً في النظر إلى صفات الله تعالى، ولاحظنا تأثّرها بأقوال الديانات السابقة في مجال الموقف من القَدَر، وقد حدث تطوّر في كل هذه الآراء والقضايا، ودخلت أمور فلسفية أخرى غير مذهب الذَّرَّة مثل المنطق ثم مختلف أمور الفلسفة، ونتجت مشاكل متعدّدة عن هذه



التداخلات أبرزها: إيجاد الفُرْقة والاختلاف بين أبناء الأمّة الواحدة من جهة، ثم محاولة فرض هذه الآراء على الأمّة كما حدث في عهد المأمون من جهة ثانية، ثم استصدار المرسوم القادري في عهد الخليفة القادر الذي يتضمّن اعتبار العقيدة الأشعرية عقيدة رسمية للدولة من جهة ثانية، ولا يخفى على المتابع للشأن العقائدي الإسلامي أنّ العقيدة الأشعرية أخذت بكثير من أصول مذهب المعتزلة في مجال الصفات والتأويل، وفي مجال علاقة الصفات بالذات إلخ...



نتائج وجود الفِرَق:

من الواضح أنّ وجود هذه الفِرَق أضعف كيان الأمّة، فأوجد حروباً بينها، وأوجد صراعاً، وأوجد خلخلة في بنائها، وقد بدأت هذه الحروب بحرب الخوارج على الدولة الأموية، وقد استطاع الخوارج إقامة كيانات لهم في أطراف الجزيرة العربية، ثم قامت حروب متعدّدة على الدولة العباسية أبرزها حرب العبيديين الذين جاءوا من المغرب وأقاموا الدولة الفاطمية في مصر، والأرجح أنّ الفِرَق الباطنية التي انبثقت عن المذهب الشيعي كانت أخطر الفِرَق على الدولة العباسية ومنها: فرقة الاسماعيلية (الحشّاشون) الذين أقاموا دولة لهم في (قلعة الموت) في محاذاة بحر قزوين، وتزايدت خطورة هذه الفِرَق عند استفادتها من الغزو الخارجي الصليبي والمغولي واستغلالها له في زيادة تهديد المجتمع وقيادات الأمّة، فقد قَتل الحشّاشون القائد عماد الدين الزنكي، وابنه نور الدين الزنكي، وفشلت محاولتهم في اغتيال صلاح الدين الأيوبي، لكنهم نجحوا في السيطرة على بعض القلاع الاستراتيجية في الجولان وفي الجبال الغربية من سورية، كما مثّلت حركة (بابك الحزمي) الباطنية تهديداً للخلافة العباسية في زمن المأمون، وقد وصلت خطورة ثورة (بابك الحزمي) أنها هدّدت بغداد عاصمة الخلافة العباسية.



العامل الرابع في ضعف الأمّة:

القصور في الأداء الشوري وغياب الاختيار في تنصيب الخليفة

بينّا في الصفحات السابقة أنّ الإسلام أوجب الشورى، وبينّا عَمَل الرسول ﷺ بها مع استغنائه عنها، وبينّا مشاورة الخلفاء الراشدين صحابة الرسول ﷺ في كل شؤون الأمّة والدولة، وبينّا أنّ مشاورة الناس وانتخابهم للخليفة هي الأصل في شرعيته عند أهل السنّة، ومن المتوقّع أن تكون الشورى موجودة في تفصيلات حياة المجتمع الإسلامي بدءاً من الأسرة، ومروراً بمختلف الهياكل الاجتماعية، وانتهاءً بأن تكون خُلُقاً إسلامياً عاماً، لأنّ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة دعت إلى هذا الخُلُق، وذمّت عكسه وهو الاستبداد بالرأي، وقدّمت على ذلك مثلاً بارزاً هو فرعون الذي قال: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٢٩ ﴾ (غافر)، لكنّ هذه الأخلاق الرفيعة في مجال الشورى لم تتجسّد بكل أسف في مؤسّسات، ومع ذلك بقي الحرص على أخذ البيعة للخليفة من المسلمين عامة في كل الأحوال حتى وإن كان معيّناً بالوراثة مما يدلّ على ذلك الأصل الشرعي الذي غُيّبت حقيقته وحوفظ على شكله.



إنّ غياب هذا الأصل الشرعي العظيم في حياة المسلمين السياسية فتح الباب على مصراعيه لشرور كثيرة أبرزها التقاتل والاصطراع من أجل الاستيلاء على منصب القيادة والحكم والإمارة والخلافة، أو اعتماد الوراثة كوسيلة لانتقال السلطة من شخص إلى آخر مع ما يرافق ذلك من تصارع على السلطة بين الوارثين في بعض الأحيان.

لقد كانت الخسارة كبيرة في تغييب هذا الأصل الذي أدّى في بعض الأحيان إلى سيلان دماء كثيرة، وإلى خسارة كفاءات كبيرة، وإلى اضطراب المسلمين بين حين وآخر ريثما تستقرّ القيادة في يد الحاكم الجديد.

لكنّ غياب هذا الأصل في حياة المسلمين لا يعني أنّ حياة المسلمين السياسية أصبحت شروراً كلها، بل ابتكر المسلمون بعض الأصول التي تخفّف من مساوئ غيابها، ويتجلّى ذلك بقيادة العلماء، وبوجود القضاة الذي يلزم الوالي أن يتصل بالرعيته عن طريقهم، وتجلّى أيضاً بوجود شيخ لكل حرفة هو الواسطة بين ابن الحرفة والوالي، وتجلّى كذلك بتحديد الواجبات لكل من الحاكم والمحكوم وحقوقهما.

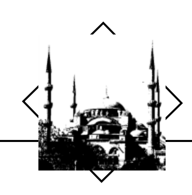


العامل الخامس في ضعف الأمّة:

التقصير في تحقيق المساواة والعدل

لم يكن تنفيذ المساواة والعدل في العهد الأموي على المستوى الذي اتسم به عهد الخلفاء الراشدين، فأصبحت هناك تجاوزات في الإنفاق المالي، وأصبحت هناك محاباة في الأحكام، لذلك برز جانب من الصراع بين القَيْسِيّة واليمانية في عهد الخلفاء الأمويين، وقرب بعض الخلفاء القيسية مرّة واليمانية مرّة أخرى، فكانت تحدث النكبة لرجال القبيلة المبعدة، وتحصل الحظوة لرجال القبيلة المقرّبة، وبرز عنصر آخر في العهد الأموي وهو تفضيل العرب ووجود نوع من الازدراء لمن هم من غير العرب، وهذا مناقض لما دعا إليه الإسلام، وهذا ما وضع أساساً للشعوبية التي تعمّقت في مرحلة تالية من التاريخ الإسلامي، لذلك كان الاستبشار عظيماً بعهد عمر بن عبد العزيز الذي أعاد الأمور إلى نصابها في كل القصور الذي وقع في عهد سابقيه من الأمويين، فأعاد أموال بني أُمَيّة إلى بيت مال المسلمين، وأعمل الشورى، وأعاد أمر انتخاب الحاكم إلى المسلمين، لذلك عدّه المؤرّخون خامس الخلفاء الراشدين.

وجاء الحكم العبّاسي الذي اعتمد على شعار "الرضا من أهل البيت" واعتمد على أهل خراسان والفُرْس في تقويض دعائم الحكم الأموي، لذلك كانت الفرصة لمشاركة الأجناس والشعوب المختلفة في



الدولة العباسية أكثر، لذلك برز الفُرْس في البداية، ثم برز التُرْك في عهد المعتصم الذي حوّل الاعتماد في الجيش على الجنود الأتراك، وبنى لهم سامراء، ثم لعب السلجوقيون دوراً في الحكم العباسي بدءً من عام 450 للهجرة، ثم الزنكيّون والأكراد في مواجهة الصليبيين، لكنّ الشعوبية استفحلت في العهد العباسي، وقامت على أساس ازدراء العرب، والاستهانة والاستخفاف بهم نتيجة ماضيهم البدوي، وقد ارتبطت هذه الشعوبية بالزندقة، وأبرز من قام بهذا هم بعض الفُرْس الذي حقدوا على الإسلام لأنه شطب الدولة الفارسية، وأزال كسرى من الوجود.

الباب الثالث

الخلافة العثمانية:
نشأتها وتكونها وموقفها من عوامل ضعف الأمّة



الفصل الأول

نشوء الخلافة العثمانية وتكوّنها

سيرة مؤسّس الخلافة العثمانية:

وُلد عثمان بن أرطغرل عام (656هـ-1258م)، وخلف أباه في قيادة عشيرته، ويمكن أن نعتبره المؤسّس للخلافة العثمانية والتي تنسب إليه، وكانت حياته جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت، وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، يقول عثمان في وصيته: "يا بُني: إيّاك أن تشتغل بشيء لم يأمر به ربّ العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يا بُني: أحط من أطاعك بالإعزاز. وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإيّاك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بُني: إنك تعلم أنّ غايتنا هي إرضاء الله ربّ العالمين، وأنّ بالجهاد يعمّ نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جلّ جلاله.



يا بُني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل" [1].

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية: "اعلم يا بُني، أنّ نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها" [2].

وفي كتاب (مأساة بني عثمان) نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: "يا بُني، إنني أنتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله، لنشر دين الإسلام.

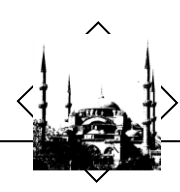
يا بُني، أوصيك بعلماء الأمّة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وأنزل على مشورتهم، فإنهم لا يأمرون إلا بخير.

يا بُني، إيّاك أن تفعل أمراً لا يرضي الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك على الخير.

---

[1] العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب، ص16.

[2] انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة ، ص21.



واعلم يا بُني أنّ طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأنّ مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاّب جاه ولا دنيا" [1].

وفي التاريخ العثماني المصور، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: "وصيتي لأبنائي وأصدقائي، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله. أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائماً؛ لأنّ الله عز وجل قد وظّف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله، ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

يا بُني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى عز وجل. اعدل في جميع شئونك ..." [2].

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فاهتمّوا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش، وبالمؤسسات العسكرية، وبالعلماء

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص3.

[2] انظر: السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع في تونس، ص33.



واحترامهم، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاتهم إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم، وبالإمارة وبالحضارة" [1].

أورخان وإنشاء الجيش العثماني:

بعد وفاة عثمان تولّى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وفي عام 727هـ الموافق 1327م سقطت في يده نيقوميديا، وتقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة إسطنبول وهي مدينة أزميت الحالية، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري، أحد العلماء العثمانيين الذي درسوا في مصر[2] واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية وجعله جيشاً نظامياً [3].

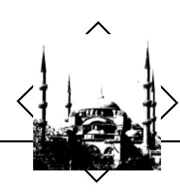
وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده

---

[1] العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب، ص26.

[2] انظر: عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص29.

[3] انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب، ص14.



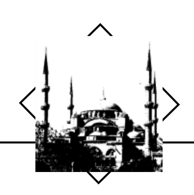
"سليمان" لعبور مضيق "الدردنيل" والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

وفي عام (758هـ) اجتاز سليمان مضيق "الدردنيل" ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ولما أدركوا الضفة الغربية، استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر "سليمان" جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوربي حيث فتحوا ميناء قلعة "ترنب" و"غاليبولي" التي فيها قلعة "جنا قلعة" و"أبسالا" و"رودستو" وكلها تقع على مضيق "الدردنيل" من الجنوب إلى الشمال، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح "القسطنطينية" [1].

ومن أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامي، فقسّمه إلى وحدات تتكوّن كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، أو ألف شخص، وخصّص خُمس الغنائم

---

[1] انظر: الدولة العثمانية: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، الدكتور جمال عبد الهادي وآخرون، ص22.



للإنفاق منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها [1].

كما أنه أضاف جيشاً آخر عرف بالانكشارية [2]، شكّله من المسلمين الجُدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتها الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكريّاً وحربيّاً يُعيّنون في مراكز الجيش المختلفة، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد والذود عن الدين والشوق إلى نصرته أو الشهادة في سبيله وأصبح شعارهم (غازياً أو شهيداً) عندما يذهبون إلى ساحة الوغى [1].

إنّ هدف الجيش الجديد الذي أنشأه أورخان بن عثمان هو أن يكون جيشاً نظامياً دائم الاستعداد والتواجد قريباً منه في حالة الحرب أو

---

(1) انظر: عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص32.

(2) المصدر السابق نفسه، ص302.

(1) المصدر السابق نفسه، ص302.



السلم على حدّ سواء، فشُكِّل مِن فرسان عشيرته ومن مجاهدي النفير الذين كانوا يسارعون لإجابة داعي الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام في قلوبهم، وحسن إسلامهم. وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم الجيش حتى سارع إلى حيث يقيم الحاج بكتاش وطلب منه أن يدعو لهم خيراً، فتلقّاهم الحاج خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود، ودعا لهم الله أن يُبيّض وجوههم، ويجعل سُيوفهم حادة قاطعة، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الله، ثم مال تجاه أورخان فسأله: هل اتخذت لهذا الجيش اسماً . . ؟ قال: لا، قال: فليكن اسمه "يني جري" وتلفظ "يني تشري" أي الجيش الجديد.

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم "ذي الفقار" تيمناً بسيف الإمام علي رضي الله عنه [1].

وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين، فاختار عدداً من شباب الأتراك، وعدداً من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فضمّهم إلى الجيش

---

[1] انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، زياد أبو غنيمة ، ص147.



واهتمّ اهتماماً كبيراً بتربيتهم، ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده، وأصبح يضمّ آلافاً من المجاهدين في سبيل الله.

لقد كان أورخان وشقيقه علاء الدين متفقين على أنّ الهدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد، هو مواصلة الجهاد ضدّ البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها، والاستفادة من البيزنطيين الذي أسلموا في نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقّوا تربية إسلامية جهادية وترسّخت في قلوبهم مبادئ الإسلام سلوكاً وجهاداً.

كانت غزوات أورخان منصبّة على الروم ولكن حدث في سنة (736هـ-1336م) أن توفّي أمير قره سي -وهي إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم- واختلف ولداه من بعده وتنازعا الإمارة. واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخّل في النزاع وانتهى بالاستيلاء على الإمارة. وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه، واستمرّ الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمّتها لسلطانه.



واهتمّ أورخان بتوطيد أركان دولته فقام بالأعمال الإصلاحية والعمرانية، ونظّم شؤون الإدارة وقوّى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية[1] وأشرف عليها خيرة العلماء، وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة، وكانت كل قرية بها مدارسها وكل مدينة بها كلّيتها التي تعلّم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافزيقا وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة والهندسة والفلك[1] وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنّة والفقه والعقائد.

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي عشرين سنة دون أن يقوم بأيّ حروب، بل قضاها في صقل النُّظُم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة، وفي تعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة، مما يشهد بحكمته وبُعد نظره، فإنه لم يشنّ حرباً، وإنما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي التي يُتاح له ضمّها، وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدني والعسكري والتربوي والثقافي من أجل تحقيق الاستقرار المنشود.

---

[1] انظر: محمد الفاتح، الدكتور سالم الرشيدي، ص25 .

[1] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم، ص40 .



وهذا يدلّ على فهم واستيعاب أورخان لسُنَّة التدرّج في بناء الدول وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب.

وما أن أتمّ أورخان البناء الداخلي حتى حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الإمبراطور "كونتاكوزينوس" مساعدة السلطان أورخان ضدّ خصمه، فأرسل قوّات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوروبا. وفي عام 1358م أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أسوار غاليبولي وهجرها أهلها مما سهّل على العثمانيين دخولها، وقد احتجّ الإمبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى، وكان ردّ أورخان أنّ العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته، وما لبثت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوروبا، ومنها انطلقت الحملات الأولى التي تُوّجت في النهاية بالاستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان. . وحين انفرد حنّا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقرّ كل فتوح أورخان في أوروبا في مقابل تعهّد السلطان بتسهيل وصول الطعام والمؤن إلى القسطنطينية. وأرسل أورخان أعداداً كبيرة من القبائل المسلمة بُغية الدعوة إلى الإسلام ومنع تمكّن النصارى من طرد العثمانيين من أوروبا [1].

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص47 .



مراد الأول ونقل العاصمة إلى أوروبا:

ثم جاء إلى سدّة الحكم السلطان مراد الأول (761-791)هـ - (1360-1389)م، وكان شجاعاً مجاهداً كريماً متديّناً، وكان محبّاً للنظام متمسّكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء العسكريين، شكّل منهم مجلساً لشورته، وتوسّع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد.

ففي أوروبا هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية ثم استولى على مدينة أدرنة في عام (762هـ-1360م) وكانت لتلك المدينة أهمية استراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (768هـ-1366م)، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية.

بايزيد وانتصاره على أوروبا ثم هزيمته أمام تيمورلنك:

بعد استشهاد السلطان مراد تولّى الحكم ابنه بايزيد، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمّساً للفتوحات الإسلامية، ولذلك اهتمّ اهتماماً كبيراً



بالشؤون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول، وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد كمثل البرق في تحرّكاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أُطلق عليه لقب "الصاعقة" [1].

شرع بايزيد في إقامة علاقات ودّية مع الصرب مع أنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقاني ضدّ الدولة العثمانية، وكان غرض بايزيد من هذه العلاقة اتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر، وكان يشعر بضرورة اتخاذ حليف له في سياسته العسكرية النشطة التي استهدفت الإمارات السلجوقية التركية الإسلامية في آسيا الصغرى ولذلك وافق بايزيد على أن يحكم الصرب ابنا الملك "لازار" الذي قُتل في معركة قوصوه، وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب وأعرافها وتقاليدها وعاداتها، وأن يدينا له بالولاء ويقدّما له جزية وعددا معيّناً من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم في حروبه[2] وتزوّج ابنة الملك "لازار".

---

[1] انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، إسماعيل أحمد ياغي، ص40 .

[2] المصدر السابق نفسه، ص41 .



ثم أخضع بلغاريا للسيادة العثمانية، ثم قام تكتّل دولي مسيحي ضخم يقوده ملك المجر والبابا بونيفاس يضمّ (120) ألف مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا وانكلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبورج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الإمارات الإيطالية) لكنّ بايزيد تغلّب عليه.

لقد كان ذلك النصر المظفّر له أثره على بايزيد والمجتمع الإسلامي، فقام بايزيد ببعث رسائل إلى كبار حكّام الشرق الإسلامي يبشّرهم بالانتصار العظيم على النصارى، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً ماديّاً على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول، كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقرّ هذا اللقب حتى يتسنّى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعيّاً رسميّاً فتزداد هيبته في العالم الإسلامي، وبالطبع وافق السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي على هذا الطلب لأنه يرى بايزيد حليفه الوحيد ضدّ قوات تيمورلنك التي كانت تهدّد الدولة المملوكية والعثمانية، وهاجر إلى الأناضول آلاف المسلمين



الذي قدموا لخدمة الدولة العثمانية، وكانت الهجرة مليئة بالجنود وممن أسهموا في الحياة الاقتصادية والعلمية والحكومية في إيران والعراق وما وراء النهر، هذا بالإضافة إلى الجموع التي فرّت من أمام الزحف التيمورلنكي على آسيا الوسطى [1].

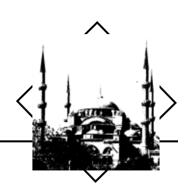
ثم حاصر القسطنطينية لكنه انصرف عن حصارها من أجل مواجهة تيمورلنك القادم من بلاد ما وراء النهر من سمرقند، ثم وقعت معركة ضخمة بين بايزيد الأول ومعه (120) ألف مقاتل وتيمورلنك ومعه (800) ألف مقاتل قرب أنقرة عام 1402م، وانتصر تيمورلنك وانهزم جيش بايزيد ووقع في الأسر، ثم مات بعد سنة من شدّة القهر.

محمد الأول لإنقاذ الخلافة العثمانية:

ثم قاد السلطان محمد الأول الذي ولد عام (781هـ-1379م) السلطنة العثمانية، وتولّى أمر الأمّة بعد وفاة والده بايزيد وعُرف في التاريخ بـ (محمد جلبي).

---

[1] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الحليم، ص54-55 .

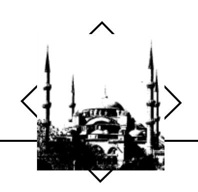


كان متوسّط القامة، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، أبيض البشرة، أحمر الخدّين، واسع الصدر، صاحب بدن قوي، في غاية النشاط وجسوراً، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس. اشترك أثناء حكمه في 24 حرباً وأُصيب بأربعين جرحاً [1]. استطاع محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أُتي من الحزم والكياسة وبُعد النظر، وتغلّب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرّد بالسلطان، وقضى سِني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها [2]. ويعتبره بعض المؤرّخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية [3].

ومما يُؤْثَر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شقّ عطا طاعة الدولة فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان وكان قد استقلّ عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه [4]. وكانت سياسته

---

[1] انظر: السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع في تونس، ص41 .
[2] انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص37 .
[3] انظر: السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع في تونس، ص41 .
[4] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بيك، ص249 .



تهدف إلى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل، ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الأسود وفي تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة أسطوله أمام كليتبولي وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوروبا وأخضع بعض الإمارات الآسيوية التي أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء [1].

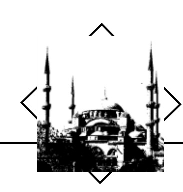
وظهر في زمن السلطان محمد شخص يسمّى بدر الدين انتحل صفة علماء الدين الإسلامي وكان في جيش موسى أخو السلطان محمد وتولّى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد، وأحدث فتنة في بلاد السلطنة لكنّ السلطان محمد قضى عليه وأقام عليه حدّ الحرابة.

وكان السلطان محمد الأول محبّاً للشعر والأدب والفنون، وقيل: هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكّة التي يطلق عليها اسم الصرّة، وهي عبارة عن قدر معيّن من النقود يُرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكّة والمدينة [2].

---

[1] انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص37 .

[2] انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بيك، ص152 .



وقد أحب الشعب العثماني السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب بهلوان ومعناها (البطل) وذلك بسبب نشاطه الجمّ وشجاعته كما أن أعماله العظيمة وعبقريته الفذّة التي قاد من خلالها الدولة العثمانية إلى برّ الأمان، كما أنّ جميل سجاياه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقب (جلبي) وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة.

حقيقة إنّ بعض حكّام آل عثمان قد فاقوه شهرة، إلا أنّ بالإمكان اعتباره من أنبل حكّام العثمانيين[1] وبمثابة القبطان الماهر الذي حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هدّدها طوفان الغزوات التترية، والحروب الداخلية، والفتن الباطنية.

---

[1] انظر: في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم، ص62 .



مراد الثاني والانتصار على الإمبراطور البيزنطي:

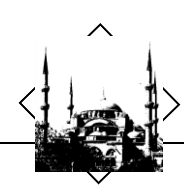
ثم تولّى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه (محمد جلبي) عام (824هـ-1421م)، وكان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة وكان محبّاً للجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الإسلام في ربوع أوروبا [1].

كان معروفاً لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة والشفقة [2]، استطاع السلطان مراد أن يقضي على حركات التمرّد الداخلية التي قام بها عمّه مصطفى والتي كانت تُدعم من قِبَل أعداء الدولة العثمانية، وكان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التي تعرّض لها السلطان مراد، فهو الذي دعم عمّ السلطان مراد وأمدّه بالمساعدات حتى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له، إلا أنّ السلطان مراد قبض على عمّه وقدّمه للمشنقة، ومع ذلك فقد مضى الإمبراطور مانويل الثاني يكيد للسلطان، واحتضن شقيقاً لمراد الثاني ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقيا

---

(1) انظر: الدولة العثمانية: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبدالهادي وآخرون، ص38 .

(2) انظر: السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع في تونس، ص43 .



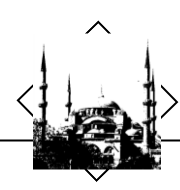
في الأناضول، وسار إليه مراد واستطاع أن يقضي على قواته واضطرّ خصمه للاستسلام ثم قُتل، ومن ثم صمّم السلطان مراد أن يلقّن الإمبراطور درساً عمليّاً، فأسرع باحتلال سالونيك، فهاجمها ودخلها عنوة في مارس (833هـ-1431م) وأصبحت جزءاً لا يتجزّأ من الدولة العثمانية.

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية:

ثم تولّى السلطان محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في 16 محرّم عام 855هـ الموافق 18 فبراير عام 1451م وكان عمره آنذاك 22 سنة، ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذّة جمعت بين القوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقّاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب (محمد الفاتح) لفتحه القسطنطينية. وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات، ولقد برز بعد تولّيه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتمّ كثيراً بالأمور



المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطُرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف، وكذلك ركّز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدّهم بأحدث الأسلحة المتوفّرة في ذلك العصر. وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقرّ بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال، وطوّر البلاط السلطاني وأمدّهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدّم إلى الأمام. وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلّع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدّة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمّت جميع مناطقها ومدنها، ولم يكتف السلطان محمد بذلك، بل إنه عمل بجدّ من أجل أن يُتوّج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحرّكات الصليبية ضدّ العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزّت بها الإمبراطورية بصورة



خاصة والمسيحية بصورة عامّة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية [1].

وأبرز ما قام به هذا السلطان هو فتحه القسطنطينية، وهناك تاريخ حافل من محاولات فتحها على مدار التاريخ السابق بدءاً من الأمويين مروراً بالسلاجقة وانتهاء بالعثمانيين، ولكنّ الله قيّض فتحها على يد محمد الفاتح عام 1453م، وقد جاء هذا الفتح نتيجة إعداد طويل من قِبَل محمد الفاتح، فاهتمّ بجمع الأسلحة اللازمة، واهتمّ بالأسطول، وعقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ضدّ عدو واحد هو الإمبراطورية البيزنطية، ثم بدأ الهجوم واستبسل محمد الفاتح وجيشه، وعزل أثناء المعركة قائد الأسطول لأنه لم يحقق بعض الأهداف التي وضعها له محمد الفاتح، وحاول الإمبراطور البيزنطي إغراء محمد الفاتح بكل سُبل الإغراء لإيقاف الهجوم، لكنه لم يستجب له وبقي مصمّماً على فتحها إلى أن تحقق له ذلك يوم 29 مايو 1453م، وقد ترك فتح القسطنطينية أثره الكبير على الغرب النصراني وعلى العالم الإسلامي، وأرسل الفاتح رسالته إلى سلطان

---

[1] انظر: عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية، د. علي محمد الصلابي، ص43 .



مصر الأشرف دينال، وإلى شريف مكّة يبشّرهما بفتح القسطنطينية وأرسل لهما بعض الهدايا من الغنائم التي غنمها عند فتح المدينة.

سليم الأول والتوجّه إلى المشرق:

ثم تولّى بايزيد الثاني السلطة بعد وفاة أبيه محمد الفاتح، ثم تربّع السلطان سليم الأول (1512-1520)م على الحكم وأحدث تغييراً في سياسة الخلافة العثمانية. واتجهت الدولة العثمانية نحو المشرق من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدّسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرّك الصليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر، الذين أخذوا يطوّقون العالم الإسلامي، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه [1]. وكذلك اتجهت الدولة العثمانية إلى المشرق بسبب سياسة الدولة الصفوية في إيران والمتعلّقة بمحاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى [2].

---

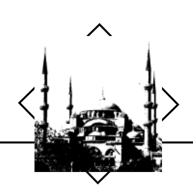
[1] انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، إسماعيل أحمد ياغي، ص26.

[2] انظر: الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، د. محمد نصر، ص240 .



إنّ سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم سارت على هذه الأُسس ألا وهي القضاء على الدولة الصفوية الشيعية، وضمّ الدولة المملوكية، وحماية الأراضي المقدّسة، وملاحقة الأساطيل البرتغالية، ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الأفريقي للقضاء على الإسبان ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا.

ثم وقعت معركة ضخمة بين السلطان سليم وبين الشاه اسماعيل الصفوي في صحراء إيران في آب (أغسطس) 1514م وانتصر فيها السلطان سليم ودخل تبريز بعدها، ثم بدأ تحالف بين اسماعيل الصفوي والبرتغاليين، وأقر استيلاءهم على مضيق هرمز، ثم عاد السلطان سليم إلى مقرّ سلطنته وترك مطاردة الشاه اسماعيل الصفوي، وبدأ يُعدّ العدّة للقضاء على دولة المماليك وذلك بسبب أنّ السلطان قانصوه الغوري وقف إلى جانب الدولة الصفوية من جهة، ووقف إلى جانب بعض الأمراء الفارّين من وجه السلطان سليم وفي مقدّمتهم الأمير أحمد شقيق السلطان سليم من جهة ثانية، وبسبب وصول رسائل من أهل الشام وأهل مصر كتبها العلماء والأعيان تدعوه إلى الزحف على السلطنة المملوكية بسبب ضعفها وبسبب عجزها عن دفع الخطر البرتغالي على البحر الأحمر والمناطق المقدسة من جهة ثالثة، وبالفعل فقد واجه السلطان سليم في معركة مرج



دابق المماليك قرب حلب عام 1517م وانتصر عليهم وضمّ مصر وبلاد الشام إلى الخلافة العثمانية، ثم خضعت الحجاز واليمن، وقد استطاعت الخلافة العثمانية أن تواجه الخطر البرتغالي للأماكن المقدّسة وطريق الحجّ، وأن تحميها من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر، وأن تؤمّن سلامة الطُرُق التجارية التي تربط الهند وأندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج والبحر الأحمر.

السلطان سليمان القانوني:

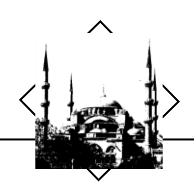
ثم جاء السلطان سليمان القانوني عام 1520م، وواجه في البداية متمرّدين في الشام ومصر وتركيا، وكان المتمرّدون في الشام ومصر بقايا المماليك أمّا في تركيا فقد كانوا من الشيعة، ثم فتح رودس، ثم قاتل المجر وحاصر فينّا، وتقارب مع فرنسا، وأعطى الامتيازات لرعاياها التي استغلّت فيما بعد لتكون أسفينا في جسم الخلافة العثمانية، ثم دخل الشمال الأفريقي تحت سلطة الدولة العثمانية.



بقية سلاطين آل عثمان:

ثم جاء السلطان سليم الثاني عام 1566م وفتح قبرص عام 1571م، وقد احتلّت فرنسا تونس في عهده عام 1572م، ثم استعادها من فرنسا، ثم جاء السلطان مراد الثالث عام (1574-1597)م وضع الحماية على بولونيا وجدد الامتيازات ثم انتصر في معركة مع الدولة الصفوية الشيعية عام 1577م، ووقع تمرّد من الإنكشارية في عهده.

ثم اعتلى سدّة السلطنة محمد خان الثالث عام (1595-1603)م ثم جاء بعده السلطان أحمد الأول (1603-1617)م ووقع في عهده الحرب مع النمسا والدولة الأوروبية ومع دولة إيران الشيعية الصفوية، وتصدّى لحركة فخر الدين المعني الثاني الانفصالية في جبال لبنان، ثم توفّي السلطان أحمد في 1617م، ثم تتابع بعده السلاطين العثمانيون وهم: مصطفى الأول، عثمان الثاني (1617-1621)م، مراد الرابع (1622-1639)م، إبراهيم بن أحمد (1639-1648)م، محمد الرابع (1648-1692)م، سليمان خان الثاني (1692-1694)م، مصطفى الثاني (1694-1703)م، أحمد الثالث (1703-1730)م، عثمان الثالث (1758-1761)م، مصطفى



الثالث (1761-1773)م،
عبد الحميد الأول (1773-1788)م، سليم الثالث (1788-1807)م وقد وقعت في عهده الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام 1799م والتي انتهت بالفشل وخروج الفرنسيين من مصر، محمود الثاني (1808-1839)م وفي عهده تم إلغاء الانكشارية، ثم جاء عبد المجيد الأول (1839-1860)م وفي عهده صدر خط كلخانة، والخط الهمايوني اللذان يعتبران ادخالاً لمنظومة حقوق الإنسان في البُنية القانونية العثمانية، كما اعتبر بداية عهد التنظيمات التي تناولت الدستور والقوانين والتعليم والاقتصاد الحرّ إلخ...، ثم جاء السلطان عبد العزيز (1861-1876)م، ثم جاء السلطان مراد الخامس 1876م وارتقى الخلافة مدّة 93 يوماً، ثم جاء السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909)م وحاول إحياء الخلافة العثمانية بشكل فعّال لكنه لم يستطع، ثم انتهت الخلافة بأن أعلن كمال أتاتورك إلغاءها في عام 1926م.



الفصل الثاني

موقف الخلافة العثمانية من عوامل ضعف الكيان الإسلامي

استعرضنا في الصفحات السابقة العوامل التي أضعفت الكيان الإسلامي في ثلاث مجالات: الفرد والأمّة والدولة، فماذا كان موقف الخلافة العثمانية من هذه العوامل التي أضعفت الأمّة؟ بالنسبة للعامل الأول وهو التداخلات الفلسفية مع القرآن والسنّة بقيت موجودة وقائمة، ولم يحدث أيّ تصحيح جذري في هذا الموضوع، وربما كان أبرز تصحيح للموقف من التداخلات الفلسفية هو موقف محمد بن عبد الوهّاب وحركته الإصلاحية التي قام بها في نجد، ودعا فيها إلى العقيدة الصافية، وإلى التوحيد الخالي من الشرك، ولكنّ هذه الحركة قُضِيَ عليها في مطلع القرن التاسع عشر، عندما بعث محمد علي باشا جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم فدمّر الدرعية، وأنهى الحركة الوهابية، إذن نستطيع أن نقول: إنّ العقيدة الأشعرية كانت هي العقيدة الغالبة والمنتشرة في المؤسّسات التعليمية والمعتمدة من قِبَل علماء الدولة ومدارسها، وكذلك كانت المذاهب الفقهية الأربعة هي المذاهب التي تستوعب مختلف الأقطار، وكان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للخلافة العثمانية، إذن نستطيع أن



نقرّر إنه لم يحدث أي تغيير أساسي في الوجود الشرعي الفقهي العقدي الذي كان سائداً آنذاك.

بالنسبة لعامل الضعف الثاني وهو التصوّف، فمن المعلوم أنّ الأسرة العثمانية التي أسّست المُلْك العثماني دخلت إلى الإسلام من خلال التصوّف، وارتبط الجيش العثماني بالفرقة المتصوّفة المسمّاة "البكتاشية"، وقد ازدهر التصوّف ازدهاراً كبيراً في العهد العثماني، وقد اشتهر من هؤلاء المتصوّفة جلال الدين الرومي الذي بُني له مقام كبير في قونية.

بالنسبة لعامل الضعف الثالث وهو انقسام الأمّة إلى فِرَق، فقد انتهت فرقتا الخوارج والمعتزلة كفِرَق، ولكن بقيت أفكارهما وبعض الفِرَق المنبثقة عنهم كالأباضية، لكنّ الشيعة أقاموا دولة شيعية في إيران، واجتهد الصفويّون في نشر المذهب الشيعي، وقد وقعت معارك طاحنة بين الدولة الصفوية الشيعية وبين الخلافة العثمانية، وقد رأينا ذلك من خلال استعراضنا لسيرة الخلفاء العثمانيين، وقد استمرّت هذه المعارك لعشرات السنين، وأضعفت الأمّة بشكل عام، وأتاحت للغرب أن يستفيد من هذا التقاتل في وضع أقدام له في المنطقة.



وبالنسبة لعامل الضعف الرابع وهو ضعف الأداء الشوري وغياب الاختيار في منصب الخليفة فقد بقي قائماً، وزاد الضعف والسوء فيه عندما لجأ بعض الخلفاء إلى قتل أخوته أو سجنهم من أجل ألاّ يثوروا عليه أو يهدّدوا ملكه.

أمّا بالنسبة للعامل الخامس وهو القصور في العدل والمساواة، فقد بقي سائراً على نفس المنوال السابق الذي كان موجوداً في العهد العباسي والمملوكي.

الباب الرابع

العوامل التي أدت إلى سقوط الخلافة العثمانية



لم تعالج الخلافة العثمانية العوامل الأساسية التي أضعفت الأمّة كما رأينا، واستمرّت هذه العوامل تفعل فعلها في إحداث مزيد من إضعاف الأمّة، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل استجدّت عوامل أخرى ساهمت في إزالة الخلافة العثمانية، ويعود بعضها إلى الغرب الذي نهض بعد أن استفاد من الحروب الصليبية أمرين: الأول: نشوء البروتستنتية التي استفادت من الإسلام في التعامل مع النص الديني وعدم ربط تفسيره برجال الدين، وإذكاء شعلة الفردية. الثاني: إقامة نهضة علمية تعتمد على التجريب الذي نقله علماؤهم من المسلمين في الأندلس وصقلية، ثم ارتبطت نهضة الغرب باكتشاف أمريكا عام 1492م التي أعطته غنى واسعاً، انعكس في قدرة الغرب على تمويل آلته العسكرية وتوسيعها وزيادة تسليحها مما جعله يتغلّب على قوة الخلافة العثمانية في النهاية، وانعكس اكتشاف أمريكا في زيادة قدرة الغرب على الإنفاق المالي على العلماء والتجارب العلمية، مما سرّع في وتيرة قوّته وسبقه للأمّة الإسلامية.

إنّ هذه القوة التي امتلكها الغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر والتي ارتبطت بالأمور السابقة، انعكست في اتجاه الأمّة الإسلامية، فأصبح الغرب مؤثّراً في كثير من أوضاعها، وانعكست في اتجاه الخلافة



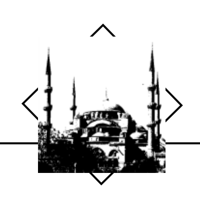
العثمانية، فاستعمر بعض ولاياتها، وتدخّل في شؤونها، وساعد بعض الطامحين من ولاتها إلخ... وكل ذلك سرّع في إسقاط الخلافة العثمانية وإزالتها. ويمكن أن نجمل العوامل التي أسقطت الخلافة العثمانية بالعوامل التالية:



العامل الأول: استعمار بعض البلدان الإسلامية:

احتل الإنجليز عدن عام 1839م وأقاموا بها مستودعاً للفحم الجيري، وزادت أهمّيتها لهم بعد فتح قناة السويس، لأنها تقع في الطريق إلى الهند التي تعتبر أهمّ المستعمرات البريطانية في الشرق.

وفي أواسط سنة 1830م نفّذت فرنسا ما كانت تنويه ضدّ ولاية الجزائر بدعوى منع تعدّي قراصنة البحر المسلمين على مراكبها التجارية، والحقيقة ليكون لها مركز حربي بشمال أفريقيا حتى لا تكون إنجلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسّط باحتلالها معاقل جبل طارق وجزيرة مالطا. واتخذت لذلك سبيلاً وقوع الخلاف بينها وبين عامل الدولة العثمانية عليها المدعو حسين باي بسبب بعض ديون كانت مطلوبة لبعض التجّار الجزائريين على الحكومة الفرنسية وحجزها جزءاً منها بدعوى أنّ هؤلاء التجار مدينون لتجار فرنسيين وخروج المسيو دوفال قنصل فرنسا عن حدّ الأدب مع الأمير حسين باي في حفلة عمومية بحضرة جمهور من الأمراء والوزراء، حتى اضطر حسين باي حفظاً لكرامته أن يضرب القنصل بمنشة كانت بيده، فبمجرّد ما وصل خبر هذه المسألة إلى آذان ولاة الأمور بباريس عدّوها إهانة لشرفهم وأرادوا اتخاذها وسيلة لتنفيذ



ما كانوا مضمرين عليه من مدّة، وقرّروا في مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة الملك نفسه في 13 شعبان سنة 1245هـ (7 فبراير 1830م) وجوب الاستيلاء على هذا الإقليم. ثم أرسل إليها جيشاً مؤلّفاً من نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل، وعمارة بحرية مؤلّفة من مائة سفينة، وثلاثة سفن تحمل سبعة وعشرين ألف جندي بحري. ولما علمت إنجلترا بذلك خشيت على نفوذها من مشاركة فرنسا واحتجّت ضدّ هذا المشروع. ولما لم يفد احتجاجها شيئاً أوعزت إلى الباب العالي أن يأمر عامله على الجزائر بالتساهل مع فرنسا وتقديم ما تطلبه من الترضية والتعويضات. فأرسل الباب العالي مندوباً من طرفه لتبليغ هذه التعليمات إلى عامل الجزائر، لكن لم يصل هذا المندوب إلى الجزائر، بل قبضت السفن الفرنسية على المركب الحاملة له وأوصلتها إلى ميناء طولون تحت الحفظ ولم تسمح لها بالخروج إلا بعد اتمام مقصدهم. وفي 20 ذي الحجة سنة 1245هـ (12 يونيو سنة 1830م) نزلت عساكر فرنسا بالقرب من مدينة الجزائر ونشب القتال بين الفريقين في (19 يونيو). وبعد محاربة شديدة فاز الفرنساويون بالغلبة. وفي 14 محرم سنة 1246هـ (5 يوليو) احتلوا القلعة المسمّاة (سلطانية قلعة سي) الواقعة أمام مدينة الجزائر. ثم دخلت الجيوش



مدينة الجزائر نفسها بعد خروج حسين باي منها وأعلنت فرنسا امتلاكها لها.

ثم اعتبرت فرنسا الجزائر قطعة منها وامتداداً جغرافياً، فاعتبرتها فرنسا ما وراء البحار، وهذا من أعجب الأمور وأغربها إذ كيف يمكن استلاب أرض من أمّة وإلحاقها بأخرى؟ كيف يمكن اقتلاع شعب من أمّة وإلحاقه بأمّة أخرى؟!! وقد أدّت فَرْنَسَة الشعب الجزائري إلى إلغاء لغته العربية وفرض اللغة الفرنسية عليه، وفرض تاريخ جديد عليه، ونقله من واقع حضاري إلى آخر إلخ... لكنّ هذا لم يمرّ بسهولة، وبالفعل فقد اشتعلت المقاومة ضدّ الاحتلال الفرنسي واستمرّ القتال لمدّة مائة وثلاثين عاماً إلى أن تحقق الاستقلال في عام 1962م.

ثم احتلت فرنسا عام 1881م تونس، وكانت الحجّة التي قدّمتها فرنسا من أجل هذا الاحتلال أسخف من سابقتها في احتلال الجزائر، وتتلخّص في أنّ بعض القبائل البدوية التونسية من جهة الجزائر تجاوزت الحدود البرية بينهما، وأعلن الحكّام التونسيون أنهم حاضرون ليضبطوه دون تراخ، ولكنّ هذا لم يشفع لهم.



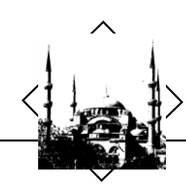
ومن الجزائر اجتاز الجيش الفرنسي الحدود في نيسان 1881م، وأنزلت قوّات أخرى في ميناء بنزرت في أول مايو، ووصلت في 11 مايو إلى قصر الباي محمد الصادق المعروف بقصر الباردو، وقدّمت له نصّ معاهدة أعدّها "جيل فيري" رئيس وزراء فرنسا تنظّم العلاقات بين تونس وفرنسا، وسمّيت معاهدة "باردو" [1]، وقد أجبر الباي محمد الصادق على التوقيع على المعاهدة في 12 مايو عام 1881م واضطرته بذلك إلى الاعتراف بالحماية الفرنسية على بلاده.

وما كان من الدولة العثمانية إلاّ الاحتجاج بشدّة، ولم تستطع إرسال جيش لمواجهة هذا الاحتلال الذي يقتطع ولاية من الولايات الهامّة في شمال إفريقيا. وقد استخدمت فرنسا لفظ الحماية أو فرض الحماية لتحديد شكل العلاقة مع تونس، ومن ثم فقد أصبح الباي محمد الصادق بدون سلطات فعليّة.

ثم احتلّت إنجلترا مصر عام 1882م، وكانت الأسباب المباشرة لتدخّل إنجلترا في مصر هي التدخّل لصالح ديونها، والإشراف على تنظيم

---

[1] انظر المسألة الشرقية لمصطفى كامل ص210، 211 ، والمغرب العربي لصلاح العقاد ص206، والسلطان عبد الحميد الثاني د. محمد حرب ص147.



المالية المصرية التي أفلست بالفعل، والقضاء على الثورة العربية عام 1881م.

ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى عام 1914م والتي انتهت بهزيمة الخلافة العثمانية، ثم إلغائها من قِبَل مصطفى كمال أتاتورك واستعمرت الدول الأوروبية كل البلاد التي كانت تابعة للخلافة العثمانية ومن ضمنها البلاد العربية. وتقاسمتها كل من إنجلترا وفرنسا، واستعمرت إنجلترا العراق والأردن وفلسطين، واستعمرت فرنسا سورية ولبنان.

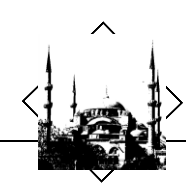
إنّ هذا الاقتطاع المتدرّج للدول من جسم الخلافة العثمانية، واستعمارها، كان عاملاً أساسياً في إضعاف الخلافة العثمانية، وفي إرباكها، واستنزاف خيراتها ومن ثَمّ إسقاطها وإنهاء وجودها.



العامل الثاني: مساعدة الدول الغربية لبعض الحكّام على الانفراد بالسلطة عن الخلافة العثمانية:

تطلّع بعض الولاة إلى الانفراد بالسلطة والتمرّد على الخلافة العثمانية، وشجّعتهم على ذلك بعض الدول الغربية وأمدّتهم بالسلاح والمال، وقاتلت معهم في بعض الأحيان، وأول من فعل ذلك علي بيك الملقّب بشيخ البلد الذي استقلّ تقريباً بشؤون مصر، وتخابر مع قائد القوات البحرية الروسية بالبحر الأبيض المتوسط ليمدّه بالذخائر والأسلحة حتى يتمّ استقلال مصر فساعده القائد الروسي رغبة في وجود الحروب الداخلية في الدولة. وبذلك أمكن علي بيك فتح مدائن غزّة ونابلس والقدس ويافا ودمشق. وكان يستعدّ للسير إلى حدود بلاد الأناضول إذ ثار عليه أحد بيكاوات المماليك وهو محمد بيك الشهير بأبي الذهب، فعاد علي بيك إلى مصر لمحاربته فانهزم.

وبعد أن تحصّن في القلعة التجأ إلى الشيخ ضاهر، الذي كان عاملاً على مدينة عكا من قبل الدولة العثمانية واستأثر بها واتحد معه على محاربة العثمانيين بالاتحاد مع الروس وتخليص مدينة صيدا التي كانوا يحاصرونها فسارا إلى هذه المدينة والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا عليهم بمساعدة المراكب الروسية التي كانت ترسل مقذوفاتها على الجيش



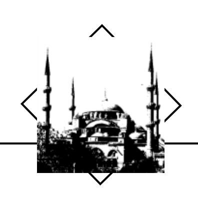
العثماني. ثم أطلقت السفن الروسية قنابلها على مدينة بيروت فهدمت فيها نحو ثلاثمائة بيت. وبعد ذلك عاد علي بيك إلى مصر في محرم سنة 1187هـ (أبريل سنة 1773م) لمحاربة محمد بيك أبي الذهب، وانضمّ إلى جيوشه أربعمائة جندي روسي فقابلهم أبي الذهب عند الصالحية بالشرقية وانتصر عليهم وأسر علي بيك وأربعة من ضباط الروس بعد أن قتل كل من كان معهم ورجعا إلى مصر حيث توفي علي بيك مما أصابه من الجراح فقطع رأسه وسُلّم مع الأربعة ضبّاط الروسيين إلى الوالي العثماني خليل باشا وهو أرسلهم إلى القسطنطينية.

محمد علي باشا ومحاولة الاستقلال بولاية مصر:

وُلد هذا الرجل في مدينة قوله[1] سنة 1182هـ (سنة 1769م)، وتوفّي والده وهو صغير فربّاه عمّ له حتى بلغ أشدّه فزوّجه ابنته ثم اشتغل بتجارة الدخان وربح منها الكثير.

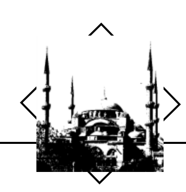
---

[1] بلدة قديمة من بلاد مقدونية، وطن اسكندر الأكبر، واسمها عند اليونان نيابوليس أي البلد الجديدة، واقعة على بحر جزائر الروم بها ميناء متسعة وتجارتها ليست بقليلة ويبلغ سكّانها ثمانية آلاف نسمة من المسلمين، وتبعد مقدار 128 كم عن مدينة سلانيك جنوباً.



ولما دخل الفرنسيون مصر أتى محمد علي مع من أُرسل من الجنود لمحاربتهم، وشهد واقعة أبي قير وعيّنه خسرو باشا الذي أصبح والياً بعد خروج الفرنسيين برتبة (سرجشمه) أي قائد فرقة تبلغ أربعة آلاف مقاتل. ومن ثم أخذ في استمالة قلوب الجنود إليه للاستعانة بهم عند سنوح الفرصة. ثم وقع النفور بينه وبين الوالي خسرو باشا فسعى الوالي إلى الإيقاع به، لكن لم يتمكّن من التنفيذ لقيام جنود الأرناؤوط عليه (وربما كان ذلك بإيعاز من محمد علي) وطردهم إياه من القاهرة لعدم دفعه لمرتباتهم، واختار الأهالي بعده ظاهر باشا والياً مؤقّتاً حتى يُعيّن الباب العالي بديلاً لخسرو باشا، لكن لم يلبث أن قام الانكشارية عليه وقتلوه لدفعه مرتبات الأرناؤوط دونهم. وأراد الانكشارية تنصيب أحد الذوات العثمانيين واسمه أحمد باشا، وكان آتياً قاصداً التوجّه إلى الأقطار الحجازية فلم يقبل محمد علي بذلك وأراد انتهاز هذه الفرصة للحصول على ما كان يكنّه في صدره وهو الاستئثار بوادي النيل، وكاتب أمراء المماليك فأتى عثمان بيك البرديسي وغيره للقاهرة.

ولما وجد محمد علي أنّ عدد من أتى منهم كاف لمحاربة الانكشارية حاصر أحمد باشا في منزله وألزمه الخروج من مصر ثم سلّط الأرناؤوط على الانكشارية فحاربهم في مصر القديمة وقتلوا أغلبهم وفرّ

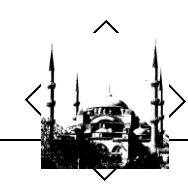


الباقون، وبذلك لم يبق بمصر منازع لمحمد علي. ثم سار هو والبرديسي إلى دمياط لمحاربة خسرو باشا الذي كان متحصّناً بها فحارباه وأسراه في 14 ربيع الأول سنة 1218هـ (4 يوليو سنة 1803م) وعادا به إلى القاهرة حيث سجناه بالقلعة. وبعد ذلك بقليل عاد من إنجلترا محمد بيك الألفي أحد زعماء المماليك. وكان ذهب إليها ليطلب منها مساعدته على الاستقلال بمصر. ويقال إنه وعدها بتسليم بعض الثغور لو حصل على مرغوبه، فخشي محمد علي باشا من اتحاده مع البرديسي وعمد إلى إيجاد النفرة بينهما.

ولما أحسّ الألفي بما يدبّره له سافر إلى الصعيد، ثم أهاج محمد علي الأهالي بمصر على البرديسي فحاصروه في منزله، وأطلق محمد علي المدافع عليه حتى أخرجه من مصر هو وكافة المماليك. ثم أخرج خسرو باشا من سجنه وأرسله إلى رشيد ومنها إلى إسلامبول بناء على طلب الأعيان، وأقام الجند مكانه من يدعى خورشيد باشا ومحمد علي وكيلاً له لكن لم يلبث أن انتخب الأهالي محمد علي والياً، وكتبوا إلى الباب العالي فأصدر فرماناً بذلك وصل مصر في 10 ربيع الثاني سنة 1220هـ (8 يوليو سنة 1805م).



ثم سعى الإنجليز لدى الباب العالي وطلبوا عزله أو نقله إلى ولاية لتوسمهم فيه المعارضة لمشروعاتهم المجحفة باستقلال مصر، فأصغى الباب العالي إلى وساوسهم وأمر بنقله إلى ولاية سلانيك فلم يقبل علماء مصر ولا قوّاد الجيوش بذلك وكتبوا إلى الدولة يلتمسون منها إبقاءه في ولاية مصر، فقبل السلطان وأرسل إليه فرماناً بتثبيته وصل إليه في 24 شعبان سنة 1221هـ (6 نوفمبر سنة 1806م)، وفي 7 رمضان (18 نوفمبر سنة 1806م) توفي محمد بيك الألفي. وفي شوّال (31 ديسمبر سنة 1806م) توفي عثمان بيك البرديسي وبذلك صفا الجوّ لمحمد علي باشا ولم يبق له منازع من الأمراء المماليك إلا أنه كان مضطراً لمراعاة من بقي منهم ومن جنودهم المنتشرين في أغلب جهات القطر للإفساد لا لحفظ الأمن إلى أن أجهز عليهم في واقعة القلعة الشهيرة التي حصلت في يوم الجمعة 5 صفر سنة 1226هـ (29 فبراير سنة 1811م).



إصلاح الجيش وإصلاح شؤون الزراعة:

وبعد ذلك نظم محمد علي باشا الجيش على الطريقة الأوروبية، وعاونه على ذلك الكولونيل سيف الفرنساوي الذي تسمّى فيما بعد باسم سليمان باشا ثم اتجه إلى فتح بلاد السودان ففتحها ولده إسماعيل.

ثم طلبت منه الخلافة العثمانية في استامبول أن يتوجّه إلى الجزيرة العربية لمواجهة الحركة الوهابية التي انبثقت من تحالف محمد بن سعود مع محمد بن عبد الوهاب في نجد، وقضى عليها بعد أن استسلمت الدرعيّة التي كانت بمثابة عاصمة لها في عام 1818م.

وقد جاءت قوّة محمد علي باشا العسكرية نتيجة الاصلاحات التي قام بها، فأنشأ عدّة ترع عظيمة لإصلاح الري أهمّها ترعة المحمودية الخارجة من النيل والواصلة إلى الاسكندرية لتسهيل الملاحة وشرب أهل الثغر، وأقام جسوراً على النيل لحفظ البلاد من الغرق، ونظّم وأقام المدارس والورش الصناعية حتى صار لا يأتي بلوازم جيوشه من الخارج، بل يصنع جميعه بالورش المصرية من المركوب والطربوش إلى البندقية والمدفع. وأنشأ عدّة سفن حربية بدل التي دمّرتها الدول الأوروبية في ناورين، لكن لم تكن ماليته تكفي لمصاريف هذه الأعمال فاستعان على إتمامها بالضرائب

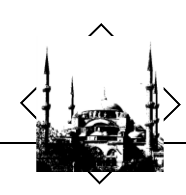


الفادحة واستعمال الأنفار تسخيراً بلا عوض (العونة)، فهرب بعض المصريين من هذه الأعمال بالهجرة إلى بلاد الشام والتجأوا إلى عبد الله باشا والي عكّا المشهور بالجزّار.

ولما طلب منه محمد علي باشا إرجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم إلى الشام امتنع من ذلك بدعوى أنّ الإقليمين تابعان لسلطان واحد وسواء أقام بعض سكّان أحدهما في الآخر أو بالعكس مادام أحد الإقليمين لم يكن حائزاً على امتيازات مخصوصة كحالة مصر الآن.

غزو محمد علي باشا لبلاد الشام:

ولذلك أمر محمد علي باشا في سنة 1247هـ (سنة 1831م) بإعداد الجيوش والتأهب للسفر إلى بلاد الشام عن طريق العريش وعن طريق البحر في آن واحد لمحاصرة عكّا من الجهتين قبل أن يأتيها المدد. وعيّن ولده إبراهيم باشا قائداً عاماً للجيوش المزمع سفرها وسليمان بيك الفرنساوي قائم مقام له. فسار بحراً في 26 جمادى الأولى سنة 1247هـ (نوفمبر سنة 1831م) إلى مدينة حيفا. وكانت الجيوش البرية قد سبقته من طريق العريش وفتحت في مسيرها مدائن غزّة ويافا وبيت المقدس ونابلس. وجعل إبراهيم باشا مدينة حيفا مقرّاً لأعماله ومركزاً لأركان حربه



ومستودعاً للمؤن والذخائر ثم ارتحل عنها لمحاصرة مدينة عكّا، فحاصرها برّاً وبحراً في 20 جمادى آخر سنة 1247هـ (26 نوفمبر سنة 1831م) حتى لا يأتيها المدد بحراً فلا يقوى على فتحها كما حصل لبونابرت من قبل حين حاصرها سنة 1799م.

فلمّا علم الباب العالي بدخول الجيوش المصرية إلى بلاد الشام وحصارها لمدينة عكّا اعتبر ذلك عصياناً من محمد علي باشا وأوعز إلى والي حلب المدعو عثمان باشا بالسير لمحاربة المصريين وبالحري إبراهيم باشا وردّه إلى حدود مصر. فجمع هذا الوالي نحو عشرين ألف جندي وقصد مدينة عكّا لكن لم يمهله إبراهيم باشا ريثما يأتي إليها بل ترك حول عكّا عدداً قليلاً من الجنود لاستمرار الحصار وسار هو بمعظم الجيش لملاقاة الجيش العثماني. فالتقى الجمعان بالقرب من مدينة حمص وانتصر المصريون على العثمانيين بسبب استعدادهم وكمال نظامهم.

ثم عاد إبراهيم باشا إلى مدينة عكّا وشدّد عليها الحصار ودخلها عنوة في 27 الحجة سنة 1247هـ (28 مايو سنة 1832م) وأخذ عبد الله باشا الجزّار أسيراً وأرسله إلى مصر.



جولة ثانية بين العثمانيين ومحمد علي باشا:

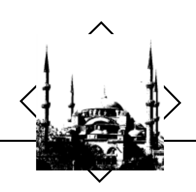
وبمجرّد وصول خبر سقوط مدينة عكّا على أيدي المصريين أمر السلطان محمود بجمع كل ما يمكن جمعه من الجيوش المنتظمة فجمع في أقرب وقت نحو ستين ألف مقاتل وعيّن حسين باشا الذي امتاز في مكافحة الانكشارية قائداً لها. فسار إلى بلاد الشام بكل تأنّ وبطء حتى أمكن إبراهيم باشا الاستعداد لملاقاته فتغلّب أولاً على مقدّمته وانتصر عليها في 10 صفر سنة 1248هـ (29 يونيو سنة 1832م) واقتفى أثرها حتى دخل مدينة حلب الشهباء في 18 صفر (7 يوليو سنة 1832م).

ولما علم حسين باشا بانهزام المقدّمة تقهقر بمن معه من الجيوش وتحصّن في أهم مضايق جبال طوروس الفاصلة بين الشام والأناضول ويسمّى هذا المضيق بمضيق بيلان، وهو مشهور في التاريخ لمرور الاسكندر المقدوني منه حين أتى لفتح بلاد الشام ومصر ومرور الافرنج حين أتوا من طريق القسطنطينية لفتح بيت المقدس واستخلاصه من أيدي المسلمين أثناء الحروب الصليبية، فلحقه إبراهيم باشا وفاز عليه فوزاً عظيماً وفرّق شمل جيوشه في غرّة ربيع أول سنة 1248هـ



(29 يوليو سنة 1832م) وتبع من بقي منهم إلى أن نزلوا بمراكبهم في ميناء اسكندرونة. فجمع السلطان جيشاً آخر وقلّد رئاسته إلى رشيد باشا، الذي امتاز مع إبراهيم باشا في حرب موره خصوصاً في محاصرة وفتح مدينة (ميسولونجي)، وأرسله إلى بلاد الأناضول لصدّ هجمات إبراهيم باشا عن القسطنطينية نفسها إذ كان إبراهيم باشا قد اجتاز جبال طوروس واحتل إقليم (أضنه) وما وراءه إلى مدينة قونية في وسط الأناضول. والتقى بالقرب من هذه المدينة برشيد باشا وجيشه فانتصر عليه وأخذه أسيراً في 27 رجب سنة 1248هـ (20 ديسمبر سنة 1832م) وعند ذلك ساد القلق في الأستانة وخيف تقدّم إبراهيم باشا بجيوشه المصرية إليها. أمّا هو فسافر حتى وصل إلى ضواحي مدينة بورصة.

ولما تواترت أخبار انتصار المصريين على العثمانيين خشيت الدول أن يكون قصد محمد علي باشا احتلال الأستانة وإسقاط عائلة بني عثمان والاستئثار بالخلافة الإسلامية فيحصل اضطراب عمومي في التوازن الأوروبي. وكانت روسيا أشد قلقاً من غيرها لخوفها من سقوط الأستانة في قبضة من يمكنه الذبّ عنها أكثر من الملوك العثمانيين فلا يمكنها تنفيذ وصيّة بطرس الأكبر. ولذلك عرضت على الدولة العثمانية مساعدتها بالرجال وأنزلت فعلاً على شواطئ الأناضول خمسة عشر ألف جندي

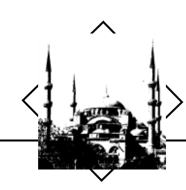


لحماية الأستانة فاضطربت فرنسا وإنجلترا وخشيت سوء عاقبة تدخّل روسيا بصفة عسكرية وألحّت على الباب العالي بسرعة الاتفاق مع محمد علي باشا قبل تفاقم الخطب واتساع الخرق على الراقع وتوسّطت بينهما فقبل الباب الهمايوني بهذا التوسّط.

وبعد مخابرات ومداولات اتفق الطرفان على أن يخلي المصريون إقليم الأناضول وترجع جيوشهم إلى ما وراء جبال طوروس. وتعطى لمحمد علي باشا ولاية مصر مدّة حياته ويعيَّن هو والياً على ولايات الشام الأربع (عكّا وطرابلس وحلب ودمشق) وعلى جزيرة كريت وأن يعيّن ابنه إبراهيم باشا والياً على إقليم أضنه. وصدرت بذلك هذه المعاهدة مؤقتاً إذ لم يقبل السلطان بهذه التسوية إلا ليتمكّن من الاستعداد للحرب وإرجاع ما أخذ منه قهراً.

حرب الشام الثانية

ولم تكن هذه التسوية إلا وقتية فإنّ محمد علي باشا لم يقبل بها إلا خوفاً من إجبار الدولة له على ترك فتوحاته، وكذلك لم يقبل السلطان محمود بها إلا لتفرّق جيوشه وعدم إمكانه صدّ هجمات إبراهيم باشا عن الأستانة إلا بمساعدة روسيا الأمر الذي سعى في تلافيه بإبرام هذه



المعاهدة، حتى إذا استعدّ لاسترداد ما فقد كرهاً أغار على بلاد الشام وجعل مصر ولاية عثمانية بدون أقل امتياز.

ولما كانت هذه أفكار كل فريق منهما كان لابدّ من اشتعال نار الحرب بينهما ثانية عاجلاً أم آجلاً، ولقد كان من أهمّ دواعي استئناف هذه الحروب عصيان أهل الشام على محمد علي باشا ومعاملته إياهم بكل صرامة لإخضاعهم لسلطانه، ثم عصيان الدروز وإمدادهم بالمال والسلاح من الخارج سرّاً لإضعاف شوكته، وفي أثناء ذلك فاتح محمد علي باشا بعض وكلاء الدول بمصر بأنه يرغب أن تكون مصر والشام وبلاد العرب له ولأولاده من بعده، فأبلغ الوكلاء ذلك لدولهم وهي خابرت الدولة العليّة بذلك بكيفيّات مختلفة، فعضدت فرنسا مطالبه.

وبعد مداولات طويلة اتفقا على أن تعطى له ولايتا مصر والعرب إرثاً لأولاده. وبلاد الشام إلى جبال طوروس مدّة حياته. وعاد سارين أفندي إلى الأستانة بهذا الوفاق فلم يقبله الباب العالي بل أصرّ على أن تكون جبال طوروس ومفاوزها في أيدي العثمانيين لا المصريين. وصمّم محمد علي باشا على عكس ذلك بما أنّ هذه المفاوز بمثابة أبواب لبلاد



الشام بأجمعها فلو احتلتها الدولة العليّة أمكنها الإغارة على برّ الشام في أي وقت أرادت.

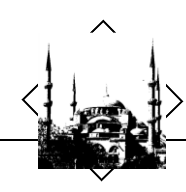
واقعة نصيبين

وبذلك عاد الخلاف إلى ما كان عليه وصارت الحرب قاب قوسين أو أدنى، وأوعز الباب العالي إلى حافظ باشا الذي عُيّن أمين سر عسكر الجيوش المجتمعة في سيواس بأرمينية بعد موت رشيد باشا أمير قونية الذي مات قبل أن يأخذ بثار هذه الواقعة ويمحو ما لحقه فيها من الفشل، إلى أن يتقدّم إلى ولايات الشام بكل سرعة، فتقدّم إليها في أوائل سنة 1255هـ الموافقة سنة 1839م وعبر نهر الفرات عند مدينة (بلاجيق)[1] في أبريل من السنة المذكورة، ثم التقى الجيشان بعد عدّة مناورات بالقرب من بلدة تدعى نصيبين[2] وهي المشهورة في جميع كتب الإفرنج باسم (نزيب) في 11 ربيع الثاني سنة 1255هـ (24 يونيو سنة 1839م) وانتصر المصريون وتقهقر الجيش العثماني تاركاً

---

(1) بلاجيق أو بيره جك: وتقع بالقرب من الحدود السورية شمال شرق حلب.

(2) نصيبين أو نزيب Nizip : تقع إلى الجنوب الغربي من بيره جك.



في أيدي المصريين 166 مدفعاً وعشرين ألف بندقية وغيرها من الذخائر والمؤن.

وعندما خلف السلطان عبد الحميد أباه محمود الثاني، كانت الدولة العثمانية بلا جيش بسبب خسارة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي المصرية، وبلا أسطول بفعل انضمام الأسطول العثماني طواعية إلى الأسطول المصري في الإسكندرية بقيادة القائد العام أحمد باشا الذي غضب من عدم تعيينه صدراً أعظم، وبسبب خشيته من كيد الصدر الأعظم خسرو باشا والتآمر عليه نظراً لما كان بينهما من عداوة.

أمّا الوضع السياسي العام، فكان يحكمه موقف الدول الكبرى والتي لها وزن ونفوذ في مناطق أوروبا والشرق الأوسط وهذه الدول هي: روسيا، وفرنسا، وإنجلترا، والنمسا، وبروسيا ومعهم السلطان العثماني، ومحمد علي باشا.

معاهدة لندن 1840م

وظلّت الدول الخمسة: (روسيا، وفرنسا، وإنجلترا، والنمسا، وبروسيا) في حالة مدّ وجزر حسب مصالحها إلى أن توصّلت إلى معاهدة



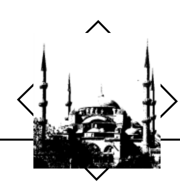
لندن سنة 1840م، وجاءت بناء على اقتراح نمساوي بعقد مؤتمر في لندن لم تحضره فرنسا، واقتصر على كل من: إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا، ووقعت معاهدة لندن، وصدّقت عليها الدولة العثمانية بهدف الضغط على محمد علي باشا، وأهمّ نصوصها ما يلي:

1- يكون لمحمد علي باشا وخلفائه حكم مصر الوراثي، ويكون له مدّة حياته حكم ولاية عكّا بما فيها مدينة عكّا شريطة أن يقبل ذلك في مدّة لا تتجاوز عشرة أيام من تاريخ تبليغه هذا القرار، وأن يرافق ذلك قبوله بإخلاء جزيرة كريت وبلاد العرب وإقليم أدرنة، وأن يعيد للدولة العثمانية أسطولها.

2- إذا لم يقبل هذا القرار في مدّة عشرة أيام تركت له ولاية مصر وحدها، ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثي فيها، فإذا لم يقبل خلال هذه المدّة كان السلطان في حلّ من حرمانه ولاية مصر.

3- يتكفّل الحلفاء في حال رفض محمد علي باشا لتلك الشروط باللجوء إلى وسائل القوة لتنفيذها وأن يتخذوا بناء على طلب السلطان كل الوسائل لحمايته وجعل المضائق بمأمن من كل اعتداء.





4- يحق لإنجلترا بالاتفاق مع النمسا مساعدة سكان بلاد الشام على خلع طاعة محمد علي باشا.

5- يحق للسفن الإنجليزية والروسية والنمساوية الدخول إلى مضيق البوسفور لحماية إستانبول لو تقدّمت الجيوش المصرية نحوها إلخ...

احتجّت فرنسا على تجاهلها في مؤتمر لندن، وانحازت لمحمد علي باشا وحرّضته على رفض الاتفاقية مع وعد له بالمساعدة من فرنسا [1].

رفض محمد علي هذه المعاهدة وتمسّك بمعاهدة كوتاهية، واعتمد على مساعدة فرنسا وترك مهلة الأيام العشرة الأولى تمر دون ردّ، وأُبلغ من الدول الأوروبية بإنذار ثان في اليوم الحادي عشر، وأمهلوه عشرة أيام أخرى، وأُبلغ أيضاً بعدم أحقّيته في ولاية عكّا طبقاً لشروط المعاهدة [2].

ومرّت العشرة الثانية دون استجابة محمد علي، فأصدر السلطان عبد المجيد فرماناً يخلع محمد علي باشا عن ولاية مصر.

---

(1) المسألة الشرقية، مصطفى كامل، ص100.

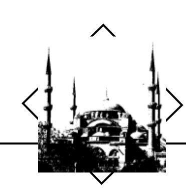
(2) تاريخ الدولة العليّة العثمانية، محمد فريد بيك، ص465.



استقبل محمد علي القرار بهدوء ورغب في السلم، ولم يعبأ بتهديدات الجنرال نابييه قائد الأسطول الإنجليزي أمام الإسكندرية، وفي النهاية تراجع السلطان عبد المجيد عن خلع محمد علي باشا بعد أن وقّع محمد علي بتاريخ 27 من تشرين الثاني عام 1840م مع الأميرال نابييه اتفاقية وعد فيها بالإذعان لطلبات الدول الكبرى والجلاء عن الشام بشرط ضمان ولايته الوراثية على مصر، وهذا ما تم الاتفاق عليه في النهاية.

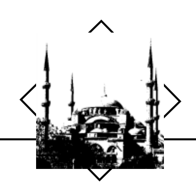
☾ ☾ ☾

نلحظ من خلال سيرة محمد علي باشا التي كانت نموذجاً صارخاً للحكّام الذي تطلّعوا إلى النفوذ والزعامة وتوسيع السيطرة والاستقلال دون أن يكون هناك أيّة رؤية فكرية معمّقة للأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية إلخ... أو قل باختصار دون أن تكون هناك مراجعة لأوضاع الأمّة، وقد تقاطعت هذه التطلّعات للنفوذ والسيطرة مع تطلّعات الدول الغربية لإضعاف الخلافة العثمانية، في مرحلة أولى من أجل القضاء عليها، وقد تقاطعت ظروف محمد علي باشا مع فرنسا الدولة التي فشلت في عهد نابليون بونابرت في استعمار مصر، واضطرت للخروج منها، ثم عاونت فرنسا محمد علي باشا في بناء جيشه وتطوير الزراعة في مصر، وفي



استقبال بعثات تعليمية وعسكرية إلخ... ثم عاونته سياسياً في احتلاله لبلاد الشام، ثم تخلّت عنه عندما اضطرتها إلى ذلك موازين القوى الدولية.

الخلاصة: إنّ هذا النموذج من الحكّام كان سبباً رئيسياً في إضعاف الخلافة العثمانية، واستنزاف طاقتها في حروب داخلية، كان الموجّه لها والمستفيد منها هي الدول الغربية التي كانت تسعى إلى إسقاط الخلافة العثمانية، وبالفعل كانت تطلّعات هؤلاء الحكّام إلى الاستقلال والمجد الشخصي بالدرجة الأولى عاملاً أساسياً في إنهاك الخلافة العثمانية والتعجيل بسقوطها.

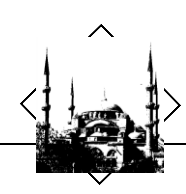


العامل الثالث: إشعال الثورات في الجزء الأوروبي من الخلافة العثمانية:

فتحت الخلافة العثمانية جزءاً كبيراً من أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولم تفرض الدين الإسلامي على الشعوب المفتوحة، وتركت لهم حرية الاختيار بين الدين الإسلامي وبين البقاء على ديانتهم السابقة، وقد استغلّت الدول الأوروبية الأقاليم المفتوحة في القرن التاسع عشر، وأثارتها ضدّ الخلافة العثمانية من أجل إضعافها، وقد جرى هذا الاستغلال مع كل المناطق والأقاليم والأعراق والأجناس الأوروبية كالصرب واليونان والبلغار ومكدونيا والبوسنة والهرسك إلخ...

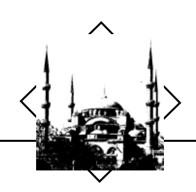
ثار الصرب عام 1812م، لكنّ الخلافة العثمانية استطاعت إسكاتهم مستغلّة انهماك روسيا بمقاتلة الزحف الفرنسي نحوها، واستغلّت تخلّي النمسا عن مساعدتهم لذلك، لكنّ الثورة تجدّدت عام 1815م، ثم أصبحت الصرب دولة شبه مستقلّة في عام 1831م [1].

[1] تاريخ الدولة العليّة العثمانية، محمد فريد بيك، ص407.



وتحرّكت ثورة اليونان ضدّ العثمانيين بمعاونة الروس، فألّفوا عدّة جمعيات سياسية سرية، وجعلوا مراكزها في روسيا والنمسا، وأهمّ هذه الجمعيات السرية المسمّاة (هيتيري)، وقيل إنّ تشكيلها كان بتحريض من اسكندر الأول قيصر روسيا لإيجاد المشاكل الداخلية في الدولة كي يتسنّى له تنفيذ وصية بطرس الأكبر القاضية بجعل مدينة القسطنطينية مفتاح الممالك الروسية، وقد وجّهت الدولة العثمانية خورشيد باشا لمواجهة الفتن في دول البلقان في فبراير 1822م.

ثم استعان السلطان محمود بمحمد علي باشا والي مصر في محاربة المتمرّدين في اليونان، وأذعن محمد علي باشا لأمر السلطان، وأرسل ولده إبراهيم على رأس سبعة عشر ألفاً من الجنود المصريين، وأبحرت هذه الإرسالية من ثغر الاسكندرية في 19 ذي القعدة 1239هـ (16 يوليو 1824م)، فسارت السفن إلى جزيرة رودس للاجتماع بها مع البحرية العثمانية. ثم ترك إبراهيم باشا فيها سليمان الفرنساوي مع حامية كافية من تعدّي الثائرين عليها، وقصد هو جزيرة كريت فاحتلّها. وبعد القتال الشديد تمكّن من إنزالهم في مدينة مودون، ولو لم تكن مساعدة أوروبا لليونانيين بالمال والرجال لما أمكنهم من مقاومة الجنود العثمانيين، فإنه لما شرعت اليونان في طلب الاستقلال وشكّلت عدّة جمعيات في



أوروبا دُعيت بجمعيات محبّي اليونان وجمعت كثيراً من المال أرسلت به إلى المتمرّدين، وأرسلت كميّات وافرة من الأسلحة والذخائر. وتطوّع كثير من أعضائها في عداد المحاربين ومن ضمنهم كثير من مشاهير أوروبا وأمريكا مثل واشنطن ابن جورج واشنطن محرر أمريكا الشهير واللورد بايرون الشاعر الإنجليزي وغيرهما من رجالات أوروبا وأمريكا. ومما ساعد على دخول الشبان في جيوش اليونان القصائد الحماسية التي نشرها فيما بينهم (فيكتور هوجو) الشاعر الفرنسي و(كازيمير دلافيين) الناظم الشهير.

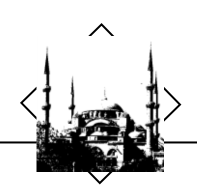
استطاع إبراهيم باشا أن يردّ مدينة (مودون)، ثم فتح مدينة (ناورين) الشهيرة بعد حصار شهرين ودخلها في 16 مايو 1825م، وبعد قليل فتح مدينة (كلامات)، وغيرها من المدن، وفتح مدينة (أكرومول) رغماً عن دفاع اللوردكوثران القائد البحري الإنجليزي الذي عُيّن من قِبَل اليونانيين قائداً لجيوشهم البرية والبحرية. وبينما كان إبراهيم باشا يستعدّ لفتح ما بقي من بلاد اليونان في أيدي الثائرين إذ تدخّلت الدول بين الباب العالي ورعيّته بحجّة حماية اليونانيين في الظاهر ولفتح المسألة الشرقية وتقسيم بلاد الدولة بينهم في الباطن. وانتهت الضغوط التي شاركت فيها روسيا وإنجلترا ورافقتهما دول النمسا وبروسيا وفرنسا إلى



فرض معاهدة (أفاكرمان)، والتي اضطرّ الباب العالي إلى التصديق عليها في أكتوبر 1826م وملخّصها:

أن يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود والمرور من المضائق دون أن يكون للدولة وجه في تفتيش سفنها، وأن تنتخب حكّام ولايتي الأفلاق والبغدان بمعرفة الأعيان لمدّة سبع سنوات مع عدم جواز عزلهما أو أحدهما إلا بإقرار روسيا، وأن تكون ولاية الصرب مستقلّة تقريباً وأن لا تحتل العساكر التركية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى. ولم يذكر بهذه المعاهدة شيء عن اليونان لإيجاد سبب للإشكال في المستقبل، بل اتفقت روسيا وإنجلترا على استعمال كل نفوذهما لوضع حدّ للحروب المستمرّة بها ولو كره الباب العالي.

وفي 5 فبراير عام 1827م عرضت إنجلترا على الخلافة العثمانية التوسّط بخصوص اليونان، فرفضت ذلك وأجابت بتاريخ 10 يونيو 1827م أنها لم تسمح ولن تسمح بهذا التدخّل، فاغتاظت الدول من هذا الجواب واتفقت كل من فرنسا وإنجلترا وروسيا بمقتضى وفاق تاريخ 6 يوليو 1827م على إلزام الباب العالي بالقوة بمنح بلاد اليونان استقلالها الإداري بشرط أن يدفع اليونانيون جزية معيّنة يُتفق على مقدارها فيما بعد



كما يتفق على حدود الطرفين. وأُمهل الباب العالي شهراً لإيقاف الحركات العدوانية ضدّ اليونان وإلا فستضطرّ الدول لاتخاذ طرق أخرى لنفاذ مطلوبها، ولما بلغت صورة هذه المعاهدة إلى الباب العالي لم يحفل بها. وبعد انقضاء الشهر أصدرت الدول الثلاث أوامرها إلى قوّاد أساطيلها التوجّه لسواحل اليونان وطلبت بعد ذلك من إبراهيم الباشا الكفّ عن القتال، ثم وقعت معركة بحرية بين القوّات البحرية لفرنسا وروسيا وإنجلترا بقيادة اللورد الإنجليزي كورديختول وبين القوّات البحرية التركية والمصرية، وانتهت المعركة بانتصار الدول الأجنبية المتحدة وتدمير الأسطولين التركي والمصري في 19 أكتوبر 1827م، ثم تلا ذلك انسحاب إبراهيم باشا من اليونان، وكان كلما انسحب من مكان دخله الفرنسيون الذين نزلوا بلاد اليونان بقيادة الجنرال(نيرون) بتاريخ 29 أغسطس 1828م، ثم عقدت الدول الثلاث اجتماعاً في لندن في 16 نوفمبر 1828م لتعزيز أحوال اليونان، ودعت إليه الدولة العثمانية فأبت عن إرسال مندوب من طرفها حتى لا يعد ذلك إقراراً منها على ما يتفق عليه وما فعلوه من مساعدة اليونان للاستقلال.

واجتمع المندوبون في لندن في الموعد المذكور سابقاً واتفقوا على استقلال موره وجزائر سقلاوة واجتماعها على هيئة حكومة مستقلّة



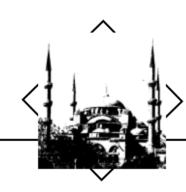
يحكمها أمير مسيحي تنتخبه الدول ويكون تحت حمايتها، وعلى أن تدفع الحكومة اليونانية للباب العالي جزية سنوية قدرها خمسمائة ألف قرش، فلم يقبل العالي هذا القرار الصادر من دول غير مختصّة فيما يقع بينه وبين متبوعيه.

☾ ☾ ☾

نلحظ من الوقائع السابقة التدخّل السافر من قِبَل كل الدول الأوروبية في شؤون الجزء الأوروبي من الخلافة العثمانية، وقد حرّك بعضها الجاليات المسيحية ودعمها بالمال كما فعلت روسيا مع الجاليات الأرثوذكسية، وكما فعلت كل من فرنسا وإنجلترا عندما أمدّت الثائرين بالمال، وساهم كبار رجالهم في الدعم المعنوي للثورة، ويتضح ذلك من خلال مشاركة اللورد بايرون الشاعر الإنجليزي المشهور في القتال، ومجيء جورج واشنطن الابن وهو ابن قائد الاستقلال الأمريكي إلى اليونان والمساهمة في القتال، ولم تقف كل من إنجلترا وفرنسا عند حدود الدعم الشعبي، بل قاتلت جيوش الدولتين جيوش الخلافة العثمانية وجيوش محمد علي باشا، واضطرتها إلى الجلاء عن اليونان بعد تدمير أسطوليهما عام 1827م.



إنّ هذه التدخّلات السافرة في شؤون الشعوب التابعة للخلافة العثمانية، وإشعال الثورة فيها كان عاملاً رئيسياً في إضعاف الخلافة العثمانية وتفكيكها في مرحلة تالية.



العامل الرابع: استغلال الغرب للطوائف:

استغلّت الدول الغربية وجود طوائف متعدّدة تحت حكم الخلافة العثمانية، فأشعلت الفتن بينها، وأوقعت المشاكل من أجل أن يتاح لها التدخّل، ونحن سنأخذ لبنان كنموذج على هذا في القرن التاسع عشر، وسنستعرض أحواله بعد عام 1840م سنة انسحاب ابراهيم باشا من بلاد الشام.

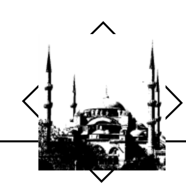
جاءت الخطوة الأولى بأن عزل السلطان العثماني الأمير بشير الشهابي بعد خروج العساكر المصرية من الشام وعيّن مكانه والياً عثمانياً. وأبطل بذلك جميع امتيازات سكان الجبل الممنوحة لهم قديماً بمقتضى عدّة معاهدات وما منح لهم أخيراً باتفاق الدول عقب جلاء العساكر المصرية عنه ليقينه أنّ وجود الشعوب المختلفة القاطنة به تحت حكم وال واحد أقطع للمفاسد وأمنع لظهور الضغائن الدينية بين الموارنة والدروز. فلم تقبل الدول الأوروبية ذلك بل اضطر الباب العالي بناء على مساعيها أن يعيد للجبل بعض امتيازاته واتفق مع سفراء الدول على أن يكون للوالي العثماني قائم مقامان: أحدهما ماروني والآخر درزي، يتولّى كل منهما



النظر في شؤون أبناء جنسه وذلك في سنة 1258 هجرية (سنة 1842م).

لكن لم تنجح هذه الطريقة أيضاً لاختلاط سكان بعض القرى من موارنة ودروز فسلخ الباب العالي إقليم الجبل الآهل بالموارنة من حكومة الجبل وضمّه إلى ولاية طرابلس بلا امتيازات كباقي أقاليم الجبل، فعارض بَطْريقُ الموارنة في ذلك وأرسل إلى جميع القناصل يحتجّ ضدّ هذا العمل المنافي للاتفاق الأخير مدّعياً أنّ الدولة لم ترد بذلك إلا إضعاف العنصر الماروني وتقوية العنصر الدرزي. فبناء على هذه الشكوى أرسل الباب العالي، بصفته والياً على الشام، رجلاً اتصف بالاستقامة وأصالة الرأي يدعى أسعد باشا للنظر في تسوية هذه المسألة فارتأى ضرورة إعادة الأمير بشير الشهابي إلى إمارة الجبل كما كان فلم يقبل الباب العالي هذا الحل وانتدب آخر يدعى خليل باشا لتحقيق تشكيات الطرفين وتقديم تقرير عمّا يراه حاسماً للنزاع فاختلف مع أسعد باشا في الرأي وقال بأفضلية اعتبار جبل لبنان كباقي الولايات العثمانية بدون أدنى امتياز.

ولعدم قبول القناصل بهذا الرأي اتفقوا أخيراً في غضون سنة 1259هـ (سنة 1843م) على أن يعيّن في القرى المختلطة وكيلان



أحدهما درزي والآخر ماروني، ويكون كل منهما تابعاً للقائم مقام الذي على مذهبه، فلم يقبل الدروز إلا أن يكون لهم السيادة على المارونية في الجهات المختلطة وهؤلاء آثروا التتبع لإحدى الولايات العثمانية المحضة على أن يكونوا تحت سيادة الدروز.

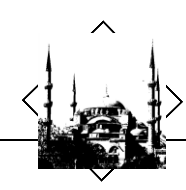
واستحسن الباب العالي هذا الرأي الأخير، لكن لم يرق ذلك في أعين الدروز ولا في أعين المحركين لهم، فهاجوا ثانياً وقاموا على المارونية وحصلت مذبحة جمادى الأولى سنة 1261هـ (سنة 1845م)، فأرسلت الدولة جيوشها واحتلت البلاد سهلاً وجبلاً بصفة عسكرية وأجرت فيها الأحكام العرفية ثم دارت المخابرات بين الدول العظمى والباب العالي لتقرير ما يضمن السلام في الحال والاستقبال، فاجتمعت آراؤهم أخيراً بعد مداولات طويلة وأخذ وردّ على أن يبقى في القرى المختلطة وكيلان درزي وماروني ويعيّن لكل من القائمي مقام مجلس يشاركه في الإدارة مع بقائه تحت رئاسته، ويشكّل كل من هذين المجلسين من عشرة أعضاء: خمسة قضاة وخمسة مستشارين، اثنان منهما من الدروز واثنان من المارونية واثنان من المسلمين واثنان من المدنيين واثنان من المتمذهبين بمذهب الروم الأرثوذكس. ويكون من اختصاصها توزيع الضرائب بالسواء بدون نظر إلى



اختلاف دين أو مذهب. أمّا تحصيلها فيكون بمعرفة القائمي مقام ووكلائهما في القرى والضياع.

ومن اختصاصها أيضاً النظر في القضايا الحقوقية والجنائية وإن امتنع مندوب أيّ طائفة عن الإقرار على قائمة توزيع الضرائب بدعوى أنها مجحفة بحقوق أبناء طائفتهم يرفع الأمر للوالي العثماني فيحكم فيها نهائياً، وقبل تنفيذ أحكامها يمضي عليها القائم مقام المختصّ.

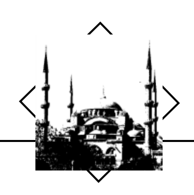
وبذا انتهت مسألة لبنان مؤقتاً بما أنّ الدروز لم يقبلوا هذه التسوية إلا مؤمّلين نوال زيادة عمّا فيها طبقاً لوساوس مندوبي إنجلترا لهم بأنها ستمنحهم مع الوقت السيادة على جميع الشعوب الساكنة بلبنان، إلى أن تعدّى المارونية بالقتل على الدروز في أواخر سنة 1859م فقام الدروز للأخذ بالثأر ثم امتدّت الفتنة إلى جميع أنحاء الشام. وكثر القتل والنهب وحصلت عدّة مذابح في طرابلس وصيدا واللاذقية وزحله ودير القمر ومنها إلى مدينة دمشق الشام. وقام الأمير عبد القادر الجزائري بحماية كثير من المسيحيين فكافأته فرنسا بمنحه وساماً من أوسمتها الرفيعة، واتهم الأوروبيون عثمان بك قائم مقام حاصبيا بتسهيل المذبحة وكذلك اتهموا أحمد باشا والي دمشق بمساعدة الدروز وقتل كل من التجأ إلى دار الحكومة من



المسيحيين وأذاعوا هذه المفتريات على رجال الدولة في جميع الأرجاء تمويهاً وتغريراً ليكون لهم سبب مقبول لدى الرأي العام في بلادهم إذا تدخّلوا فعلياً وجرّ تداخلهم إلى حرب عظيمة.

فعرضت فرنسا على الدول أنها مستعدّة لإرسال جيوشها إلى بلاد الشام لقمع الفتنة ومجازاة مثيريها وحماية المارونية، فلم تقبل الدول هذا الاقتراح بادئ الرأي خوفاً من عدم خروج فرنسا من الشام لو احتلّتها عسكرياً وضحّت بأموالها ورجالها. ولما حصلت مذبحة دمشق التي قُتل فيها نحو ستة آلاف نسمة على ما يقولون أرسلت جميع الدول إلى الباب العالي تهدّده بالتدخّل إن لم يضع حدّاً لهذه الفتن، لكنّ بلاغاتهم لم تكن مشتركة لعدم اتحادهم، فجمع فؤاد باشا جميع الوزراء وأظهر لهم ضرورة تعزيز الجيش العثماني بهذه البلاد وإخماد الثورة قبل أن تتفق الدول على التدخّل عسكرياً، فتقرّر رأيه بالإجماع وانتدب هو لقيادة الجيوش بها ومجازاة كل من تظهر إدانته.

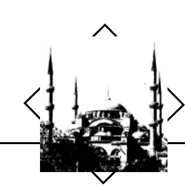
فسافر فؤاد باشا على جناح السرعة ووصل إلى بيروت في 28 ذي الحجة سنة 1276هـ (17 يوليو سنة 1860م) ومنها قصد مدينة دمشق في خمسة آلاف جندي وشكّل مجلساً حربياً وحاكم رؤساء الفتنة



بكل صرامة وشنق كثيراً ممن ظهرت لهم يد عاملة فيها سواء كان من الدروز أو المسيحيين أو المسلمين أو من نفس كبار مستخدمي الحكومة وبذل همّته في إعادة الأمن إلى البلاد.

وفي أثناء ذلك اتفقت الدول على أن ترسل فرنسا إلى الشام ستة آلاف مقاتل لمساعدة الجيش العثماني على إعادة السكينة لو عجز عن تأدية هذه المهمّة. وفي 22 محرم سنة 1277هـ (10 أغسطس سنة 1860م) نزل الجنود الفرنسيون إلى بيروت تحت قيادة الجنرال (دوبول) فوجد السكينة ضاربة أطنابها في ربوع الشام.

ومما يدلّ على تعنت الدول وتعمّدهم مشاركة الدولة في أمورها الداخلية على أيّ حال اتفاقها في باريس بتاريخ 15 محرم 1227هـ (3 أغسطس 1860م) على أنه يجوز زيادة الجيش المحتل إلى اثني عشر ألفاً مع بقاء هذه الجيوش إلى أن يستتب الأمن ويجازى الساعون بالفساد على ما جنت أيديهم، مع أنّ الدولة لم تهمل في تحقيق الأمن في البلاد، ومع أنه لم يكن ثمّة ضرورة لإرسال جيش أوروبي إلى الشام مطلقاً لقيام فؤاد باشا بمهمّته أحسن قيام. ومع ذلك صمّم القائد الفرنسي على إرسال فرقة من ألف وخمسمائة جندي إلى جبل لبنان لإعادة المارونية إلى



بلادهم وحمايتهم من تعدّي الدروز. واستمرّ الاحتلال الفرنسي إلى 27 القعدة سنة 1227هـ (6 يونيو سنة 1861م) وفيه سُحبت الجيوش الفرنسية إلى بلادها بعد أن أوهمت مسيحيي الشام أنها حمتهم من تعدّي المسلمين المتعصّبين المتوحّشين على زعمهم.

وفي أثناء ذلك انعقدت بمدينة بيروت لجنة أوروبية مشكّلة من مندوبين معيّنين من قِبَل الدول الموقّعة على معاهدة باريس. وبعد مداولات طويلة اتفقوا مع فؤاد باشا على أن يعطوا للمسيحيين الذين حرقت دورهم مبلغ خمسة وسبعين مليون[1] قرش بصفة تعويض، وأن يمنح أهالي الجبل حكومة مستقلّة تحت سيادة الدولة العثمانية يكون حاكمها مسيحي المذهب، وأن يكون للباب العالي حامية من ثلثمائة جندي تقيم في حصن على الطريق الموصل من دمشق إلى بيروت. ثم عيّن بالإجماع من يدعى داود أفندي الأرمني الجنس أميراً للجبل لمدّة ثلاث سنوات، وألزم فرنسا بسحب جيوشها من الشام.

---

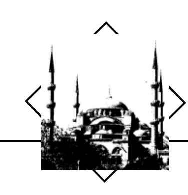
[1] أي 750.000 ليرة ذهبية.



☾ ☾ ☾

نلحظ من خلال الوقائع السابقة تدخّل الدول الكبرى في شؤون الخلافة العثمانية، واستغلالها لقضية الطوائف من أجل تحقيق أهداف سياسية، ونلحظ -كذلك- دعواها في الدفاع عن الطوائف، فقد ارتبط الكاثوليك بفرنسا، والأرثوذكس بروسيا، والدروز بإنجلترا.

ولاشكّ أنّ هذا التدخّل من قِبَل الدول الكبرى في شؤون الخلافة العثمانية بدعوى حماية الطوائف أضعف الخلافة العثمانية، وكان سبباً في إثارة القلاقل والاضطرابات وعدم الاستقرار، وكان في النهاية من أسباب سقوط الخلافة العثمانية.



العامل الخامس: إضعاف الخلافة اقتصادياً:

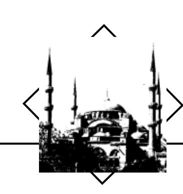
اجتهد الغرب في فرض اتفاقات اقتصادية على الخلافة العثمانية كان القصد منها ربط الخلافة العثمانية باقتصاد السوق وكانت أبرز هذه الاتفاقات: الاتفاقية التي جاءت في صلح باريس عام 1856م حيث فتحت الخلافة بلادها لتملّك الأجانب، وللرأسمال الأجنبي، كما تعهّدت الخلافة بمنح امتيازات السكك الحديدية والبنوك وصناعة التعدين وغيرها للشركات الأجنبية، وفي هذه السنة أيضاً صدر قرار تأسيس البنك العثماني الذي كان معظم رأسماله انجليزياً، وكانت مهمّته تزويد الدولة بالقروض.

إنّ هذا الربط للخلافة بالسوق أضعف الوضع الاقتصادي للخلافة، بالإضافة إلى وجود الديون الرسمية التي أدّت إلى عجز الخلافة عن تسديدها نتيجة الحروب المتتالية مما فتح باباً للتدخّل المباشر من قِبَل الدول الغربية، وارتهان اقتصاد الخلافة للدول الأوروبية، وتمّ تأسيس صندوق الدَّيْن العثماني العام عام 1881م بإدارة فرنسية انجليزية مستولياً على عائد بعض المنتوجات العثمانية، واستكمل بمنح تلك الدولتين تنازلات في مجالات التعدين واستغلال المناجم.



وممـا أضـعف الزراعـة في الخلافـة العثمانيـة قـانون الأراضـي الـذي أصدرته في أتون الإصلاحات المختلفة عـام 1858م وكـان هدفه تأكيد حق الدولة في الأرض في وجه القوى المحلية وبقايا الإقطاع، ولكنه انتهى في الواقع إلى توسيع نطاق الملكية الفردية، وأفاد منه بعد تطبيقه في سورية منذ عام 1864م وفي العراق منذ عام 1869م فئة من المتنفّذين وبعض الأغنياء من الشيوخ والأعيان والتجّار بالدرجة الأولى.

ومن الأمور الأخرى التي أضعفت الخلافة العثمانية هي الامتيازات التي منحتها الخلافة للرعايا الأجانب، والتي تعفيهم من رسوم الجمارك ومـن الضـرائب ومـن المحاكمـة، وقـد أرسـت الخلافـة قـانون الامتيـازات للأجانب في مرحلة مبكّرة من تاريخها منذ أن وقّع سليمان القانوني اتفاقية مع ملك فرنسا في القرن السادس عشر، وقد ساهم قانون الامتيازات للأجانب في إضعاف الخلافة اقتصادياً في القرن التاسع عشر، لأنّ كثيراً من مواطني الخلافة العثمانية استفادوا من مظلّة الحكومات الأجنبية لكي يتهرّبوا من الجمارك ويدخلوا البضائع التي يريدونها ويتهرّبوا من أيّة التزامات نحو الدولة، فقد كانت فرنسا تحمي طائفة الكاثوليك، وروسيا تحمي الأرثوذكس، وإنجلترا تحمي الدروز، لذلك عندما أعلنت الخلافة في القرن التاسع عشر عن المرسومين اللذين ساويا بين أبناء الخلافة العثمانية على

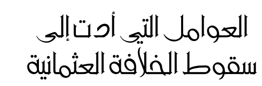


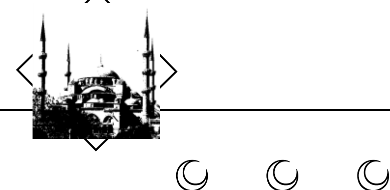

اختلاف أعراقهم ودياناتهم ومذاهبهم وهما: خط كلخانه والخط الهمايوني الشريف، رفضهما أبناء الطوائف المستفيدون من قوانين تحقيق الامتيازات، لأنها تساوى بينهم وبين مواطنيهم الآخرين، ولاشكّ أنّ هذا تهرّب ونكوص من القيام بالواجبات، وحرص فقط على أخذ الامتيازات والاستفادة منها، وقد بيّنت هذه المواقف دور قوانين الامتياز ودور هذه الطوائف في إضعاف اقتصاد الخلافة، والمساعدة في إسقاطها.



العامل السادس: دفع العرب والأتراك إلى الاقتتال:

لقد تعايشت الأجناس والأعراق ضمن الخلافة الإسلامية لمئات السنين كما رأينا ذلك، وكان هذا التعايش والتفاعل والتمازج والاندماج سمة رئيسية من سمات الحضارة الإسلامية عجزت عنه الحضارات الأخرى، ولكن تقاتل -بكل أسف- عِرقان بارزان من هذه الحضارة وهما العِرْق العربي والعِرْق التركي، ولقد أذكى الغرب نار العداوة بينهما، وأجّج نار الفتنة بشكل محكم، وكان ذلك عن طريق الفكر القومي، وأوهم كل طرف بأنه يشكّل أمّة مستقلّة. ولكنّ الحقيقة أنّ العِرْقين يشكّلان أمّة واحدة هي الأمّة الإسلامية، وقد دفعت الدسائس الأحزاب القومية التركية وأبرزها الاتحاد والترقّي في أواخر العهد العثماني إلى محاولة تتريك رعايا الخلافة العثمانية، وهذا ما دعا العرب إلى الثورة ورفض هذا التتريك، وكانت ثمرة تلك المؤامرات ثورة الشريف حسين التي برزت من خلال التحالف مع الإنجليز ضدّ الخلافة العثمانية، وقاتل العرب الأتراك، وجلا الأتراك عن البلاد العربية بعد ثورة الشريف حسين في حزيران (يونيو) 1916م، وكان هذا الاقتتال بين العرب والأتراك من أهم معاول الهدم في الخلافة العثمانية وإنهاء وجودها.





درسنا -فيما سبق- العوامل المباشرة التي أدّت إلى إسقاط الخلافة العثمانية، وهي متنوّعة بين سياسية واقتصادية وعِرقية ومذهبية وطائفية، لكنّ المخطط الغربي لم يقف عند إسقاط الخلافة فقط، بل توجّه بعد ذلك إلى تمزيق الأمّة وتفتيتها، وقد كان يطمع من كل ذلك إلى إلغائها وشطبها من الوجود، فما الأدوات التي اتخذها من أجل تحقيق ذلك؟ هذا ما سنجد إجابته في الباب التالي.

الباب الخامس

تمزيق الأمة وتفتيتها وتدميرها والتمهيد لإلغائها واستئصالها



لقد اجتهد الغرب في تمزيق الأمّة وتفتيتها وتدميرها من أجل التمهيد لإلغائها واستئصالها من خلال عدّة أدوات، هي:

الأداة الأولى: قيام حكومات بفرض النموذج الغربي:

بعد أن أسقط الغرب الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى، قامت حكومات في بعض الدول العربية والإسلامية واجتهدت في فرض النموذج الغربي القومي العلماني بعد الحرب العالمية الأولى، وفي فرض النموذج القومي الاشتراكي بعد الحرب العالمية الثانية، ونحن سنستعرض النموذجين في عدّة دول.

بعد الحرب العالمية الأولى: فرض النموذج القومي الرأسمالي العلماني:

1- العراق:

حكم الملك فيصل بن الحسين العراق بعد الحرب العالمية الأولى، وجاء معه إلى العراق ساطع الحصري من سورية، ومن المعروف أنّ ساطع الحصري هو أبرز المفكّرين القوميين العرب، وأبرز الداعين إلى القومية



العربية بعد الحرب العالمية الأولى، وكان ذا مكانة كبيرة عند الملك فيصل، لذلك قام بدور كبير في عدّة مجالات منها صياغة التعليم صياغة قومية، والتأصيل للحكم القومي في العراق، وقد اعتبر الفكر القومي العربي الذي رسّخه ساطع الحصري في العراق أنّ الرابطة التي تقوم بين أفراد الشعب العراقي هي رابطة قومية، وليست رابطة دينية، وأنّ الأمّة العربية التي تضمّ العراقيين أمّة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ، وأنّ الدين ليس من مقوّمات هذه الأمّة، لذلك اتجهت الحكومة العراقية في نقل النموذج الغربي في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية إلخ... فأقامت اقتصاداً رأسمالياً، وأقرّت دستوراً، ونقلت التشريعات الغربية في مختلف المجالات.

الخلاصة: اعتمدت الحكومة العراقية رابطة جديدة قومية غير الرابطة القديمة التي تقوم على الإخاء الديني، واتجهت نحو النموذج الغربي مروّجة له في كل مجالات الحياة العراقية.

2- مصر:

قامت ثورة 1919م بعد الحرب العالمية الأولى في مصر، وقادها سعد زغلول، ثم انبثقت عن هذه الثورة قيام دستور 1923م واستلام



سعد زغلول رئاسة الوزراء ثم رئاسة البرلمان الذي انبثق عن دستور 1923م، والأهمّ من ذلك هو تبنّي الدولة في مصر الفكرة القومية المصرية، وأنّ المصريين يشكّلون أمّة مصرية، تعود جذورها إلى الفرعونية القديمة، وأنّ الجغرافيا المصرية هي التي كوّنت هذه الأمّة المصرية، وقامت الدولة المصرية بفصل الدين عن الدولة، واتجهت إلى تبنّي كل معطيات الحضارة الغربية في الاقتصاد والسياسة والحكم والتجارة والصناعة إلخ...، وأقامت إعلامها ومناهجها وتربيتها وتشريعها على ذلك التوجّه.

3- تركيا:

قام كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة العثمانية في عام 1926م، وأنشأ الجمهورية التركية، واعتبر أنّ الأتراك أمّة مستقلّة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ، كما اجتهد في سلخ الشعب التركي عن كل ما هو إسلامي، فأعلن العلمانية، وأعلن فصل الدين عن الدولة، وألغى الحرف العربي وكتب اللغة التركية بالحرف اللاتيني، كما أقام الأذان بالتركية لأول مرّة، وألغى القوانين الشرعية وعمل بالقوانين الوضعية إلخ...



بعد الحرب العالمية الثانية: النموذج الاشتراكي:

ساد النموذج الاشتراكي في البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية في الستينات من القرن الماضي، وكانت مصر أول بلد عربي دعا إلى الاشتراكية، ثم انتقلت دعوتها الاشتراكية إلى معظم الدول العربية، فسادت النُظُم الاشتراكية في سورية والعراق والجزائر وليبيا والسودان والصومال واليمن الشمالي والجنوبي، وقد ترافقت مع الدعوة الاشتراكية موجة معادية للدين الإسلامي، لذلك اعتبرت الدول التي طبّقت الاشتراكية أنّ الدين الإسلامي هو سبب التخلّف لأنه يرسّخ العقلية الخرافية، وعملت على استئصاله من حياة الناس، وحاربت أتباعه ودعاته، واعتبرتهم رجعيين ومتخلّفين، وذلك لأنّ المادة أساس الكون، واعتبرت أنّ الإيمان بكل أمور الغيب أوهام وليس له أساس علمي، لذلك عاشت المجتمعات العربية في الستينات محنة كبيرة، وتزعزعت القِيَم والمثُل زعزعة لم تعرفها في أيّة مرحلة من تاريخها، وأحدثت هذه المحنة اضطراباً في كل مكوّنات الأمّة: الفرد، المجتمع، البناء النفسي، البناء العقلي إلخ...، كما أحدثت تأخراً في الاقتصاد العربي، وتخلّفاً في المستوى العلمي والتكنولوجي والتربوي إلخ...، ولكنّ هذه المحنة انتهت وخَفَتَ صوت التيارات الاشتراكية بسبب الهزيمة التي لحقت بالأمّة عام 1967م.



☾ ☾ ☾

إنّ قيام دول وقيادات بعد الحرب العالمية الأولى بفرض نماذج متصادمة مع معطيات الواقع الثقافي والاجتماعي والديني والحضاري والسياسي والاقتصادي للأمّة، إن لم نقل فرض نماذج معادية استئصالية لكل معطيات الواقع الإيجابية، إنّ هذا الفعل ترك آثاراً سلبية في بُنية الأمّة وقِيَمها واقتصادها ومناعتها إلخ... على مستوى الفرد والجماعة، وجعلها مضطربة وغير فاعلة، وأثّر على مسيرتها الحضارية، وأدّى إلى تراجع في هذه المسيرة.



الأداة الثانية: إيجاد أكبر عدد من التقسيمات السياسية:

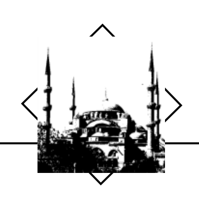
اجتهد الغرب في تقسيم المنطقة إلى أكبر عدد ممكن من التقسيمات السياسية، فهو بعد أن انتصر في الحرب العالمية الأولى، وأزال الخلافة العثمانية قسّم بلاد الشام حسب اتفاق سايكس-بيكو إلى أربع دول هي: سورية، لبنان، الأردن، فلسطين، وهي تاريخياً منطقة واحدة، كما أوجد العراق بصورة لم تكن موجودة، فألحق الموصل به، والتي هي في الأصل من توابع حلب، وفصل عنه دير الزور وألحقها بسورية مع أنها منطقة عراقية، كما قسّم منطقة شرق الجزيرة العربية المطلّة على الخليج العربي إلى عدّة دول، وهو في كل هذا يراهن على أن تترسّخ هذه الحدود، وتتحوّل الأقطار إلى أُمم مستقلّة، وبهذا يكون قد جزّأ الأمّة الواحدة إلى عدّة أُمم.



الأداة الثالثة: إقامة اسرائيل:

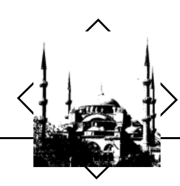
أعلنت اسرائيل عن قيامها عام 1948م بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في 15 أيار (مايو) 1948م، وقد جاء هذا الإعلان إثر قرار للأمم المتحدة في 29من تشرين الثاني (نوفمبر) 1947م لتقسيم فلسطين إلى دولتين، وقد رفض العرب قرار التقسيم ووقعت الحرب، وقد تغلّبت العصابات الصهيونية على الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين، وهاجر معظم أهالي فلسطين إلى الدول العربية المجاورة، وأُطلق على انتصار الصهاينة على العرب عام 1948م عام النكبة.

وعند تفحّص الوقائع السابقة على قيام اسرائيل نجد أنّ إنجلترا بشكل خاص والدول الغربية بشكل عام كان لها دور أساسي في مساعدة الصهاينة على إقامة دولتهم، وكان ذلك بفتح أبواب الهجرة إلى فلسطين بين الحربين العالميتين، وبمنحهم كثيراً من أراضي الدولة ومن أراضي الأوقاف من أجل إقامة مستوطناتهم، وبتزويدهم بالسلاح والتدريب الذي استخدموه في التغلّب على الجيوش العربية إلخ...



والسؤال الأهمّ الذي يَرِد بعد كل التعاون الذي لا حدود له بين الغرب وبين الصهاينة، منذ المؤتمر الصهيوني الأول في بازال عام 1897م وما بين قيام اسرائيل، هو: **ما دور اسرائيل في المنطقة؟ وما الذي يُراد له أن تلعبه؟** الواضح أنّ اسرائيل تريد أن تكون الدولة العظمى بالنسبة للشرق الأوسط، ويراد لها ذلك من قِبَل أمريكا حالياً، لذلك فهي يجب أن تملك أقوى جيش، وأقوى اقتصاد، ويجب أن تكون هي الدولة الفاعلة في المنطقة، لذلك نجد أنّ كل الأحداث التي وقعت منذ عام 1948م تؤكّد هذه الحقيقة، فخاضت اسرائيل عدّة حروب وهي حرب السويس عام 1956م والتي خاضتها مع إنجلترا وفرنسا واحتلّت اسرائيل سيناء ثم انسحبت منها عام 1957م بضغط من أمريكا، ثم خاضت حرب عام 1967م واحتلّت الضفة الغربية من الأردن، والجولان من سورية، وسيناء من مصر، ثم خاضت حرب رمضان عام 1973م في مواجهة مصر وسورية، ثم احتلّت جنوب لبنان لعدّة مرّات ووصلت إلى بيروت عام 1982م.

ومن الواضح أنّ هناك انحيازاً كاملاً من الغرب إلى جانب اسرائيل منذ أن قامت، وجسّدت أمريكا ذلك بحجم المساعدات العسكرية والفنية والمالية التي تحصل عليها اسرائيل، ناهيك عن الدعم السياسي في المحافل



الدولية ومجلس الأمن وعلى مستوى أحداث المنطقة والذي يزداد رسوخاً وتطابقاً يوماً بعد يوم بدءاً من الرئيس ايزنهاور وانتهاء بالرئيس بوش [1].



ليس من شكّ بأنّ قيام اسرائيل، وما سبقها، وما لحقها، ترك أثره في جسم الأمّة، وأضعفه، ومازالت اسرائيل تمثّل العدو الأساسي للأمّة، هذا العدو الذي يريد أن يبسط سلطانه وقبضته على منطقتنا العربية وعالمنا الإسلامي، ويريد أن يكون هو الأقوى، وهو الذي له السيادة، ومازال يستنزف خيرات المنطقة ويوجّهها نحو التسلّح والقتال، ومازال يتآمر مع كل عدو لها، كما حدث في العدوان الثلاثي على مصر، إذ تحالفت اسرائيل مع فرنسا وإنجلترا للقيام بالعدوان الثلاثي.

الخلاصة: تمثّل اسرائيل أداة رئيسية في تفتيت جسم الأمّة، وإضعافها، والتآمر عليها، وانتهاب خيراتها إلخ...

---

[1] انظر تفصيلات لقيام اسرائيل ومسيرتها في كتاب "القضية الفلسطينية: الواقع والآفاق" للمؤلّف.



الأداة الرابعة: إثارة وتحريك النعرات العِرقية والطائفية:

1- إثارة النعرات العِرقية لدى الأتراك والأكراد والبربر:

حرّك الغرب النعرات العِرقية، فحطّم الخلافة الإسلامية من خلال ضرب العرب بالأتراك، ومن خلال تحريك الأتراك وإثارة النعرة العِرقية عندهم، وتوجيههم إلى تتريك الدولة، ثم حرّك الأكراد في العراق وقاموا بالثورة في العراق بعد الحرب العالمية الأولى على الحكم الفيصلي، ثم تحرّك الأكراد بعد مجيء عبد الكريم قاسم، وللموساد الإسرائيلي دور كبير في تحريكهم، وفي تفعيل حركة المجموعات الكردية على مدار الثلاثين سنة الماضية. كما حرّك الغرب البربر في شمال أفريقية، وفتح مراكز لتعليم اللغة الأمازيغية من أجل تعميق الفرقة في الجزائر وغيرها.

2- تحريك الطوائف:

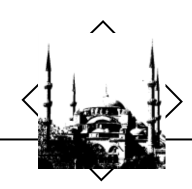
لا يترك الغرب فرصة من أجل إثارة الطوائف على بعضها البعض إلا ويستثمرها، وبدأت هذه العلاقات منذ القرن التاسع عشر، واستغلّها في إثارة مشاكل للخلافة العثمانية، وأبرز مثال على ذلك حوادث 1860م في جبل لبنان بين الدروز والنصارى والتي أدّت إلى التدخّل



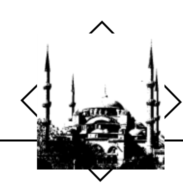
الفرنسي وانتهى التدخّل بإنشاء متصرّفية جبل لبنان تلحق باستنبول مباشرة والتي يرأسها مسيحي، وقد استعرضنا جانباً من هذا التحريك والاستغلال في فصل سابق.

وبعد الحرب العالمية الأولى قسّم الفرنسيون سورية إلى عدّة دول على أساس طائفي منها: دولة للعلويين في جبل العلويين، ودولة للدروز في جبل الدروز، ثم دولة دمشق، ودولة حلب، وكان أبرز الأحداث الطائفية هو المساعدة في إنشاء إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية على أساس طائفي ديني، حيث اعتبرت نفسها دولة اليهود في العالم.

ومن الواضح أنّ أمريكا لعبت اللعبة الطائفية بامتياز بعد احتلال العراق في آذار (مارس) 2003م، فقسّمت أول مجلس للحكم بعد سقوط نظام صدّام على أساس طائفي، ثم وضعت دستوراً يقسّم العراق على أساس فيدرالي، ويتيح للمحافظات الشيعية الجنوبية أن تشكّل فيدرالية خاصة بها، كما يعطي المحافظات الكردية تشكيل فدرالية خاصة بها ليبقى السنّة في الوسط، ومن المتوقّع أن يكون لهذا التقسيم الطائفي للعراق بين سنّة وشيعة انعكاسات على جميع المنطقة في لبنان والخليج، ويبرز إمكانية التصادم الطائفي وبخاصة إذا أضفنا وجود إيران ذات



الواجهة الشيعية ونشاطها في نشر المذهب الشيعي في مناطق السنّة، واستعدادها للاستفادة من كل الشيعة في كل المناطق من أجل تدعيم نفوذها وسيادتها.



الأداة الخامسة: التشكيك في الثوابت التي تقوم عليها الأمّة وزعزعة الثقة بها:

هناك ثوابت تقوم عليها أيةّ أمّة من الأُمم، وأبرز الثوابت التي تقوم عليها أمّتنا هي: القرآن الكريم، والحديث الشريف، ودين الإسلام والتوحيد، واللغة العربية، والتاريخ الإسلامي إلخ...، وقامت محاولات للتشكيك في هذه الثوابت لأكثر من قرنين، وتناول التشكيك مختلف الثوابت، واستخدم المشكّكون أساليب متنوّعة وطُرُقاً متعدّدة، ونحن لن نستطيع أن نلمّ بكل محاولات التشكيك، ولا ببعضها، بل سنتعرّض لبعض التشكيكات التي طرحها طه حسين في كتابَي "الشعر الجاهلي"، و"مستقبل الثقافة في مصر" كنموذج للتشكيكات الأخرى.

كتاب "في الشعر الجاهلي":

ألقى الكتاب عدّة شكوك حول قضايا عقائدية وتاريخية وحديثية وقرآنية، نجملها فيما يلي:

1- ينكر طه حسين وجود ابراهيم واسماعيل التاريخيين فيقول: "للتوراة أن يحدّثنا عن ابراهيم واسماعيل، وللقرآن أن يحدّثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن، لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي،



فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدّثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة" [1].

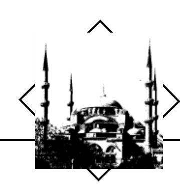
2- اعتبر طه حسين هجرة ابراهيم واسماعيل إلى الجزيرة العربية حيلة اختلقتها قريش لأسباب سياسية واقتصادية، وصدّقها القرآن ليحتال على اليهود، ويتألف قلوبهم. ولينسب العرب إلى أصل ماجد، وليثبت صلته بالتوراة. ويذكر أسطورة مشابهة قبلتها روما في ظروف مماثلة. فيقول في الصفحة السابقة نفسها: "ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة – يريد قصة الهجرة- نوعاً من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى"[2] ثم يقول: "وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة -الهجرة المذكورة في القرن السابع للميلاد-" [3]. ويقول أيضاً: "إذاً فليس ما يمنع قريشاً من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم، كما قبلت روما ولأسباب مشابهة أسطورة

---

[1] في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص26 .

[2] المرجع السابق، ص26 .

[3] المرجع السابق، ص27 .



أخرى صنعتها لنا اليونان تثبت أن روما متصلة بأنبياس بن بريام صاحب طروادة، أمر هذه القصّة إذاً واضح، فهي حديثة العهد قُبيل الإسلام، واستغلّها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضاً، وإذاً فسيستطيع التاريخ اللغوي والأدبي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى" [1].

3- يعتقد طه حسين أن القرآن يمثّل العصر الجاهلي جنباً إلى جنب مع التاريخ والأساطير فيقول: "إن القرآن يمثّل العصر الجاهلي ويشخّصه، وإنه أصدق مرآة للحياة الجاهلية" [2]. ويقول أيضاً: "وإن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يَضِع وإنا نستطيع أن نتصوّره واضحاً قوياً، بشرط ألا نعتمد على الشعر، بل على القرآن من ناحية والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى" [3].

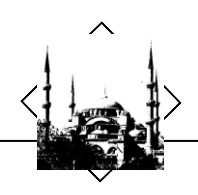
4- يصرّح طه حسين بأن القراءات السبعة ناتجة عن اختلاف لهجات القبائل، مع أنه من الثابت ومن المتفق عليه في أصول الإسلام أنّ

---

[1] في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص28 .

[2] المرجع السابق، ص16 .

[3] المرجع السابق، ص8 .



القراءات السبعة منقولة بالتواتر عن النبي ﷺ ، وطريقها الوحي. يقول طه: "وهناك شيء بعيد الأثر لو أنّ لدينا أو لدى غيرنا من الوقت ما يمكننا من استقصائه أو تفصيل القول فيه، وهو أنّ القرآن الذي تُلِيَ بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لهجة لغة قريش ولم يكد يتناوله القرّاء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعدّدت اللهجات فيه، وتباينت تبايناً كثيراً"[1]. ثم يقول: "إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل، ويسيغه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغيّر حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما يتلوه النبي وعشيرته من قريش، فقرأته كما كانت تتكلّم".

5- يؤمن طه حسين بأنّ المسلمين ربطوا بين الإسلام من جهة، ودين ابراهيم من جهة ثانية كي يُثبتوا أوّلية الإسلام في الحجاز، وكي يوجدوا جذوراً له في المنطقة. يقول: "أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا للإسلام أوّلية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي، وأنّ خلاصة الدين وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبل"[1].

---

[1] في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص32 .

[1] المرجع السابق، ص81 .



6- يزعم طه حسين بأن الرسول ﷺ حرّض على الهجاء، وأثاب شعراء المسلمين عليه فقال: "إن النبي ﷺ كان يحرّض على الهجاء ويثيب عليه أصحابه، ويتحدّث أن جبريل كان يؤيّد حسّاناً"[1]. هذا مع أن الرسول كان دافعاً لهجاء، راداً لألسن، ويتّضح ذلك من حديث الرسول ﷺ: "يا حسان أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس" [2]، وفي قول عائشة للذي أخذ يسبّ حسان عندها: "لا تسبه فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ " [3]. فالتأييد -كما هو واضح من نص الحديث- مرهون بالكفاح والدفاع، أي بردّ الاعتداء اللساني.

7- يطعن طه حسين في إيمان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، إمام العدل، وضبط النفس، يطعن فيه فيصفه بالتعصّب لقريش، وبالغضب لانهزامها في بدر، تلك العصبية التي برّأه الإسلام منها، وطهّره من رجسها. يقول: "وقد ذكر الرواة أنّ عمر مَرّ ذات يوم فإذا حسّان في نفر من المسلمين ينشدهم شعراً في مسجد النبي ﷺ فأخذ بأُذُنه وقال: أرغاء كرغاء

---

[2] المرجع السابق، ص250 .

[3] متفق عليه، واللفظ للبخاري (124/19)، ومسلم (278/12).

[4] حديث صحيح، أخرجه البخاري (48/13).

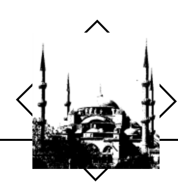


البعير؟ قال حسّان: إليك عني يا عمر! فوالله لقد كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك. فيرضى عمر عنه ويمضي.

وفقه هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ما قدّمنا مِن أنّ الأنصار كانوا موتورين وأنّ عصبيّتهم كانت لا تطمئن إلى انصراف الأمر عنهم، فكانوا يتعززون بنصرهم للنبي ﷺ وانتصاره فهم من قريش، وكان عمر قرشياً يكره عصبيته أن تزدري قريش، وينكر ما أصابها من هزيمة يعني في غزوة بدر" [1].

8- يتساءل طه حسين: لم لا يكون أمية بن أبي الصلت قد أخذ من النبي طالما أنّ مصادر أمية ومحمد واحدة هي قصص اليهود والنصارى؟؟!! يطرح طه حسين هذا السؤال في حوار له مع المستشرق (هوار) الذي يزعم أنّ محمداً ﷺ قد أخذ من أمية بن أبي الصلت فيقول: "من الذي يستطيع أن ينكر أنّ كثيراً من القصص القرآني كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم، وكان من اليسير أن يعرفه النبي ﷺ ، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي، ثم كان النبي

[1] في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص53 .



وأمية متعاصرين، فلا يكون النبي هو الذي أخذ من أمية، ولا يكون أمية هو الذي أخذ من النبي؟" [1].

9- ليست مودّة النصارى للمسلمين -في رأي طه حسين- قائمة على أنّ منهم قسّيسين ورهباناً كما جاء في الآية الكريمة، بل تنبع هذه المودّة -في زعم طه- من قلّة احتكاك المسلمين بالنصارى لانعدام وجودهم حول المدينة المنوّرة مركز الدولة الإسلامية الأولى وكثرة الاحتكاك باليهود الموجودين في المدينة نفسها، يقول طه موضّحاً هذا الرأي: "وأمّا يهودية اليهود فقد ألّبت عليه وجاهدته جهاداً عقلياً وجدلياً، ثم انتهت إلى الحرب والقتال، وأمّا نصرانية النصارى فلم يكن معارضتها الإسلام إبّان حياة النبي قوية قوة المعارضة الوثنية واليهودية ... لماذا؟ لأن البيئة التي ظهر فيها النبي لم تكن بيئة نصرانية، إنما كانت وثنية في مكة، ويهودية في المدينة، ولو ظهر النبي في الحيرة أو نجران للقي من نصارى هاتين المدينتين ما لقي من مشركي مكّة ويهود المدينة" [2].

كتاب "مستقبل الثقافة في مصر":

---

(1) في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص85 .

(1) في الشعر الجاهلي، طه حسين، ص18 .



يحتوي هذا الكتاب على حجم كبير من المغالطات، ويدعو إلى نقل الحضارة الغربية بحلوها ومرّها، ويبرّر ذلك، ونحن سننقل ذلك وسنبيّنه في السطور التالية:

يلبس طه حسين دعواه المنكرة في نقل الحضارة الغربية ثوباً من العلمية المجرّدة فيسأل في بداية الفقرة الثانية من كتابه: أمصر من الشرق أم من الغرب؟ ويورد شواهد عدة تنبيء عن مقاومة مصر للاحتلال الأجنبي، ثم يجيب على السؤال السابق قائلاً: "إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثّر بشيء فإنما يتأثّر بالبحر الأبيض المتوسّط، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما تبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسّط" [1]. ثم يبيّن إيمان المصريّين بانتمائهم إلى الشرق فيقول: "فأمّا المصريّون فيرون أنهم شرقيّون وهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافي اليسير وحده، بل معناه العقلي والثقافي" [2]. ويعقّب مستغرباً: "وقد استطعت أن أفهم كثيراً من الخطأ، وأسيغ كثيراً من الغلط، وأفسّر كثيراً من الوهم، ولكني لم

---

[2] مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، ص11 .

[1] المرجع السابق، ص15 .



أستطع قط، ولن أستطيع في يوم من الأيام، أن أفهم هذا الخطأ الشنيع أو أسيغ هذا الوهم الغريب".

ويطعن في حكم العرب المسلمين لمصر فيقول: "والتاريخ يحدّثنا كذلك بأنّ رضاها -أي مصر- عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السخط، ولم يخلص من المقاومة والثورة، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تستردّ شخصيّتها المستقلّة في ظلّ ابن طوسون، وفي ظلّ الدول المختلفة التي قامت بعده" [1]. ويحوّر الحقائق التاريخية فيذكر انفصال السياسة عن الدين في الحكم الإسلامي فيقول: "فالمسلمون إذن قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة. وهو: أن السياسة شيء، والدين شيء آخر، وأنّ نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أي شيء آخر" [2].

يتساءل طه حسين في بداية الفقرة الخامسة من كتابه: هل استطاع الإسلام خلال حكمه الطويل أن يخرج مصر عن عقليّتها الأولى؟ فيقول: "وجاء الإسلام وانتشر في أقطار الأرض وتلقّته مصر لقاء حسناً،

---

[2] مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، ص17 .

[1] المرجع السابق، ص17 .



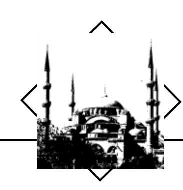
وأسرعت إليه إسراعاً شديداً، فاتّخذته لها ديناً، واتّخذت لغته العربية لها لغة، فهل أخرجها ذلك عن عقليّتها الأولى، وهل جعلها ذلك شرقية بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة الآن؟" [1].

يبهم طه حسين، وإلا فماذا تعني كلمة العقل المصري؟ هل يقصد به محصّلة الصفات الفرعونية؟ أم ماذا؟. وهو يتلاعب -في الوقت نفسه- بالألفاظ: فقد أورد مفهومين متناقضين لكلمتي (شرق، شرقية) في صفحات متقاربة، فقصد بها في الأول: الهند والصين واليابان، والحضارة الهندية والصينية واليابانية. وقصد بها في الثاني: الإسلام والحضارة الإسلامية.

وهو يتعامى عن المفاهيم البسيطة، فقد كان مفهوم (الشرق، الشرقية) في مطلع القرن العشرين شعاراً سياسياً أكثر منه حضارياً، انطلق كردّ فعل من استعمار الغرب للشرق، ونتج من تشابه ظروف شعوب آسيا وأفريقيا تجاه أوروبا.

---

[2] المرجع السابق، ص21 .



هل أخرج الإسلام مصر عن عقليّتها الأولى؟ وهل جعلها أمّة شرقية؟. يجيب طه بـ (لا). ويدلّل على إمكانية ذلك بالمسيحيّة التي لم تخرج العقل الأوروبي عن كونه أوروبياً.

قبل أن نناقش طه جوابه نوضّح حقيقة بسيطة هي: أنّ الإسلام مفهوم يصبّ ضمن مفاهيم الشرق، والحضارة الإسلامية جزء من الحضارة الشرقية. هذا الكلام صحيح في حدوده الجغرافية، أمّا بعد ذلك فالاختلاف لا محدود له -وهو اختلاف جلي واضح- بين الإسلام وديانات الشرق كالبوذية والبراهمية، بين مقوّمات الحضارة الإسلامية والحضارات الهندية والصينية واليابانية.

هل أخرج الإسلام مصر عن عقليّتها الأولى؟ وهل جعلها أمّة شرقية؟ نجيب: بـ (نعم). فقد أخرج الإسلام مصر عن عقليّتها الأولى ولم يجعلها شرقية بل جعلها إسلامية. وإلا فما هي صفات مجتمع ما قبل الإسلام التي لم ينلها التحوير؟ ولم يطلها التغيير؟ وماذا بقي من مجتمع ما قبل الإسلام في مصر؟ هل بقيت مُثُله؟ هل بقيت قِيَمه؟ هل بقيت تطلّعاته وأشواقه؟ هل بقي تفكيره؟ هل بقي أدبه؟ هل بقيت أنظمته الاجتماعية؟ هل بقيت تشكيلاته السياسية؟ هل بقيت علاقاته



الاقتصادية؟ وهل؟ ... وهل؟ إلخ... كيف إذن لم يخرج الإسلام مصر عن عقليّتها الأولى؟!!!

يستمر طه حسين في غيّه فيقول في آخر هذه الفقرة: "ولا ينبغي أن يفهم المصري أنّ الكلمة التي قالها اسماعيل، وجعل بها مصر جزءاً من أوروبا، قد كانت فنّاً من فنون التمدّح أو لوناً من ألوان المفاخرة، وإنما كانت مصر جزءاً من أوروبا في كل ما يتّصل بالحياة العقلية والثقافية، على اختلاف فروعها وألوانها" [1].

نفى طه اتصال العقل المصري بالشرق، ونفى تأثير الإسلام عليه، ليصل إلى أن العقل المصري جزء من العقل الأوروبي. يقول في نهاية الفقرة السادسة: "وإذن فمهما نبحث ومهما نستقصي فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أنّ بين العقل الأوروبي والمصري فرقاً جوهريّاً" [2].

---

[1] مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، ص260 .

[1] المرجع السابق، ص29 .



ويهدّد بأنه لن تردّه قوة عن أخذ الحضارة الغربية فيقول: "وليس في الأرض قوة تستطيع أن تردّنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها الأوروبّيون" [1].

ثم يغلق كل النوافذ الحضارية، ويعتبر الحضارة الغربية –وحدها– مقياساً للرقي فيقول: "ونستطيع أن نقول: إن مقياس رقي الأفراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا، إنما هو حظّنا من الأخذ بأسباب الحياة المادية الأوروبّية، وإذا عبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية نعيبها بالإبطاء في نقل ما عند الأوروبّيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية" [2].

يتكلّم طه حسين نيابة عن الشعب المصري، ويفصح عن مكنونات جوانحهم، ويلزمهم الفناء في الحضارة الغربية فيقول: "كل هذا يدلّ على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتّصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً"

---

[2] المرجع السابق، ص31 .

[3] مستقبل الثقافة في مصر، ص31 .



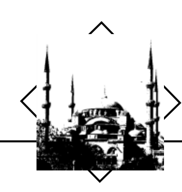
. ويزيّن ذلك باتّفاق العقلين المصري والأوروبّي فيقول متمّماً كلامه[1] السابق: "وعلى أننا لا نجد في ذلك من المشقّة والجهد ما كنا نجده لو أنّ العقل المصري مخالف في جوهره وطبيعته للعقل الأوروبي".

أمّا أننا لا نجد مشقّة وجهداً في تناول الحضارة الغربية شيء صحيح، ويرجع ذلك إلى قوة الاحتلال الأجنبية التي تفرض أشياءها الحضارية بإرهاب السلاح، وبإغراء التسلّط، ولا يرجع ذلك إلى توافق جوهر العقل المصري مع العقل الأوروبي وإلا فبماذا نفسّر فلاح الحضارة الأوروبّية في اليابان؟ كيف نفسّر انتشارها في زمن قصير؟ مع تخالف وتضاد جوهر العقلين الياباني والأوروبي كما قرّر سيادة الدكتور في صفحة سابقة من كتابه.

يهزأ طه من الدعوة إلى الإسلام في القرن العشرين ويسوي بين تراث الإسلام والتراث الفرعوني أو اليوناني أو الروماني فيقول: "وإني لأتخيّل داعياً يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التي ورثوها عن آبائهم في عصر الفراعنة أو في عصر اليونان والرومان أو في عصرها الإسلامي، أتخيّل هذا الداعي وأسأل نفسي: أتراه يجد من يسمع له

---

[1] المرجع السابق، ص35 .



ويسرع إلى إجابته أو يبطئ في هذه الإجابة ولكنه يجيب على كل حال؟ فلا أرى إلا جواباً واحداً يتمثّل أمامي بل يصدر من أعماق نفسي: وهو أنّ هذا الداعي إن وجد لم يلق بين المصريّين إلا من يسخر منه ويهزأ به"[1].

ويطلب من المصريّين محو شعور التميّز عن أوروبا من أنفسهم فيقول: "وأن نمحو من قلوب المصريّين أفراداً وجماعات هذا الوهم الآثم الشنيع الذي يصوّر لهم أنهم خُلقوا من طينة غير طينة الأوروبي ونظروا على أمزجة غير الأمزجة الأوروبّية، ومنحوا عقولاً غير العقول الأوروبية"[2] مع أنّ الشعور بالتمايز لا يناقض أخذ الحضارة الأوروبّية، ولا يضرّ بالأخذ منها، بل على العكس مفيد إنسانياً وحضارياً. وأوضح دليل أمامنا حرص الشعبين الإنجليزي والفرنسي على إيجاد التمايز بينهما في أشياء مادية تافهة كوحدات الأوزان والأقوال، مع أنه تظلّلهما حضارة واحدة، ولكنها التبعية، وأيّة تبعية؟ التبعية الذليلة!!!

---

[1] مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، ص36 .

[2] المرجع السابق، ص42 .



ثم ينادي بأخذ الحضارة الغربية حلوها ومرّها، ما يحب منها وما يكره، ما يُحمد منها وما يُعاب. يقول: "لكن السبيل إلى ذلك -أي إلى الرقي- ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفّقة، وإنما هي واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء. وهي واحدة فذّة ليس لها تعدّد وهي: أن نسير سيرة الأوروبّيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرّها، وما يحب منها وما يكره، وما يُحمد منها وما يُعاب" [1].

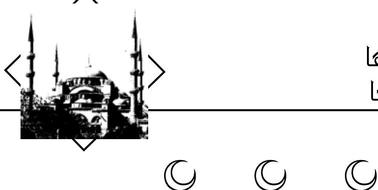
ويُحدّد وسائل نقل الحضارة الأوروبّية فيقول: "ووسائله أن نتعلّم كما يتعلّم الأوروبّي، لنشعر كما يشعر الأوروبي، ولنحكم كما يحكم الأوروبّي، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي، ونصرف الحياة كما يصرفها"[2].

ثم يتحدّث طه حسين في بقية الجزء الأول من "مستقبل الثقافة في مصر" وفي الجزء الثاني منه عن التعليم، واللغات الأجنبية، وواجبات المعلم، وواجبات الدولة تجاه المعلم، والأزهر، واللغة العربية، والعلوم الدينية إلخ...

---

(1) مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، ص45 .

(2) المرجع السابق، ص50 .



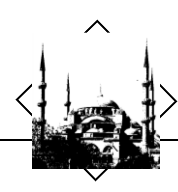
☾ ☾ ☾

احتلّ طه حسين مكانة أدبية عالية، وكان ذا تأثير في محيط الثقافة العربية، فوجدناه في كتابه "في الشعر الجاهلي" يتجرّأ على المقدّسات وأبرزها: القرآن الكريم، ووجدناه في كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" يصرّح بأنّ مصر تنتمي إلى الغرب، ولا تنتمي إلى الأمّة الإسلامية في شيء وأنّ الوجود الإسلامي كان قشرة خارجية، لذلك دعا طه حسين إلى الانغماس في الحضارة الغربية، وأخذ حلوها ومرّها دون أدنى تردّد أو توقّف.



كتاب آخرون قاموا بدور تشكيكي:

شكّك كتّاب آخرون في كثير من ثوابت الأمّة بين الحربين العالميتين غير طه حسين ومنهم: سلامة موسى الذي دعا إلى استعمال اللغة العامية وترك الفصحى، وبرّر ذلك بعدّة مبرّرات، منها: صعوبة الفصحى، كما دعا إلى اتباع الحضارة الغربية، ومنهم علي عبد الرازق الذي أثار قضية حول الحكم الإسلامي في عام 1952م في كتابه المسمّى "الإسلام وأصول الحكم"، والذي ألّفه بعد سقوط الخلافة، والذي ادعى فيه أنه ليس هناك حكم في الإسلام، وأنّ الإسلام دعوة فقط، وأنّ نظام الخلافة هو من اختراع المسلمين وأن لا أصل له في الدين الإسلامي، وهناك كتّاب آخرون كثيرون قاموا بدور تشكيكي ولم يتركوا جانباً من الدين أو الفلسفة أو الأدب أو العادات والمذاهب إلا وطرحوا رأياً يهدم جانباً من وجود الأمّة وكيانها وحياتها، وهؤلاء الكتّاب لا مجال لحصرهم لذلك سنكتفي بهذه الأمثلة السابقة في الفترة التالية للحرب العالمية الأولى.



التشكيك في ثواب الأمّة بعد الحرب العالمية الثانية:

استمرّ التشكيك في ثواب الأمّة من أجل زعزعة ثقة أبنائها بها، ثمّ التوصّل إلى انفراط عقدها بعد الحرب العالمية الثانية، وقد قام كثيرون بذلك، ونذكر على سبيل المثال حسين أحمد أمين الذي تناول قضية الحدود واعتبر إقرار الشرع لها مرتبطاً بظروف تاريخية، ومنهم حسين مروة الذي فسّر التاريخ الإسلامي تفسيراً اقتصادياً، ومنهم محمد سعيد العشماوي الذي تناول أحكام الحجاب والمرأة واعتبر أنّ الحجاب أمر طارئ، وتناول حديث الآحاد وأنه لا يؤخذ به، ومنهم نصر حامد أبو زيد الذي تناول النص القطعي الثبوت القطعي الدلالة، وتناول أحكام الميراث والمرأة والحجاب إلخ...، ومنهم حسن حنفي الذي فسّر التاريخ الإسلامي على أنه صراع بين اليسار الذي يمثّله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واليمين الذي يمثّله عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، ومنهم أدونيس، ومحمد شحرور إلخ...

ونحن سنتناول دراسات هذه الكاتبين الأخيرين أدونيس، ومحمد شحرور، وسنأخذهما كمثال على المشكّكين في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لأنّ المقام لا يتسع لأكثر من ذلك.



1- أدونيس ودوره التشكيكي:

ألّف أدونيس كتاباً تحت عنوان "الثابت والمتحوّل" طرح فيه معظم وجهات نظره التشكيكية، وبدأه بالحديث عن الثابت والمتحوّل، واعتبر أدونيس أنّ تاريخنا ينقسم إلى منحنيين: منحى ثبات واتباع ومنحى تحول وإبداع. وهو يعرض بحثه في كتابين يتحدث في الأول عن أصول الاتباع والإبداع ويتحدث في الثاني عن تأصيل أصول الاتباع والإبداع.

يرى أدونيس أنّ هناك اتباعية في الخلافة والسياسة نشأت منذ الاجتماع في سقيفة بني ساعدة تقوم على قرشية الخلافة، كما تقوم على اتباع سيرتي أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- بالإضافة إلى اتباع سنن الرسول ﷺ وهديه.

وهو يرى أنّ هناك اتباعية في السنّة والفقه، كما أنّ هناك اتباعية في الشعر والنقد تتابع النبي ﷺ على موقفه من الشعر الذي حافظ فيه على النواة الأساسية لدور الشعر في القبيلة ولطبيعة العلاقة بين الشاعر والقبيلة، غير أنه أعطى لهذه النواة مظهراً جديداً وبعداً جديداً ينقل دور



الشعر من إطار الفضائل القبلية إلى إطار الفضائل الدينية، وحوّل العلاقة بين الشاعر والقبيلة إلى علاقة بين الشاعر والدولة [1].

ما هو الإبداع والتحوّل في نظر أدونيس ؟

يرى أدونيس أن جذور الإبداع في مجال السياسة والحكم يبدأ مع مثيري فتنة عثمان رضي الله عنه، ويضم إليهم بعد ذلك الخوارج. ويرى أنهم وضعوا أصولاً تختلف عن الأصول التي قام عليها الحكم الأموي فوضعوا نظرية خلع الإمام الجائر، واستعاضوا عن مبدأ القرشية في الإمامة بمبدأ الجدارة [2].

ثم يرصد أدونيس وقائع كل الثورات التي قامت مناهضة للخلافة الأموية ويعرض بعضاً من تفصيلات وقائعها كثورة التوابين عام 65 هـ ، ثم ثورة المختار بن عبيد الثقفي، وثورة مطرف بن المغيرة عام 77 هـ ، ثم ثورة عبد الرحمن بن الأشقر عام 81 هـ، ثم ثورة زيد بن علي بن الحسين

---

[1] الثابت والمتحوّل، أدونيس، ج 1 ص148 .

[2] المرجع السابق ، ج1 ص185 .



عـــــام 122 هـ، ثم ثــــورة أبي مســــلم الخراســـــاني عام 129 هـ.

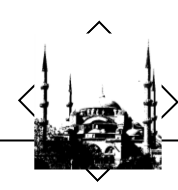
ثم يتحـدث أدونـيس عـن الحركـات الفكريـة في العهـد الأمـوي، فيشير إلى أنّ الخوارج قرنوا النظر بالممارسة، ووحّدوا بين الإيمان والعمل في حين أنّ حركة الإرجاء فرّقت بين الإيمان والعمل، ويعرض إلى قول جعد بـن درهـم بخلـق القـرآن الـذي يعـني اعتمـاد العقـل مصـدراً أولاً للمعرفـة، ويعـرض للفرقـة الـتي قالـت بالقـدر أي أن الإنسـان مختـار حـر وهـو الـذي يفعل أفعاله ، ويعرض لفرقة الشيعة التي قالت بالإمامة [1].

ويعرض أدونيس أصول الحركة الشعرية فيرصد التحول في تجربتين: الأولى التجربـة الذاتيـة الـتي تغلّـب عـا لم العواطـف والرغبـات والأهـواء علـى العا لم الخارجي، والثانية هي التجربة السياسية الأيديولوجية التي توحّد بين الشعر والفكر، ويعرض لنماذج من شعراء التجربتين.

ثم ينتقل في الكتاب الثاني إلى تأصيل الأصول فيرى أنّ الشـافعي رحمـه الله هـو الـذي أصّـل الأصـول الدينيـة – السياسـية في مجـال الاتبـاع،

---

[1] المرجع السابق ، ج1 ص193-197 .



ويرى أنّ الأصمعي والجاحظ أصّلا الأصول البيانية الشعرية في مجال الاتباع أيضاً، ثم ينتقل إلى تأصيل الإبداع فيرى أنّ ثورة الزنج والحركة القرمطية أصلتا للإبداع وأنهما ألغيتا الملكية الخاصة.

ويرى أدونيس أنّ ابن الراوندي وجابر بن حيّان ومحمد بن زكريا الرازي أصّلوا للإبداع في مجال اعتماد العقل وإبطال النبوة!!! فينقل أن ابن الراوندي انتقد المعجزة!!! وانتقد منهج النبي في الفكر والعمل!!! وانتقد إعجاز القرآن وكان يرى أنّ كلام أكثم بن صيفي أفصح من القرآن الكريم!!! [1].

ثم يتحدث أدونيس عن موقف الرازي من الدين وينقل نقده للنبوة وينتهي إلى نفي النبوة كمبدأ وظاهرة والاكتفاء بالعقل!!! كما ينقل نقده لسائر الأديان وإبطالها، ثم ينقل آراءه في نقد الكتب المقدسة وإبطالها!!! وهو يعتبر أنّ القرآن متناقض وينكر أن يكون القرآن معجزة أو حجّة!!! وهو يرى أنّ الإعجاز والحجّة يتمثلان في الكتب العلمية!!! [1].

---

[1] الثابت والمتحول، أدونيس، ج2 ص74-76 .

[1] المرجع السابق ، ج2 ص80-85 .



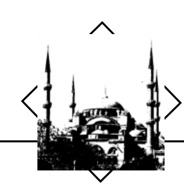
ثم ينقل أدونيس موقف المعتزلة الذي يقوم على تقديم العقل على الشرع، وأدى تقديم العقل على النقل عند المعتزلة إلى التوكيد على إرادة الإنسان وحريّته، وأدى إلى اعتقادهم أنّ اللغة اصطلاح ووضع وليست توقيفاً أو وحياً [2].

ويصنّف أدونيس التصوّف في مجال الابداع!!! ويبيّن أنّ التجربة الصوفية تنطلق من القول أنّ الوجود باطن وظاهر، وأنّ الوجود الحقيقي هو الباطن. وقد ترتبت على هذا المنطق نتائج كثيرة، وبخاصة فيما يتعلق بالمعرفة ومنهجها، والصلة بين الإنسان والله، استلزمت فهم القرآن فهماً جديداً، لم تعتمد في فهمها هذا المنطق أو العقل، ولم تعتمد الشريعة، إنما اعتمدت الذوق وليس في الذوق حدود، وهو يتجاوز الأمر والنهي لأنه هو البداية التي تمحو كل أمر ونهي!!! وحين يكون بين الحقيقة والشريعة تناقض، فإن الشريعة هي التي يجب أن تؤول بمقتضى الحقيقة .

وتنتهي التجربة الصوفية بالفناء بالله، لقد نقلت الصوفية تجربة الوجود والمعرفة من إطار العقل والنقل إلى إطار القلب، فلم يعد الوجود

---

[2] المرجع السابق ، ج2 ، ص87 .

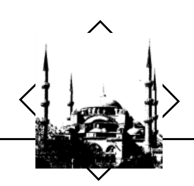


مفهومات ومقولات مجردة، وبطلت المعرفة أن تكون شرحاً لمعطى قبلي أو تسليماً بقول موحى [1].

ويمثّل أدونيس على الإبداع في الشعر بنموذجين هما: أبونواس وأبوتمّام، ويبرز مجون أبي نواس ويبرز إصراره عل فعل الذنوب، وانتهاك المحرّم الذي يعني خروجاً على الله، ويبيّن تعلّقه بالخمرة وتقديسه لها، ويوضح كيفية ربط الخمرة بجميع الأشياء، ويوضح أنّ شعر أبي نواس ينطلق من أولية التجربة، في حين أنّ أبا تمام ينطلق من أولية اللغة الشعرية.

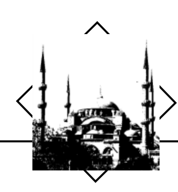
---

[1] المرجع السابق ، ج2 ، ص87 .



☾ ☾ ☾

نلاحظ من خلال استعراضنا لما كتبه أدونيس أنه يهوّن ويستخف بالثوابت التي تقوم عليها الأمّة، ويعلي من شأن الحركات والأشخاص الذين خرجوا على هذه الثوابت، فهو مجّد ابن الراوندي والرازي اللذان أبطلا النبوة، ونفيا إعجاز القرآن، كما أعلى من شأن الحركات الباطنية التي حاولت هدم كيان الأمّة كالحركات القرمطية والزنجية إلخ...، ليس من شكّ بأنّ هذا الموقف في إعلاء وتمجيد وامتداح كل ما هو مناقض لثوابت الأمّة من قرآن ووحي ونبوّة ولغة عربية ساهم في زعزعة كيان الأمّة، وفي خلخلة وجودها بصورة من الصور.



2- محمد شحرور ودوره في التشكيك في ثوابت الأمّة:

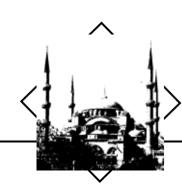
ألّف الدكتور محمد شحرور كتاباً ضخماً (819) صفحة سمّاه "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة" وقد احتوى هذا الكتاب كمية من المغالطات والآراء الشاذّة والتشكيكات ربما لم يحوها أيّ كتاب آخر، وأنا سأحاول أن أرصد ما احتواه هذا الكتاب من تجاوزات على الدين والشرع والثوابت كنموذج آخر على ما أفرزته هذه المرحلة من جرأة على الدين والقِيَم والمثل الإسلامية.

وأود أن أنبه منذ البداية أنني لا أستطيع أن أرد على كل الأخطاء التي وردت في الكتاب وذلك لضخامة حجمه الذي يبلغ (819) صفحة من جهة، ولكثرة الموضوعات التي تحدث عنها الكاتب من جهة ثانية، ولكني سأرد على بعض النقاط التي أراها أكثر خطورة من غيرها، والتي يتّسع المقام للرد عليها .

استعرض الدكتور محمد شحرور في بداية كتابه منهجه الذي أقام بناء كتابه عليه وهو اعتماد المنهج اللغوي في تحديد معاني الألفاظ، واعتماد عدم وجود الترادف في اللغة مستنداً على نظرية أبي علي الفارسي، وقد أحسست من دراستي للكتاب بأنه يظن أنه أول المكتشفين



لهذا المنهج، ولكن الحقيقة أن المعتزلة سبقوه إلى هذا المنهج معتمدين على قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾ (إبراهيم)، فأوقعهم هذا المنهج في ضلالات متعددة أبرزها حصرهم معنى الكلمة بالمعنى اللغوي وحده، وقد ردَّ ابن تيمية عليهم معتمداً على منهج أهل السنّة في النظر إلى هذه الألفاظ، فبيّن أنّ بعض الألفاظ مثل: الإيمان، الصلاة، الكفر إلخ... نقلها الشرع من معناها اللغوي وأعطاها معنى آخر، فأصبحت مصطلحاً محدّداً وضّحه القرآن والسنّة توضيحاً كاملاً، فمثلاً لفظ الإيمان يعني لغة التصديق لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ (يوسف،17) بمعنى وما أنت بمصدّق لنا، لكنه يعني في الشرع الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر، ويعني الإيمان بالله بصفاته التي وردت في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وكذلك قل بالنسبة لبقية الأركان التي دخلت في مسمّى الإيمان، وقد أجمل بعض علمائنا تعريف الإيمان فقالوا: الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان.

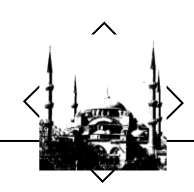


وقد نتجت فروق رئيسية بين الإيمان عند المعتزلة وعند أهل السنّة نتيجة الخلاف في منهج التعامل مع كلمة الإيمان أبرزها: إدخال أهل السنّة العمل في مسمّى الإيمان وبالمقابل عدم إدخال المعتزلة له، فشتان ما بين الإيمان لغة واصطلاحاً.

وكذلك الصلاة في اللغة تعني الصلة والدعاء، لكن الصلاة في الشرع أصبحت مصطلحاً يدل على أعمال منها: القيام، والركوع، والسجود، وقراءة الفاتحة، والتسبيح إلخ ...، ويجب أن يسبق تلك الأعمال شروط منها: طهارة البدن، وطهارة الثياب، وطهارة المكان، ودخول الوقت إلخ...، ويجب أن يرافق ذلك أعمال قلبية منها: الخشوع، والاطمئنان، والتعظيم، والتذلّل إلخ... فشتان ما بين الصلاة لغة واصطلاحاً.

والآن بعد هذا التوضيح لمنهج أهل السنّة في التعامل مع المصطلحات الشرعية واختلافه مع منهج المعتزلة، نعود إلى مناقشة الدكتور شحرور ونشير إلى الأمور التالية:

1- كرّر الدكتور محمد شحرور خطأ المعتزلة في عدم التمييز بين المصطلحات والألفاظ، فالألفاظ التي تعرض لها الدكتور مثل: الكتاب،



والقرآن، والنبي، والرسول، وأم الكتاب، والسبع المثاني إلخ... لم تعد ألفاظاً تحتاج إلى أن نستقرئ معناها اللغوي في المعاجم، بل علينا أن نستقرئ معناها في مصادر الشرع، لذلك فإنّ كل الفروقات والتمييزات والمعاني التي حاول أن يستنبطها الدكتور شحرور من معاني الألفاظ المعجميّة وحدها إنما هو أمر لا طائل تحته، وكل النتائج التي بناها على التفريق بين الكتاب والقرآن، وأنّ القرآن هو الآيات المتشابهات والسبع المثاني إلخ... نتائج غير صحيحة لأنّ الشرع هو الذي حدّد مضمون هذه الألفاظ، وعلى كل من يريد أن يفهم الدين عليه أن يلِجَه من باب مصطلحاته الخاصة التي رسمها وحدّد معناها، وفي تقديري إنّ مثل هذه الخطوة طبيعية وهي من حق كل مذهب وعلم ودين أن يحدّد مصطلحاته الخاصة التي تكون مدخلاً له.

2- حمّل الدكتور شحرور بعض الألفاظ معاني لا تسمح بها اللغة ولا سياق النص، ومن أمثلة ذلك تفسيره عبارة أم الكتاب التي وردت في ثلاث آيات كريمة برسالة محمد ﷺ وأضاف إلى ذلك تحديد مضمون تلك الرسالة وهي الحدود والأخلاق والعبادات وتعليمات خاصة وعامة، ولو فسّرنا كلمة "أم الكتاب" معجميّاً لوجدناها تعني "أصل الكتاب"، ولو استقرأنا الآيات التي وردت فيها تلك العبارة لوجدنا أنها تحتمل معنيين :



الأول : الآيات المحكمات. وذلك لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (آل عمران) وقد فصّلت كتب علوم القرآن تعريف المحكم وتعريف نقيضه المتشابه.

الثاني: اللّوح المحفوظ: وذلك لقوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرعد)، ولقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (الزخرف).

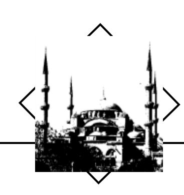
وفي كلا الحالين يتّضح تحميل الدكتور شحرور للفظ "أم الكتاب" معاني لا يحتملها التحليل اللغوي ولا سياق النّص، وممّا يزيد في اعتسافه أنه حدّد الآيات المحكمات بالحدود والأخلاق والعبادات، لكنّه يمكن أن تكون الآيات المحكمات في صفات الله تعالى، أو بعض آيات الجنّة والنّار إلخ... كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ (الصمد)، وكقوله تعالى:



﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾ (الصمد)، وكقوله تعالى عن الجنّة: ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ (فاطر،35) إلخ...

3- اعتسف الدكتور شحرور في التفسير اللغوي لبعض الألفاظ، فهو قد اعتبر قول القائل "سبحان الله" إقراره بقانون هلاك الأشياء -ما عدا الله- نتيجة التناقض الذي تحويه داخليّاً، وهو قد استهزأ بكل التفسيرات التي تعتبر قول المسلم "سبحان الله" بمعنى تنزيه الله عن كل نقص وعيب، ووصفه -تعالى- بكل صفة كمال، وكانت حجّته في ذلك أنّ النقائص والعيوب تحمل مفهوماً نسبيّاً، ولا أدري ما الذي يضير المعنى عندما ينزّه المسلم الله عن كل عيب مطلق أو نسبي؟! ولكن هناك قضية أخرى بالإضافة إلى اعتساف الدكتور في مجال المعنى هي أنّ عبارة "سبحان الله" تتألّف من مضاف ومضاف إليه، والتي تعني إضافة شيء إلى ذات الله، والواضح أنّ صيغتها النحوية لا تسمح بتفسيرها إلا بالمعنى الذي قال به علماء التفسير وهو إضافة التنزيه لذات الله، ولا تسمح صيغتها النحوية بالمعنى الذي ذهب إليه الدكتور شحرور.

ومما زاد في خطأ استنتاجه وأحكامه في أحيان كثيرة رفضه للسنّة كمبيّن ومقيّد ومفصّل لآيات القرآن الكريم، ليس هذا فحسب بل اعتباره



تطبيق الرسول ﷺ للإسلام هو اجتهاده غير الملزم لنا في شيء، وهو فهمه الخاص المرتبط بالمستوى المعرفي للجزيرة العربية، وهو فهم نسبي، وهو في هذا يلتقي مع كثير من الفئات المنحرفة التي عادت السنّة المشرفة قديماً كالمعتزلة والخوارج، ويلتقي مع كثير من الشخصيات التي هوّنت من شأن السنّة حديثاً ودعت إلى طرحها جانباً: كحسين أحمد أمين، ومحمد أبو القاسم حاج حمد إلخ...

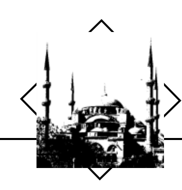
وليس من شك بأنّ هذه الأقوال في التهوين من شأن السنّة المشرّفة والدعوة إلى طرحها جانباً، تتناقض تناقضاً كاملاً مع أمر الله تعالى في عشرات الآيات الكريمة من القرآن الكريم بطاعة الرسول ﷺ إلى جانب طاعته سبحانه وتعالى، وقد أشار إلى جانب من ذلك الشافعي -رحمه الله- في بداية كتاب "الرسالة"، والتي تساءل فيها: من أين لنا أن نستدل على لزوم طاعة الرسول ﷺ ؟ فأجاب بأن القرآن هو الذي وجّهنا إلى ذلك، وأوجب علينا ذلك، واستشهد بالآيات التي أمرت بطاعة الرسول ﷺ ومنها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء،59) ، ومنها: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء،80)، ومنها: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ



عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (الحشر ،7)، ومنها: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ﴾ (النور، 51) إلخ...

إنّ النظر إلى القرآن وحده دون الأخذ بالسنّة معه هو الذي جعل الكاتب يخرج علينا بتفاسير غريبة لبعض الآيات الكريمة أو بعض المعاني القرآنية: كالقيامة والبعث والصور والساعة والسّبع المثاني إلخ...، وسأمثّل لذلك بمثال واحد هو تفسيره للسّبع المثاني التي أورد ما جاء عن أصلها في مقاييس اللغة فقال: (المثناةُ: طرف الزمام في الخشاش) وإنما يثنى الشيء من أطرافه، فالمثاني إذاً أطراف السور وهي إذن فواتحها، فتوصّل إلى أنّ السبع المثاني هي سبع فواتح للسور، فإذن السبع المثاني هي الفواتح التالية: 1- ألم 2- ألمص 3- كهيعص 4- يس 5- طه 6- طسم 7- حم .

ثم نظر إلى الأحرف التي تتضمنها الآيات السبع السابقة فوجدها تتألف من 11 حرفاً، وأخذ الأحرف التي وردت في بداية سور أخرى ولم ترد في الفواتح السابقة فوجد أنها ثلاثة هي:



1- القاف 2- الراء 3- النون . نجمعها مع الأحرف السابقة فصارت أربعة عشر حرفاً، وأشار إلى أنها أصبحت (7 × 2) وهي أيضاً سبع مثان.

وربط بين ما توصّل إليه وهو أنّ أحرف السور الفواتح بلغت أحد عشر حرفاً وبين قول علماء اللغويات واللسانيات من أنّ الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم هو أحد عشر صوتاً، واعتبر أنّ هذا هو الحد الأدنى اللازم من الأصوات لأي تفاهم بيننا وبين أية مخلوقات يمكن أن توجد في الكواكب الأخرى في المستقبل.

هذا ما أورده الدكتور شحرور في تفسيره للسبع المثاني، ولنر ما ورد في السنّة عن تفسير السّبع المثاني لنر مدى ابتعاده عن الصواب لغة وشرعاً وعقلاً.

قال الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال: "مرّ بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أُصلّي فدعاني فلم آته حتى صلّيت، ثم أتيتُ فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلّي فقال: ألم يقل الله: "يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما



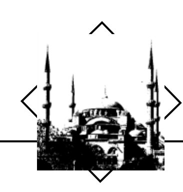
يُحييكم" (الأنفال،24) ثم قال: ألا أُعلّمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد. فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكّرته فقال: "الحمد لله رب العالمين" هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته" [1]. وقد وردت بعض الروايات تفسّر الفاتحة بالسّبع المثاني فقط.

والآن: هل بعد تفسير الرسول ﷺ للسّبع المثاني من تفسير؟

لا أظن أنه يجوز لمسلم بعد أن يسمع تفسير الرسول ﷺ أن يتطلع إلى تفسير آخر، وأحب أن أُنوّه بالإضافة إلى ما سبق إلى أنّ تفسير السنّة للسّبع المثاني أصوب من ناحية لغويّة مما ورد عند الدكتور شحرور لأنه اختار كلمة مثناة وترك الأصل ثني، وقد جاء في مقاييس اللغة عن الأصل ثني ما يلي:

"الثاء والنون والياء أصل واحد وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين" والحقيقة إنّ هذا التعريف اللغوي أكثر انطباقاً على الفاتحة وهو أصل المعنى لأن الفاتحة سبع آيات تتكرّر وتثنى في كلّ صلاة، لذلك لم يأخذ به الدكتور شحرور واختار كلمة أخرى هي "المثناة"

[1] حديث صحيح، أخرجه البخاري (302/14).



ليجعلها أصلاً في دراسته، وليصوغ النتيجة التي يريد أن يتوصّل إليها وهي مطابقة الأحرف في فواتح السور مع أصل الأصوات في اللغات الإنسانية.

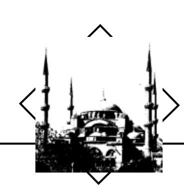
وقد انتبه خيار الصحابة إلى أنّ فهم القرآن الكريم دون ربطه بالسنّة قابل لكل التفسيرات، لذلك وجّه علي بن أبي طالب عبد الله ابن عبّاس رضي الله عنهما أن يحاجج الخوارج بالقرآن الكريم والسنّة المشرفة معاً عندما أرسله لمناقشة الخوارج فقال له: لا تحاججهم بالقرآن وحده فإنّ القرآن حمّال أوجه، حاججهم بالسنّة.

حرص الدكتور محمد شحرور على فتح ثغرة في فهم المسلمين للنص القطعي الثبوت القطعي الدلالة، وهو في هذا يلتقي مع عدد من الكتّاب الذين يركّزون على فتح هذه الثغرة في هذا الوقت من أمثال: عادل ضاهر، وحسين أحمد أمين، ونصر أبو زيد، ومحمد سعيد العشماوي إلخ... وكل كاتب تناول بعضاً من هذه الآيات، فنصر أبو زيد تناول آيات صفات الله تعالى، وأحمد أمين تناول آيات الحدود، ومحمد سعيد العشماوي تناول آيات الحجاب والمرأة، وعادل ضاهر تناول النص القطعي الثبوت القطعي الدّلالة بشكل عام وضرورة فهمه فهماً جديداً مبايناً لكل الأفهام السابقة، وكل واحد منهم دعا إلى أن نطوّر فهمنا لهذه



الآيات القطعية الثبوت القطعية الدلالة، ودعوا إلى عدم التوقف عند فهم الرسول والصحابة وعند فهم علماء المسلمين هذا الفهم الذي استمر على مدار ألف وأربعمائة عام بل يجب أن نفهمها على ضوء معطيات العصر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وحشد كل منهم حججه الخاصة، ولكن قبل أن أستعرض حجج الدكتور محمد شحرور أود أن أنبه إلى خطورة الانسياق في هذه الدعوة التي تنتهي إلى مسخ الدين، وجعله أُلعوبة بيد أصحاب الأهواء، وينتهي حينئذ ديننا إلى ما انتهت إليه الأديان السابقة بأن يكون مبرراً لكل انحرافات البشر وتابعاً لانحدارهم.

تناول الدكتور محمد شحرور كل النصوص القطعية الثبوت القطعية الدّلالة تقريباً فهو تناول آيات الحدود وآيات الربا وآيات الميراث وآيات الطلاق والزواج إلخ... المهم أنه انتهى من تناوله لكل الآيات السابقة إلى فهمها فهماً جديداً مخالفاً لكل الأفهام التي طرحت سابقاً، فهو بالنسبة للربا حرّم ربا أضعاف المضاعفة، وبالنسبة لآيات الميراث أباح التلاعب بالأنصبة التي حدّدها الشرع لكل فرد من أفراد الأسرة، وبالنسبة لتعدد الزوجات أباحه من الأرامل ذوات الأولاد، وبالنسبة لمعالجة الزوجة الناشز فقد ألغى بعض مراحل معالجة نشوزها إلخ...



وقد استند كل مَنْ تناول النص القطعي الثبوت القطعي الدّلالة على شبهة تطور المحيط البشري، فهناك الجديد المتطور باستمرار في العلم والأدوات والأشياء والوسائل إلخ...، وبالتالي يجب أن يكون هناك تطور بالأحكام مرافق للتطور المحيط بنا، ولكن نسي أولئك القائلون بذلك القول أنّ هناك أشياء ثابتة في كيان الإنسان إلى جانب الأشياء المتطورة والمتغيرة التي أشاروا إليها، وإنّ الإسلام عندما وضع آيات الحدود والميراث والزواج والطلاق والمرأة إلخ... ربطها بالجانب الثابت من الكيان الإنساني، فهناك التجاذب بين الذكر والأنثى، وهناك الأسرة، وهناك شهوة المال، وشهوة النساء، وشهوة الانتقام إلخ... وهي أمور ثابتة إلى قيام الساعة فلابد من حدود ثابتة مرتبطة بها، فكانت تشريعات الزواج والطلاق والميراث وأحكام الأسرة وحدود السرقة والزنى والقتل.

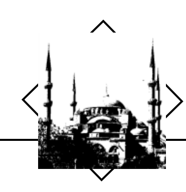
وإنّ أكبر دليل على أنّ الإسلام دين الله العليم الخبير هو أنه راعى الثابت والمتحوّل في الكيان الإنساني والحياة البشرية، فأنزل الشرائع الثابتة للجوانب الثابتة في كيان الإنسان، وأعطى أُطراً عامة للأمور المتحولة في حياة الإنسان، فالإسلام مثلاً أعطانا أحكاماً عامة محدودة في مجال الحياة الاقتصادية فحرّم الربا وأحلّ البيع وأوجب الزكاة وفرض الميراث ولم يلزمنا



بزراعة معيّنة ولا بطرق زراعيّة معيّنة ولا بمواد معيّنة ولا بتجارة معيّنة ولا بصناعة معيّنة إلخ... إنما ترك ذلك لظروف الزمان والمكان.

ولقد حدّثنا القرآن عن أمور غيبيّة متعددة، فحدثنا الله تعالى عن ذاته وعن الجنّة والنار والملائكة وخلق الإنسان وخلق الكون إلخ...، ومن الواضح أنّ قوانين عالم الغيب لا تنطبق بحال على عالم الشهادة، وإن معظم الضلال الذي وقع فيه الفلاسفة والمعتزلة جاء من قياس عالم الغيب على عالم الشهادة وسحب قوانين الشهادة على عالم الغيب، وقد وقع الدكتور شحرور في هذا الخطأ، ومن أمثلة هذا قياسه كلام الله على كلام البشر، لذلك تخيّل أنّ القرآن الموجود في اللوح المحفوظ لابد له من الانتقال إلى صيغة لسانية عربية قبل إنزاله على محمد ﷺ ليلة القدر وهي ليلة إشهار القرآن الكريم في نظره.

ولكن هذا القرآن الكريم الذي تكلّم الله به والذي كان موجوداً في اللوح المحفوظ، لا نعرف الكيفية التي تكلم الله بها لأننا نجهل ذات الله وبالتالي لا نستطيع أن نخوض في هذه التفصيلات لأنها ستكون بلا سند شرعي أو عقلي.



دندن الدكتور شحرور كثيراً على الجبريّة في فهم القضاء والقدر، مع أنّ المسلمين الأوائل لم يفهموا القضاء والقدر بحال من الأحوال على أنّه السلبية والتواكل وسلب الإرادة، بل فهموا القضاء والقدر على أنه الإيجابية نحو الأحداث، والأخذ بالأسباب وثمّ التوكل على الله، كذلك كان فهم القضاء والقدر بتلك الصورة عاملاً إيجابياً في بناء الشخصية المسلمة على مدار التاريخ، وفي دفعها إلى الفعل والبناء وإعمار الكون، وجاء الدَخَن الذي دخل فهم المسلمين للقضاء والقدر من ثقافات خارجية وأبرزها التصوف الذي رسّخ السلبية، ودعا إلى إسقاط التدبير والانشغال بالذات وترك الخلق للخالق.

وقد تجاوز المسلمون هذا الفهم الخاطئ للقضاء والقدر في العصر الحديث، وجاء ذلك نتيجة عاملين:

الأول: إبراز معظم المصلحين أوجه القصور في فهم القضاء والقدر الذي ورثناه في العصور المتأخرة، وإبراز الصورة الصحيحة لما يجب أن يكون عليه الإيمان بالقضاء والقدر.

الثاني: انحسار موجة التصوف التي كانت سبباً في رواج الفهم الخاطئ للقضاء والقدر.



لذلك فإني أرى أنّ دندنة الدكتور شحرور حول القضاء والقدر ليست في محلّها بعد أن تجاوز المسلمون هذه الظاهرة في وقتنا الحاضر.

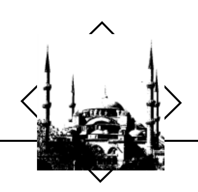
اعتمد الدكتور محمد شحرور على عقله وحده في تفسير كثير من الآيات الكريمة فجاء بعجائب من التفسير، وهو أمر طبيعي لكل من اعتمد على العقل وحده دون المزاوجة بين العقل والنقل في فهم الآيات وتفسيرها، ودون الاعتماد على المأثور من الأقوال، ونستطيع أن نمثّل على مقولتنا بآيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر) فسّر النذير بالملاك، وقرّر أنّ الله كان يرسل ملائكة إلى البشر قبل نوح عليه السلام الذي اعتبره أوّل رسول إلى البشر، وزعم أنّ قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الشعراء)، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القمر) يعني أنّ تلك الأقوام كذّبت بنبيّهم وبالملائكة الذين أرسلوا إلى البشر يكلّمونهم ويدعونهم، ورفض التفسير الذي ذكرته معظم التفاسير وهو أنّ الله سبحانه بيّن أنّ تكذيب رسول واحد يعني تكذيب جميع رسله، لذلك جاءت كلمة الرسل بالجمع وليس بالمفرد لتشير إلى هذا المعنى.



الثانية: قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (القصص،88) فسّرها بأنّ هذا الكون يحمل تناقضاته، وأنّ المادة تحمل تناقضها معها، لذلك فإنّ هذا الكون سيتدمّر وسيتبدّل وسيهلك، ولكن هلاكه سيحوّله إلى مادة أخرى، وهذا هو تفسيره ليوم القيامة، وهو يعتبر أنّ الجنّة والنار غير موجودتين وستوجدان عند تحوّل هذا الكون إلى مادة أخرى، وهو في هذا يرفض الأحاديث الشريفة التي قرّرت وجود الجنّة والنار، ولا أريد أن أسرد عشرات الآيات والأحاديث التي تدحض تفسيره للآية السابقة، ولكنّي أريد أن أسأله بمنطقه اللغوي الذي اعتمده: كيف يمكن أن يوفّق بين المدلول اللغوي للآية الكريمة السابقة وهو الذي يعني بكل بساطة فناء المخلوقات الأخرى وهلاكها وبين تحوّلها إلى مادة أخرى؟ فأين هو إذن الهلاك للمادة؟

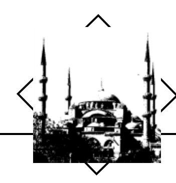
التأويل أحد مباحث علوم القرآن، ويحتوي على عدة أقسام مقبولة منها: التأويل بمعنى تحقيق الشيء، ومنها: التأويل بمعنى التفسير، ولكن علماءنا حذّروا من أحد أقسامه التي تقوم على صرف ألفاظ الآية المؤوّلة عن المعنى الراجح إلى معنى مرجوح لا تسمح به اللغة، وقد جاء تحذيرهم ذلك نتيجة استخدام الفِرَق المنحرفة له في خدمة أهوائها وضلالاتها، ولأنه



أدّى إلى ضياع حقائق الدين ومعالمه التي رسمها محمّد ﷺ، فهل أخذ الدكتور شحرور بهذا التأويل؟ نعم لقد أخذ به، ليس هذا فحسب بل دعا وقَنَّن له، ولن أعرض لكل تلك التأويلات لكن سأعرض لواحد منها.

قال تعالى في سورة الفجر: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ ﴾ (الفجر)، فسّر الدكتور شحرور الآيات السابقة بما يلي:

"فالخلق الأول بدأ بانفجار كوني هائل حيث قال: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ ﴾ (الفجر) حيث إنّ الفجر هو الانفجار الكوني الأول، "وليال عشر" معناه أنّ المادة مرّت بعشر مراحل للتطوّر حتى أصبحت شفّافة للضوء، لذا أتبعها بقوله "والشفع والوتر" حيث أنّ أول عنصر تكوّن في هذا الوجود وهو الهيدروجين وفيه الشفع في النواة والوتر في المدار، وقد أكّد هذا في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (هود،7) والهيدروجين هو مولّد الماء، أي بعد هذه المراحل العشر أصبح الوجود قابلاً للإبصار



لـذا قــال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾ (الأنعام)" [1].

ليس من شك بأنّ الدكتور شحرور قد ابتعد في متاهات التأويل عندما فسّر الفجر بالانفجار الكوني الأول، وفسّر الليالي العشر بمراحل تطوّر المادة العشر، وفسّر الشفع والوتر بغاز الهيدروجين لأنّ معطيات السورة لا تسمح بمثل هذا التأويل، ولو أقررناه على تأويله لأعطينا الفرصة لكل صاحب بدعة أن يُطوّع آيات القرآن حسب بدعه وهواه.

والآن: بعد هذا العرض السريع لبعض تجاوزات الدكتور شحرور وضلالاته وانحرافاته لا نستطيع إلا أن نقول إنّ الكتاب جاء هدماً لكثير من أركان وأُسس ومنطلقات الفكر الإسلامي والدين الإسلامي.

---

[1] الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، محمد شحرور، ص235 .



نظرة على مجمل القراءات الحداثية المشككة في ثوابت الدين الإسلامي:

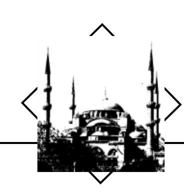
تتنوّع القراءات الحداثية للدين الإسلامي، فبعضها يريد أن يلغي القداسة والغيب عن القرآن الكريم بقصد أن يصبح القرآن الكريم كالنصوص الأخرى، وبعضها يريد أن يلغي اعتبار القرآن نصاً موحى به ويريد أن يحكّم العقل في كل آياته فيأخذ ما يوافق العقل ويعتبر ما يخالف العقل أموراً تاريخية، وبعضها يريد أن يعتبر آيات الحدود الثابتة إنما هي أحكام تناسب فترة تاريخية معيّنة ولا تصلح لأيام أُخَر، وقد تحدّث الدكتور طه عبد الرحمن عن كل هذه القراءات في محاضرة له، وقد نَقَلَت مضمونها مجلة "المنطلق الجديد"[1] وها نحن نعتمد عليها في نقل آرائه في هذا المجال لشمولها كل محاولات التشكيك:

1- خطة التأنيس أو الأنسنة:

حسب تصنيف المحاضر، تجسّد خطة التأنيس أو (الأنسنة) الخطة الأولى التي تنبني عليها القراءة الحداثية، وتستهدف رفع عائق القدسية،

---

(1) مجلة المنطلق الجديد، العدد التاسع، 2006م، ص25 .



ويتمثّل هذا العائق في الاعتقاد بأنّ القرآن الكريم كلام مقدّس وآلية هذه الخطة في إزالة هذا العائق هي نقل الآيات القرآنية من الوضع الإلهي إلى الوضع البشري، ويتمّ هذا النقل إلى الوضع البشري بواسطة عمليات منهجية خاصة، نذكر منها ما يلي:

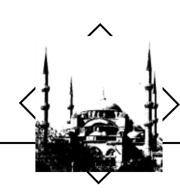
- حذف عبارات التعظيم، فالقراءة الحداثية تقوم بحذف العبارات التي يستعملها جمهور المؤمنين في تعظيمهم لكتاب الله مثل "القرآن الكريم" أو "القرآن العزيز" أو "القرآن الحكيم" أو "القرآن المبين" أو "الآية الكريمة" أو "قال الله تعالى".
- استبدال مصطلحات جديدة بأخرى مقررة، حيث يعمد القارئ الحداثي إلى استعمال مصطلحات يضعها من عنده مكان مصطلحات متداولة كأن يستعمل مصطلح "الخطاب النبوي" مكان مصطلح "الخطاب الإلهي"، ومصطلح "الظاهرة القرآنية" أو "الواقعة القرآنية" مكان مصطلح "نزول القرآن".
- التسوية في رتبة الاستشهاد بالقول، وذلك عبر قيام القارئ الحداثي بإنزال الأقوال البشرية منزلة الآيات القرآنية في الاستشهاد، كأن يصدّر فصول كتبه بآيات قرآنية مقرونة بأقوال لدارسين من غير المسلمين، بل غير مؤمنين.



- التفريق بين مستويات مختلفة في الخطاب الإلهي، عبر تفريق القارئ الحداثي بين الوحي والتنزيل، ويفرّق بين الوحي والمصحف، ويفرّق بين القرآن والمصحف، ويفرّق بين القرآن الشفوي والقرآن المكتوب.
- المقارنة بين القرآن والنبي عيسى عليه السلام، حيث يرى القارئ الحداثي أنه كما أنّ كلمة الله تجسّدت في عيسى بن مريم، فكذلك كلام الله تجسّد في القرآن، وعلى هذا، فلمّا كان المسلمون ينفون عن السيد المسيح الطبيعة الإلهية ويثبتون له الطبيعة الإنسانية، فقد وجب عليهم، حسب ظنه، أن ينفوا عن القرآن الطبيعة الإلهية ويثبتوا له الطبيعة البشرية.

والحال أنّ تطبيق هكذا عمليات منهجية تأسيسية يؤدّي إلى جعل القرآن نصّاً لغوياً مثله مثل أيّ نص بشري، وعرضة لكل التبعات الفجة التي تترتب على هذه المماثلة اللغوية، ويلخّصها طه عبد الرحمن في النتائج التالية:

- السياق الثقافي للنص القرآني، فالنص القرآني عبارة عن نص تم إنتاجه وفقاً لقوانين الثقافة التي تنتمي إليها لغته، ولا يمكن أن يُفهم أو يُفسّر إلا بالرجوع إلى نظام هذه الثقافة.
- الوضع الإشكالي للنص القرآني، ومعلوم أنّ النص القرآني نص إجمالي وإشكالي ينفتح على احتمالات متعدّدة ويقبل تأويلات غير متناهية،



ولا ميزة لتأويلٍ على غيره، فضلاً عن أن يدعي أحدها حيازة الحقيقة أو الانفراد بها.

- استقلال النص القرآني عن مصدره، حيث ينفصل النص القرآني عن مصدره المتعالي ويرتبط كلياً بالقارئ الإنساني، لذلك فلا يقين في إدراك المقاصد الحقيقية للمتكلّم المتعالي، ولا داعي إلى طلب المدلول الأصلي لكلامه، وكل ما يقتنصه القارئ من النص القرآني إنما هو حصيلة الاستنطاق الذي يمارسه عليه من خلال مرجعيته الثقافية وخلفيته المعرفية ووضعيته الاجتماعية والسياسية.
- عدم اكتمال النص القرآني، لأنه يبدو نصاً غير مكتمل، إذ أنه لا يرفع احتمال وجود نقص فيه يتمثّل في حذف كلام منسوب إلى المصدر الإلهي، كما لا يرفع احتمال وجود زيادة فيه تتمثّل في إضافة كلام منسوب إلى مصدر غير إلهي.

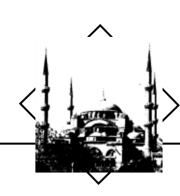
2- خطة التعقيل أو العقلنة:

وعلى غرار خطة الأنسنة، هناك خطة ثانية، لها هدف ولها آليات تنسيقية وضمن هذه الآليات التنسيقية ثمة مجموعة من العمليات، ويترتب عن هذه العمليات مجموعة من النتائج. يتعلّق الأمر هذه المرّة بخطة التعقيل أو (العقلنة) التي تنبني عليها القراءة الحداثية، وتستهدف رفع عائق



الغيبية، ويتمثّل هذا العائق في الاعتقاد بأنّ القرآن وحي ورد من عالم الغيب، وآلية هذه الخطة في إزالة هذا العائق هي التعامل مع الآيات القرآنية بكل وسائل النظر التي توفّرها المنهجيات والنظريات الحديثة، ويتمّ هذا التعامل بواسطة عمليات منهجية خاصة يذكر منها د. عبد الرحمن ما يأتي:

- نقد علوم القرآن، حيث اشتغل القارئ الحداثي بنقد علوم القرآن على أساس أنّ هذه العلوم النقلية أصبحت تشكّل وسائط معرفية متحجّرة تصرفنا عن الرجوع إلى النص القرآني ذاته كما أنها تحول دون أن نقرأ هذا النص قراءة تأخذ بأسباب النظر العقلي الصريح.
- التوسل بالمناهج المقرّرة في علوم الأديان، فقد تمّ نقل مناهج علوم الأديان التي اتبعت في تحليل ونقد التوراة والأناجيل إلى مجال الدراسات القرآنية، منه علم مقارنة الأديان وعلم تاريخ الأديان وتاريخ التفسير وتاريخ اللاهوت.
- التوسل بالمناهج المقرّرة في علوم الإنسان والمجتمع، وذلك عبر إنزال مختلف مناهج علوم الإنسان والمجتمع على النص القرآني، لا سيما اللسانيات والسيميائيات وعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الإناسة.



- استخدام كل النظريات النقدية والفلسفية المستحدثة، ومن ينكر أنّ القارئ الحداثي لم يتردّد في الاستعانة بكل النظريات النقدية التي تسارع ظهورها في الساحة الأدبية والفكرية في النصف الثاني من القرن الماضي، متمثّلة في الجدليات والبنيويات والتأويليات والحفريات والتفكيكيات والاتجاهات الجديدة في النقد الأدبي وتحليل الخطاب.
- وأخيراً إطلاق سلطة العقل، عندما قرّر القارئ الحداثي أنه لا آية قرآنية تمتنع على اجتهاد العقل، بل لا توجد حدود مرسومة يقف العقل عندها ولا آفاق مخصوصة لا يمكن أن يستطلعها.

وكما تم مع تبعات خطة الأنسنة، يؤدّي تطبيق هذه العمليات المنهجية التعقيلية إلى جعل القرآن نصاً دينياً مثله مثل أيّ نص آخر، توحيدياً كان أم وثنياً، بتبعات لا تقل فجاجة عن التبعات الخاصة بخطة الأنسنة، وقد حصر المحاضر تبعات هذه المماثلة الدينية الخاصة بخطة العقلنة في النتائج التالية:

- تغيير مفهوم الوحي، حيث يرى القارئ الحداثي أنّ مفهوم "الوحي" المتداول والموروث عن التصوّر الديني التقليدي لم يعد من الممكن قبوله، وينبغي أن نستبدل به مفهوماً تأويلياً يسوغه العقل، صارفاً عن الوحي



ما لا يعقل من الأساطير والطقوس التي تقترن به، مكتفياً بجانبه المعنوي.

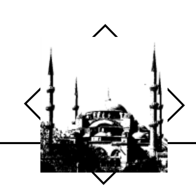
- عدم اتساق النص القرآني، فالحداثي يرى أنّ سور القرآن وآياته وموضوعاته وردت بترتيب يخلو من الاتساق المنطقي كما يخلو من الاتساق التاريخي.
- غلبة الاستعارة في النص القرآني، حيث يلاحظ الحداثي أنّ المجازات والاستعارات تطغى في النص القرآني على الأدلّة والبراهين، ويستنتج من ذلك أنّ العقل الذي ينبني عليه هذا النص هو أقرب إلى العقل القصصي الأسطوري منه إلى العقل الاستدلالي المنطقي، نظراً إلى أنّ إدراكاته العقلية لا تنفصل عن الخيال والوجدان.
- تجاوز الآيات المصادمة للعقل، حيث يقرّر الحداثي أنّ كل ما يصادم العقل في النص القرآني من حقائق أو وقائع لا يعدو كونه شواهد تاريخية على طور من أطوار الوعي الإنساني تمّ الآن تجاوزه.



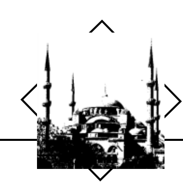
3- خطة التأريخ أو الأرخنة:

يختتم طه عبد الرحمن تصنيفه لخطط القراءات الحداثية بخطة ثالثة موسومة بخطة التأريخ أو (الأرخنة) وتستهدف رفع الحُكمية (بضم الحاء)، ويتمثّل هذا العائق في الاعتقاد بأنّ القرآن جاء بأحكام ثابتة وأزلية، وآلية هذه الخطة في إزالة هذا العائق هي وصل الآيات بظروف بيئتها وزمنها وبسياقاتها المختلفة، ويتم هذا الوصل بواسطة عمليات منهجية خاصة يورد منها ما يلي:

- توظيف المسائل التاريخية المسَلّم بها في تفسير القرآن، فهناك مسائل اشتغل بها قدماء المفسّرين تكشف عن دخول التاريخية على آيات الأحكام، وهي مسألة أسباب النزول ومسألة الناسخ والمنسوخ ومسألة المحكَم والمتشابه ومسألة المكي والمدني ومسألة التنجيم، فلقد وجد أهل القراءة الحداثية في هذه المسائل أدلة واضحة وأسباباً قوية لتعميق الوعي بالبُعد التاريخي الجدلي للآيات القرآنية وتحصيل المشروعية لممارسة النقد التاريخي على هذه الآيات، متجاوزين الحدود التي وقف عندها المفسرون والفقهاء، بل مبرزين تناقضات هؤلاء في الإقرار بوجود التاريخية والقول بوجوب الأزلية.



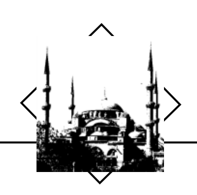
- تغميض مفهوم الحكم، حيث يحاول القراء الحداثيون أن يفصلوا بين الحكم وبين القاعدة والقانونية، فإذا كانت هذه القاعدة عبارة عن أمر صريح باتباع سلوك مضبوط في ظروف معيّنة تؤدي مخالفته إلى إنزال عقاب مخصوص بمخالفه، فإنّ الحكم الذي تتضمنه الآية القرآنية ليس كذلك، فإنه قد يأتي تارة بصيغة الأمر وتارة بصيغة الخبر، فلا نعرف على وجه اليقين مضمونه التشريعي، كما قد يتردّد بين أن يكون قراراً عاماً وأن يكون قراراً خاصاً، وبين أن يكون قراراً منسوخاً، كل ذلك يؤدي إلى اختلاف شديد في القيمة التشريعية لآيات الأحكام وصفتها الإلزامية.
- تقليل عدد آيات الأحكام، إذْ في نظر القراء الحداثيين أنّ آيات الأحكام التي لا تمثّل إلا نسبة محدودة من جملة الآيات القرآنية، تبقى متأثّرة بالأحوال والأوقاف الخاصة التي نزلت فيها، حتى إنّ أكثرها عندهم قد نُسخ وبعضها تجاوزه التاريخ بغير رجعة، لذلك دعوا إلى الاقتصار على أقل عدد ممكن من هذه الآيات قد لا يتعدّى الثمانين آية، نظراً لما يمكن أن يحمله المستقبل من أسباب التجاوز لهذه الآيات.
- إضفاء النسبية على آيات الأحكام، حيث يقرّرون أنّ آيات الأحكام لا تحيل على أسباب نزولها، متعلّقة معانيها بهذه الأسباب فحسب، بل



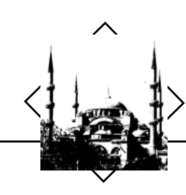
إنها تحيل أيضاً على تاريخ تفسيراتها المتعدّدة، فقد فهم المفسرون والفقهاء هذه الآيات فهوماً اختلفت باختلاف مشاغلهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في سياق الظروف التاريخية المتقلّبة للمجتمع الإسلامي.

- تعميم الصفة التاريخية على العقيدة، عندما يذهب أهل القراءة الحداثية إلى أنّ التاريخية لا تدخل على آيات الحدود والقصاص والمعاملات فقط، بل تدخل أيضاً على آيات العبادات، ذلك أنّ العقائد التي جاءت بها هذه الآيات تكون، بحسبهم، تابعة لمستوى المعرفة في العصر الذي نزلت فيه، وحينئذ، يكون القرآن قد اعتمد تصوّرات مرتبطة بدرجة الوعي لدى أولئك الذين توجّه إليهم خطابه، تصوّرات يكون بعضها عبارة عن تصوّرات أسطورية.

إذا كانت خطة التأنيس تسقطنا في المماثلة اللغوية، وخطة التعقيل تسقطنا في المماثلة الدينية، فإننا نسقط في مماثلة تأريخية مع خطة التأريخ، عبر جعل القرآن مجرّد نصوص تاريخية مثله مثل أيّ نصوص تاريخية أخرى، وتترتب على هذه المماثلة التأريخية النتائج التالية:



- إبطال المسَلَّمة القائلة بأنّ القرآن فيه بيان كل شيء، فأهل القراءة الحداثية يرون أنه علاوة على كون عدد آيات الأحكام ضئيلاً جداً بالمقارنة بغيرها، فإنّ كثيراً منها جاء خاصاً أو مقيّداً، إذ ارتبط بأشخاص أو بحوادث أو بأحوال أو بظروف يؤدي ذهابها إلى إسقاط العمل به، أمّا الأحكام التي يستنبطها الفقهاء من النص القرآني، ولما كانت اجتهادات بشرية مضافة إلى ما جاء فيه، فقد دلّت هذه الإضافة على أنّ النص القرآني لا يتضمّن تمام التشريع الإسلامي، وأمّا الآية التي يستشهد بها عادة في هذا الصدد، وهي الآية الكريمة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة،3)، فلا تدلّ عند الحداثيين على تمام التشريع، وإنما تدلّ على تمام التنزيل.
- تصبح آيات الأحكام نازلة منزلة توجيهات لا إلزام معها، فلا تعدو هذه الآيات، عند الحداثيين كونها توصيات لا قوانين، يستعين بها المسلم في حل المشاكل التي تعترض سبيله أثناء ممارسته لحياته الاجتماعية، لا سيما في تدبيره لأسرته، وكذا أثناء قيامه ببعض المعاملات الاقتصادية، ولم يستثن بعض الحداثيين من هذه الآيات إلا واحدة يعدونها ذات مدلول قانوني مدني، وهي "آية الربا" ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا



يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ ﴾ (البقرة،275).

- حصر القرآن في أخلاقيات الفرد الخاصة، ترد التوجيهات القرآنية، عند الحداثيين، في صورة مواعظ وإرشادات موجّهة بالأساس إلى ضمائر المسلمين، تحثّهم على مراعاة علاقتهم بخالقهم والسلوك، والشاهد على ذلك، حسب الحداثيين، افتتاح التوجيهات القرآنية بعبارة "يا أيها الذين آمنوا" وتذييلها بعبارة "إن كنتم مؤمنين" أو "إن كنتم صادقين" فضلاً عن أنّ كثيراً من آيات الأحكام لا تنص إلا على الجزاء الأخروي، وحتى تلك التي نصّت على الجزاء الدنيوي مثل الحدود، فإنها فتحت باب التوبة.
- الدعوة إلى تحديث التديّن، فالحاجة عند الحداثيين تدعو إلى أن تستخلص من النص القرآني تديّناً ينسجم مع فلسفة الحداثة، فلا تكون فيه قسرية ظاهرة تحدّ من حرية الأفراد، ولا تكون فيه شعائرية طاغية تضيق على سلوكاتهم، ولا أساطير غابرة لا تطيقها عقولهم، أي في نهاية المطاف، تديّناً يقوم على الإيمان الفردي ويختار فيه صاحبه نمط تعبّده في دائرة حياته الخاصة، فإذن على قدر تخلّصه من أشكال التديّن الموروثة، يكون نهوضه بمقتضى التحديث.

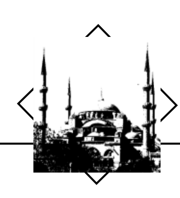


الأداة السادسة: مشاريع أمريكية لتفتيت الأمّة:

قامت بريطانيا وفرنسا بدور كبير بعد الحرب العالمية الأولى على إضعاف الأمّة وتمزيق أوصالها، وتقسيمها، لكنّ هذا الدور ضعف لصالح دولة عظمى جديدة هي: الولايات المتحدة الأمريكية، والتي طرحت بعد أن انهار الاتحاد السوفييتي عام 1990م عدّة مشاريع من أجل تطوير منطقتنا حسب زعمها، لكنها في الحقيقة تهدف من هذه المشاريع تمزيق الأمّة، وتحقيق التفتيت الطائفي وأبرزها مشروعا "الشرق الأوسط الكبير" و"الجديد". فما هما هذان المشروعان؟ وما دورهما في التفتيت الطائفي للمنطقة؟

الشرق الأوسط بين "الجديد" و "الكبير"

شمعون بيريز وزير خارجية إسرائيل السابق كان أول من تحدّث عن "الشرق الأوسط الجديد" في عام 1993م بعد توقيع اتفاقية أوسلو في حدائق البيت الأبيض بين اسحاق رابين وياسر عرفات، وكان تصوّر بيريز قائماً على أنّ وحدة اقتصادية ستتحقّق بين المنطقة العربية وإسرائيل، وستجمع هذه الوحدة الاقتصادية بين العبقرية الصهيونية في القيادة، والأيدي العربية الرخيصة المستخدمة في التصنيع، والثروة العربية المتكدّسة



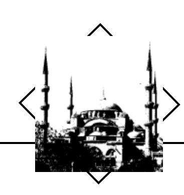
من بيع البترول إلخ...، وكان التفاؤل سيد الموقف آنذاك، والسبب في ذلك هو الاعتقاد بأنّ اللقاء الفلسطيني-الإسرائيلي كسر آخر الحواجز في الممانعة بين العرب وإسرائيل، ولم يبق إلا التداخل والتواصل والتلاحم إلخ...، وذهبت الأحلام بعيداً في رسم صورة "الشرق الأوسط الجديد"، وخصّصت لكل دولة ما يجب أن تفعله وتنتجه، فإسرائيل ستتخصّص بالالكترونيات والحاسبات، ومصر بالسياحة إلخ...، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يتحقّق، وتعثّر اتفاق أوسلو الذي كان الشرارة في كل تلك الأحلام، والسبب في ذلك أنّ إسرائيل تريد أن يكون لها كل شيء ولا تريد أن تعطي شيئاً للآخرين، وكانت نهاية الحلم كابوساً مزعجاً، فصانعا الحلم نُحرا: اسحاق رابين وياسر عرفات، الأول: نحره أهله، والثاني: نحره حلفاؤه.

ثم صار الحديث عن "مشروع الشرق الأوسط الكبير"، وطرح بوش هذا المشروع بعد احتلال العراق، ونوقشت بنود المشروع في اجتماع الدول الثمانية الصناعية الكبرى في يوليو 2004م في جزيرة أيلاند، وأبرز ما جاء في المشروع آنذاك هو الدعوة إلى الديمقراطية، والتغيير الثقافي، وحقوق الإنسان، والتأكيد على حقوق المرأة، وإنهاء الأُمّية إلخ...، وقد وضعت برامج تفصيلية تحقّق تلك الأهداف، كما رصدت ميزانيات مالية من أجل



الإنفاق على تلك البرامج بين الدول الثمانية. لكنّ شيئاً من ذلك لم يتحقّق، بل تحقّقت الفوضى التي أسموها "الفوضى الخلاّقة"، وتجلّت هذه الفوضى في أبهى صورة في العراق، فالدمار يعمّ كل شيء: البناء والطرق والجسور إلخ...، والكل يقتل الكل: السنّة والشيعة والأكراد والصابئة إلخ...، والجميع يتآمر على تقسيم العراق، ولم تتحقّق ديمقراطية ولا حقوق إنسان ولا ارتقاء ثقافياً ولا محو أُمّية إلخ...

ثم كرّرت كوندليزا رايس علينا بمقولة "الشرق الأوسط الجديد" أثناء التدمير غير المسبوق للبنان، ورافق مقولتها مقال للضابط الأمريكي السابق رالف بيترز، نُشر في مجلة القوات المسلّحة الأمريكية عدد تموز (يوليو) 2006 تحت عنوان "حدود الدم" وهو جزء من كتاب "لا تترك القتال أبداً" يرسم ملامح الشرق الأوسط الجديد الذي أشارت إليه كوندليزا رايس، وجاء في ذلك المقال أنّ السبب في اضطراب الشرق الأوسط هو عدم تطابق الحدود الجغرافية مع الحدود الإثنية والطائفية والعرقية في المنطقة، والسبب في ذلك أوروبا التي قسّمت الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى ولم تراع ذلك وراعت أهواءها وبعض المصالح الخاصة، وأشار المقال أيضاً إلى ضرورة تصحيح الجوانب الحدودية من أجل التوصّل إلى شرق أوسط مستقرّ، واقترح المقال صورة جديدة للشرق تقوم على



تفصيلات متعدّدة منها إقامة ثلاث دول في العراق: كردية في الشمال وسُنّية في الوسط، وشيعية في الجنوب، واقترح أن تلتحق الدولة السُنّية المجزوءة من العراق في وقت تالٍ بسورية، واقترح "مشروع الشرق الأوسط الجديد" تفكيك السعودية ووضع الأماكن المقدّسة في مكّة والمدينة تحت وصاية دولية، وإلحاق شمالي السعودية بالأردن، وإلحاق جنوبي السعودية باليمن، كما اقترح مشروع الشرق الأوسط الجديد إيجاد دولة شيعية تجمع بين جنوب العراق وتأخذ جزءاً من الإمارات وجزءاً من السعودية، كما استهدف المشروع تغييراً في حدود كل دول الشرق الأوسط كسورية وإيران ومصر وباكستان ولبنان إلخ... والسؤال الذي يمكن أن نطرحه هو: ما الهدف النهائي من هذه المشاريع المطروحة بين وقت وآخر بدءاً من "مشروع الشرق الأوسط الكبير" وانتهاء بـ "مشروع الشرق الأوسط الجديد"؟ وما الملامح التي تجمع بينها؟

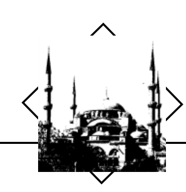
أولاً: تلتقي هذه المشاريع على أهداف دعائية كبيرة من مثل تحقيق الأمن والسلامة والتنمية والديمقراطية وحقوق الإنسان وإزالة الأُمّية وإقامة العدل إلخ...، لكنّ هذه الأهداف تبقى في حدود الدعاية، ولا يتحقّق شيء منها على أرض الواقع، وينطبق عليها المثال الذي راج عن الشيوعية إبّان انتشارها: "اقرأ عن الشيوعية تفرح، جرّب تحزن".



ثانياً: تحرك هذه المشاريع النزعة الطائفية والتفتيت الطائفي وتستهدف وحدة الأُمّة العربية والإسلامية بحجّة الظلم الذي لحق هذه الطوائف والأعراق خلال التاريخ الماضي، وهذا الاستهداف للإحياء الطائفي يخدم إسرائيل بالدرجة الأولى، ويمكن أن نتأكّد من ذلك باستعراض السياسة الأمريكية في مناطق أخرى مثل أمريكا اللاتنية وشرق آسيا، فهي لا تمارس هذا الدور من التفتيت الطائفي مع أنّ تعدّد الطوائف والأعراق والأجناس موجود في تلك المناطق وبصورة أكبر مما هو موجود في المنطقة العربية.

ثالثاً: مما زاد في الحرص على تنفيذ مخططات التفتيت الطائفي في المنطقة وجود المحافظين الجُدُد في قيادة أمريكا، ومن الواضح أنهم صهاينة مثل صهاينة إسرائيل إن لم يكونوا أكثر صهيونية، إذ يشاركون الإسرائيليين آلامهم وآمالهم وأحلامهم، ويلتقون مع صهاينة إسرائيل في بعض الرؤى الدينية التي يستقونها من المسيحية والصهيونية التي تستمد مادتها من التوراة التي هي جزء من الكتاب المقدّس عند المذهب البروتستنتي الذي يعتنقه المحافظون الجُدُد.

رابعاً: مما يؤسف له أنّ إيران هي الوجه المقابل لأمريكا في استغلال التفتيت الطائفي، وإشاعته، وممارسته، وتعميق جذوره، ويتضح ذلك في



العراق حيث تقسيم العراق وحلّ الجيش العراقي فعلان يتعدّيان هدف إزالة نظام صدّام حسين، وهو الهدف الذي برّرت إيران وأعوانها به التعاون مع أمريكا في احتلالها للعراق عام 2003م، ويصبّ هذان الفعلان المشار إليهما في خانة التفتيت الطائفي بالدرجة الأولى، والأمر لا يتوقّف على ساحة العراق بل يتعدّاها إلى ساحات أخرى في العالم العربي والإسلامي.

خامساً: يبقى الحصول على البترول هدفاً رئيسياً ومهماً في كل هذه المشاريع، وذلك لأنّ الصين والولايات المتحدة ستحتاجان إلى 70٪ من بترول الشرق الأوسط خلال السنوات العشر القادمة.

سادساً: تهدف هذه المشاريع إلى دمج إسرائيل في المنطقة من جهة، وجعلها تلعب دوراً مركزياً من جهة ثانية، وستكون بمثابة القلب له، لذلك تستهدف هذه المشاريع إيجاد إسرائيل العظمى ذات الاقتصاد القوي وذات الجيش المبني على أحدث التطوّرات التكنولوجية، والتي ستقود الشرق الأوسط الجديد وستشيع الديمقراطية فيه حسب أوهام المشاريع الأمريكية.

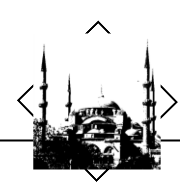


سابعاً: إنّ حلم التفتيت الطائفي للمنطقة العربية حلم إسرائيلي قديم، وقد اتضح ذلك في مذكرات بن غوريون منذ قيام إسرائيل وكلامه عن استدراج الطوائف في لبنان إلى التعاون مع إسرائيل، وقد أصبح الأمر أكثر وضوحاً في الكتاب الذي نشره الصحفي الهندي كارانجيا بعد العدوان الثلاثي على مصر عام 1956م، فقد أشار فيه إلى استهداف إسرائيل إقامة دول الطوائف في المنطقة، ويمكن أن يعتبر الدارس لأوضاع المنطقة أنّ عمل إسرائيل واستهدافاتها في التفتيت الطائفي طبيعي ويتسق مع طبيعتها الديموغرافية، ولكن من غير الطبيعي أن ترسم دولة عظمى كالولايات المتحدة استراتيجيتها انطلاقاً من هذا الأمر.

والسؤال الآن الذي يرد في ختام هذا الباب وهو: **كيف نستطيع أن نواجه هذا التمزيق والتفتيت للأمّة؟**

يكون ذلك من خلال خطوتين:

الأولى: تعميق العلم وتوسيع ساحة الوعي بعقائد الدين الإسلامي وأفكاره وتشريعاته ونظرياته وآرائه في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والفردية والجماعية والنفسية والعقلية إلخ... والردّ على كل الشبهات التي وردت من أعداء الدين الإسلامي.



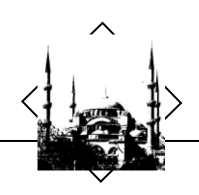
الثانية: السعي الحثيث إلى إقامة الدولة الإسلامية التي هي تعبير عن الأمّة، والتي هي حافظة للأمّة من التفتيت والضياع، واعتبارها واجب الوقت والواجب العيني على كل فرد مسلم، والردّ على كل من يهوّنون من شأن إقامة الدولة واعتبار أنها ليست من أصول الدين، ويرتبط بهذا الواجب العيني واجب المسلم في الانتماء الجماعي، لأنه الوسيلة إلى إقامة الدولة.



الخاتمة

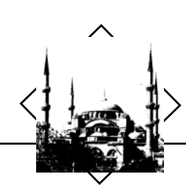
استهدف الكتاب كما رأينا من عنوانه الحديث عن أسباب سقوط الخلافة العثمانية، وهو من أجل تحقيق هذا الهدف كان لابد من دراسة عوامل الضعف التي أدّت إلى إضعاف الفرد والأمّة والدولة، وقد رصدنا عوامل الضعف المباشرة التي أدّت إلى إسقاط الخلافة العثمانية، وكذلك رصدنا عوامل الضعف غير المباشرة، وقبل أن نتحدّث عن عوامل الضعف التي أسقطت الخلافة، وأدّت إلى وهن الأمّة، كان لابدّ من أن نبدأ من البداية التي بدأها الرسول ﷺ، ورأينا كيف بنى الرسول ﷺ المسلم الصحابي، وكيف بنى الأمّة، وكيف بنى الدولة.

أمّا عن بناء الرسول ﷺ للمسلمين الصحابة فقد رأينا أنه أقام بناءه على شقين: بناء نفوسهم العظيمة، وبناء عقولهم الحكيمة، لأنّ هاتين الشعبتين هما عماد الفاعلية في الإنسان، وقد أولاهما الرسول ﷺ والإسلام أكبر عناية، وكانت الوسيلة لبناء النفوس التوحيد الذي جعلها تعظّم الله وتخضع له، وتحبه أكثر من كل محبوبات الدنيا، وتخاف ناره وترجو جنّته، وكانت الوسيلة لبناء العقول مفهومي الحكمة والميزان اللذين



وردا في آيات صريحة من مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة)، ومن مثل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الحديد).

أمّا عن بناء الرسول ﷺ للأمّة، فقد كانت هي الأمر الثاني الذي توجّه الرسول ﷺ لبنائه أثناء بناء المسلم الصحابي وبعده، وقد كانت الأمّة صورة جديدة للعلاقات في الجزيرة العربية، في مقابل القبيلة التي عرفها الإنسان الجاهلي، ثم تحدّثنا عن صفات هذه الأمّة، وتتبعنا وصف القرآن الكريم لها حسب أسباب النزول فوجدنا أنّ أول وصف لها كان بـ "الأمّة الواحدة" إذ ورد ذلك في آيتين هما: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المؤمنون)، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الأنبياء). وقد تقصّيت عن معنى "الأمّة



الواحدة" الوارد في هاتين الآيتين فوجدت أنه يعني أمرين: الأول: الدين والملّة الواحدة، الثاني: الجماعة الواحدة.

وبيّنت أنّ الوحدة لم تتحقّق في أمّة محمد ﷺ فحسب، بل تحقّقت هذه الوحدة مع الأنبياء السابقين في المعتقدات الواحدة وفي الجماعة الواحدة.

ثم بيّنت كيفية تحقيق المعنيين اللذين حملتهما العبارة "الأمّة الواحدة" فقد بقي الدين واحداً من خلال الوحدة الثقافية التي قامت على حفظ النص القرآني وحفظ الأحاديث الشريفة من الضياع والتحريف من جهة، وعلى ضبط تفسير المعنى من خلال تقنين الأدوات التي تفسّر النص من أمثال تدوين العلوم كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والنحو، وأصول الفقه إلخ...، كما حافظ العلماء والفقهاء على وحدة الأمّة من خلال تحقّق ظاهرتهم ووجودها على مدار التاريخ الإسلامي.

أمّا الصفة الثانية التي وصف القرآن الكريم بها الأمّة الإسلامية فكانت "الأمّة الوسط" وهي تعني: الأمّة العادلة، واستتبع هذا الوصف الشهادة على الناس، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ



شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (البقرة،143)، وعنت الشهادة دعوة الناس إلى هذا الدين، وهذا ما قام به المسلمون، لذلك كانت الشعوب التي دخلت في الإسلام عن طريق تعامل المسلمين معها أكثر من المسلمين الذين دخلوا عن طريق الفتح العسكري لبلادهم، وأوضح ما يكون ذلك في شرق آسيا وجنوبي أفريقيا وشمالي آسيا.

أمّا الصفة الثالثة التي وصف القرآن الكريم بها الأمّة فكانت "الخيرية"، وقد ارتبطت الخيرية بخُلُق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أدّى هذا الخُلُق إلى جعل الأمّة الإسلامية أمّة حيّة، تتغلّب على أمراضها تلقائياً، وقد أفرز هذا الخُلُق أيضاً مؤسسات الحسبة التي لعبت دوراً إيجابياً في المحافظة على نقاء المجتمع المسلم وطهارته وفاعليته إلخ...

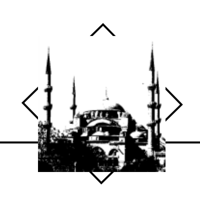
ثم تحدّثت في الفصل الثالث من الباب الأول عن بناء الرسول ﷺ للدولة الإسلامية، وقد جاءت هذه الخطوة ثمرة للنضج في الخطوتين السابقتين: المسلم الصحابي، والأمّة المسلمة، ثم بيّنت الأصول التي قامت عليها تلك الدولة، وكان التشريع لله هو الأصل الأول، ثم كانت الشورى هي الأصل الثاني، وتفرّع عن هذا الأصل أنّ الاختيار للخليفة هو الأصل في شرعيته وليس أي شيء آخر، وهذه الخطوة متقدّمة على المناخ العام



للبشرية في اختيار الحكّام آنذاك، فكانت الأُسَر هي الحاكمة، وخلافة الأبناء للآباء في الملك أمر طبيعي، لذلك عندما جاء أبو بكر الصديق ﵁ خليفة للرسول ﷺ كانت هذه خطوة متقدّمة بكل المقاييس، وتعتبر اختراقاً للسقف السياسي للبشرية آنذاك. فأبو بكر لا تجمعه بالرسول ﷺ صلة عائلية أو بُنوّة أو أُخوّة إنما تجمعه آصرة الإسلام وتحمل أعباء رسالة الإسلام، وقد أخذ شرعيته في الخلافة من اختيار المسلمين له في سقيفة بني ساعدة، وهذا الاختيار هو العنصر الرئيسي في شرعيته التي أطاعه المسلمين بناء عليها وليس أي شيء آخر، لذلك عندما قعّد العلماء المسلمون في كتب الأحكام السلطانية للأصل الذي تقوم عليه شرعية الحاكم المسلم، كان الاعتبار الأول والنهائي في الشرعية هو اختيار المسلم له.

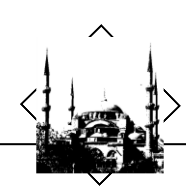
ثم تحدّثت عن الأصلين الأخيرين اللذين تقوم عليهما الدولة الإسلامية وهما: المساواة والعدل.

ثم تحدّثت عن ضعف الأمّة، وميّزت بين ضعف الأمّة وانحطاطها، واعتبرت أنّ الانحطاط يعني موت العقل، وتوقّف الإبداع، وأنّ الحل يأتي من خارج مرجعية الأمّة الموجودة آنذاك، وهذا ما حدث مع أوروبا في



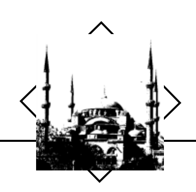
القرون الوسطى، فاضطرت إلى القفز خارج كل ما هو موروث بل تحطيمه، واعتبرتُ أنّ هذه الحالة لا تنطبق على أمّتنا، لأنّ التشخيص الدقيق لحالتنا يعني أنّ هناك ضعفاً وأننا قادرون على معالجته من خلال المرجعيات القائمة وهي: القرآن والسنّة، لذلك تساءلت في فصل خاص: هل عرف تاريخ المسلمين الحضاري عصر انحطاط؟ وجاء هذا الفصل ردّاً على الذين يحقّبون تاريخنا، فيبدأون بعصر النشأة، ثم عصر القوة والازدهار، ثم عصر التجزّؤ والانقسام، ثم عصر الانحطاط، ثم عصر النهضة وهو الذي يبدأ بمجيء نابليون إلى مصر، فبيّنت أنّ تاريخ المسلمين لم يعرف عصر انحطاط، ورددت على أهم كاتبين يُظن بأنّ كلامهما يخدم هذا الرأي وهما: مالك بن نبي، ومحمد عابد الجابري، وأعتقد أنّ رواج مصطلح الانحطاط في ثقافتنا المعاصرة مع غموض المضمون الذي يدل عليه، أشاع بلبلة كبيرة في حياتنا الثقافية، وأدّى إلى اضطراب في رؤية الواقع، وفي تشخيص أزماته، وفي وضع الحلول اللازمة للارتقاء بالأمّة.

ثم انتقلت إلى تحديد عوامل ضعف الأمّة، وهي التي أَثَّرَت فيها، وكان أولها: تداخل أفكار بشرية مع أصول الدين الإلهي، وقد جاء هذا العامل من خصوصية الإسلام، وأنه دين إلهي، وإنّ هذا الدين جاء لتعبيد



الناس لإله واحد، وإنّ الإسلام حدّد الأهداف، وكذلك حدّد الوسائل التي تبني هذه الأهداف، ففي مجال العقائد، وصف القرآن الكريم الله بصفات معيّنة، ولاشك أنّ الإسلام حريص على تنزيه ذات الله، فلا يقبل الإسلام أن يأتي شخص ويقول من أجل تنزيه ذات الله علينا أن نعطّل كذا، أو نؤوّل كذا، فالإسلام وصف الله بكل صفة كمال، ونفى عنه أية صفة نقص، ويجب أن نتوقّف عند هذا الوصف، لأنّ ذات الله غيب، والوحي هو الوسيلة لتعريفنا بذات الله على حقيقتها، صحيح أنّ الفطرة تهدينا إلى كثير من صفات ذات الله لكنّ الوحي يأتي ليؤكّد ما اهتدت إليه الفطرة، أو يبرز ما عرفته الفطرة، هذه الطبيعة الخاصة للدين الإسلامي تم تجاهلها من قبل بعض الأشخاص، فتداخلت بعض الأفكار البشرية مع أصول الدين الإلهي، فأدّى ذلك إلى نتائج في مجال البناء النفسي وفي مجال البناء العقلي، وقد أدّى التداخل إلى توريث المسلم الفقر النفسي، مع أنّ أبرز ما تبنيه العقيدة الإسلامية في المسلم الاغتناء النفسي، وقد وضّحت كيفية حصول الفقر النفسي عند المسلم نتيجة تداخل الأفكار البشرية.

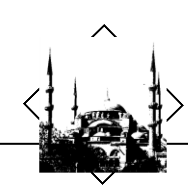
ثم بيّنت آثاراً أخرى لتداخل الأفكار البشرية مع أصول الدين الإلهي في مجال البناء العقلي، وكان أولها التنكّر للسببية، مع أنّ التعامل مع



الأسباب كان ركناً بنى عليه الإسلام كيانه الحضاري والذي أفرز "التجريب" والذي انتقل للغرب كان سبباً في النهضة الأوروبّية الحديثة في مجالات البخار والكهرباء إلخ...، ولاشك أنّ هذا التنكّر للسببية كان عاملاً رئيسياً في ضعف المسلمين خلال الفترة الماضية.

ثم تولّد أمر آخر عن تداخل الأفكار البشرية مع أصول الدين الإلهي هو توهّم تعارض النقل والعقل، مع أنه من الثابت عند الأسلاف الأطهار والعلماء الأخيار أنه لا يمكن أن يتعارض المنقول الصحيح مع المعقول الصريح، وإذا حدث تعارض فمعنى ذلك أنّ هناك خطأ في أحديهما، فسيكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صريح. ونتج أمر ثالث في مجال البناء العقلي هو التشكيك في أهم أصلين من أصول الدين الإسلامي، وهما: الدليل السمعي، وعدم إفادة حديث الآحاد: العلم والعمل.

ثم بيّنت أنّ العامل الثاني الذي أدّى إلى ضعف الأمّة هو انتشار التصوّف، فبعد أن بيّنت حقيقة التصوّف والعوامل المؤثّرة في نشأته وتكوّنه، وهي عوامل منقوله من بيئات تصوّف سابقة على الإسلام كما أشار محمد عابد الجابري إلى ذلك، وبيّنت آثار التصوّف في بناء المسلم





النفسي والعقلي: إذ هو يؤدّي إلى استلابه النفسي عندما يحاول أن يقتل طاقات جسده من أجل الخلاص الروحي حسب زعمه، كما يؤدّي إلى استلاب عقلي عندما يسعى إلى الاتحاد بالله أو حلول الله به أو اكتشاف وحدة الوجود، كما أشرت إلى آثار التصوّف الاجتماعية السلبية التي توجّه المتصوّف إلى الخلاص الفردي، وعدم الاهتمام بكل ما يحيط به.

ثم تحدّثت عن العامل الثالث في ضعف الأمّة وهو نشوء الفِرَق، وبدأت بفرقة الخوارج لأنها أقدمها نشأة، ونقلت الأحاديث التي وردت في حقّها، ثم بيّنت أنّ العامل الرئيسي في وجود هذه الفرقة هو بيئتها البدوية التي أحاطت بها، وجعلتها لا تتدبّر النصوص القرآنية، وجعلتها تتعامل مع أوامر الدين بسطحية وظاهرية واضحة.

ثم تحدّثتُ عن فرقة الشيعة وبيّنتُ الأصول التي قامت عليها في مجال السياسة وأركان الدين والتشريع والفقه، فبيّنتُ أنّ ما قامت عليه في مجال السياسة يستند على اعتقادهم أنّ الرسول ﷺ أوصى لعليّ رضي الله عنه بالخلافة من بعده، وبيّنتُ أنّ أبرز ما قامت عليه في مجال أركان الدين هو: "مفهوم الولاية" المرتبط بعصمة الأولياء، وبيّنتُ أنّ ما قامت عليه في



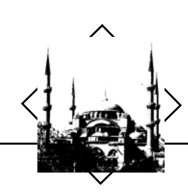
مجال التشريع والفقه هو وجود كتب للحديث الشريف خاصة بهم تختلف عن كتب الحديث الشريف عند أهل السنّة إلخ...

ثم تحدّثت عن فرقة المعتزلة، فبيّنت نشأتهم، ودور جهم بن صفوان في وضع أصول التعطيل لصفات الله عندهم. كما بيّنت دور الفلسفة في تبلور الفرقة وعلى رأسها مذهب الذرّة الذي أخذه العلاّف من المحيط الثقافي في البصرة.

لاشك أنّ وجود هذه الفِرَق في كيان الأمّة أدّى إلى إضعاف الأمّة واضطرابها، واستنزاف جانب من قوّتها في الصراعات والاقتتال، وهذا ما تحدّثت عنه في الفقرة الأخيرة من الكلام عن الفِرَق.

ثم تحدّثت عن العاملين الأخيرين اللذين سبّبا ضعف الأمّة، وهما القصور في الأخذ بالشورى، وغياب الاختيار في تنصيب الخليفة، واعتماد المبدأ الوراثي كما حدث في عهد الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الزنكية والعثمانية إلخ...، أمّا الثاني: فهو التقصير في تحقيق العدالة والمساواة.





ثم أجملت في الباب الثالث الحديث عن نشأة الخلافة العثمانية، وبيّنت دور أورخان في إنشاء الجيش العثماني، ثم تحدّثت عن مراد الأول ونقل العاصمة إلى أوروبا، ثم ذكرت انهزام بايزيد أمام تيمورلنك، ثم تحدّثت عن محمد الفاتح وفتحه للقسطنطينية، ثم بيّنت توجّه السلطان سليم إلى الشرق، وجاء الحديث بعده عن سليمان القانوني، ثم أجملت الحديث عن حياة الخلفاء الآخرين إلى نهاية الخلافة العثمانية، ثم تحدّثت في فصل آخر عن موقف الخلافة العثمانية من عوامل ضعف الأمّة فبيّت أنها استسلمت لها، ولم تُحدث فيها تغييراً، بل ورسّخت بعضها كما حدث مع التصوّف الذي ازداد انتشاراً في عهدها، إذ أقامت جيشها على الطريقة البكتاشية في التصوّف.

ثم تحدّثت في الباب الرابع عن العوامل المباشرة التي أدّت إلى سقوط الخلافة العثمانية، فكان أولها استعمار بعض البلدان الإسلامية، وكان هذا الفعل من المستعمرين اجتراء على الخلافة العثمانية والأمّة الإسلامية آتياً بعد أن بدأت النهضة الأوروبية، واغتنت أوروبا من ذهب الأمريكتين الذي اغترفته خلال عشرات السنين السابقة، وفي البداية جاء الاستعمار لأطراف الخلافة، كما حدث مع استعمار إنجلترا لعدن، ثم استعمار فرنسا

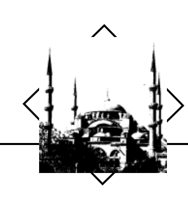


للجزائر إلخ...، ومن المؤكّد أنّ هذا الاستعمار أضعف الخلافة، وشكّل بداية رئيسية لإسقاطها.

وقد كان العامل الثاني المباشر الذي أدّى إلى إضعاف الخلافة العثمانية وإسقاطها بعد ذلك هو: مساعدة الدولة الغربية لبعض الحكّام على الانفراد بالسلطة، وقد مثّلت بالتفصيل لهذا العامل بحياة محمد علي باشا، وقد اتضح من هذا المثال كم كلّف مثل هذا الحاكم الخلافة العثمانية من جهد ومال وقتال لضبطه، وكم استخدمت الدول الغربية هذا الحاكم لإيذاء الخلافة العثمانية وإشغالها وابتزازها وإضعافها إلخ...

ثم تحدّثت في العامل الثالث عن إشعال الثورات في الجزء الأوروبي من الخلافة العثمانية، ولم أفصّل في ذلك تفصيلاً كاملاً إنما نقلت من الوقائع ما يوضّح حقيقة أمر التدخّل، وبيّنت أنّ أوروبا أمدّت سكّان اليونان وبلغاريا وصربيا بالمال والسلاح، وبالدعم المعنوي، وبالدعم السياسي، وفي إنشاء حروب من أجل إجلاء الخلافة العثمانية من أراضيهم، وكان لها ما أرادت في النهاية، ومن الواضح أنّ هذا عامل مباشر في إضعاف الخلافة العثمانية وإسقاطها.





ثم تحدّثت في العامل الرابع عن استغلال الغرب للطوائف الموجودة في الخلافة العثمانية، والتي تعتبر من رعايا الخلافة العثمانية، وقد أخذت لبنان كنموذج على الاستغلال، وبيّنت جانباً من وقائع هذا الاستغلال وتطوّراته، ومن الجلّي أن هذا عامل أساسي ومباشر في إضعاف الخلافة العثمانية وإسقاطها في مراحل تالية.

ثم تحدّثت في العامل الخامس عن كيفية إضعاف الغرب للخلافة العثمانية اقتصادياً وبيّنت طرق ذلك، ثم تحدّثت في العامل السادس والأخير عن دفع الغرب أثناء الحرب العالمية الأولى العرب والأتراك إلى الاقتتال وكان هذا الفصل الأخير الذي أدّى إلى سقوط الخلافة العثمانية وانتهاء وجودها عام 1926م.

ثم انتقلت في الباب الخامس وبيّنت أنّ الأمّة هي التي بقيت موجودة بعد سقوط الخلافة العثمانية، وأنّ هذه أمّة أصبحت مستهدفة، وتوجّه الاستهداف إلى تفتيتها وتمزيقها من أجل التمهيد لاستئصالها، وقد استخدَمَت في ذلك عدّة أدوات، كانت الأداة الأولى هي: فرض حكم قومي علماني رأسمالي بعد الحرب العالمية الأولى، وقد قام ذلك في العراق

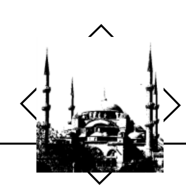


ومصر وتركيا بشكل واضح، كما قام حكم قومي اشتراكي ماركسي بعد الحرب العالمية الثانية حاول استئصال الدين من حياة الناس.

ثم جاءت الأداة الثانية في إيجاد تقسيمات سياسية لم تعرفها الأمّة طيلة قرون متعدّدة، فالمخطط أن تتحوّل هذه الأقطار التي نتجت عن التقسيمات السياسية إلى أمم، فيكون هناك: الأمّة الأردنية، الأمّة العراقية، الأمّة السورية، الأمّة اللبنانية إلخ...

ثم كانت الأداة الثالثة هي اسرائيل، وأظنّه لا حاجة للحديث الطويل عن وضوح دور اسرائيل في إضعاف الأمّة وتمزيقها واستئصالها. وأنها لا تترك أية فرصة تساعدها على تحقيق ذلك، وأنها تتعاون في ذلك مع كل ناعق، ووقوع حرب السويس عام 1956م، وحرب الأيام الستة عام 1967م دليلان واضحان على ذلك.

ثم كانت الأداة الرابعة إثارة وتحريك النعرات العِرقية والطائفية، فالاستعمار أثار كل ما هو عرقي لدى الأمّة الواحدة كما فعل لدى الأكراد في الشرق والبربر في المغرب إلخ...، وأثار كل ما هو طائفي على نطاق المسلمين أنفسهم كما يفعل -الآن- في العراق في قضية الشيعة والسنّة، وكما فعل في قضية المسيحيين في لبنان في مرحلة سابقة إلخ...،

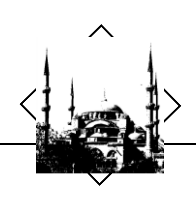


أثار كل ذلك من أجل تجزئة الأمّة وتقسيمها واستنزافها وتحقيق أهداف سياسية في مرحلة معينة، تكون على حساب وحدة الأمّة واقتصادها وحيويّتها.

ثم كانت الأداة الخامسة التشكيك في الثوابت التي تقوم عليها الأمّة، ويمكن أن نقدّم أمثلة كثيرة على المشكّكين خلال القرنين الماضيين، لكنني أخذت مثالاً على ذلك طه حسين، ونقلت جانباً من آرائه الهادمة لثوابت وجود الأمّة في كتابين هما: في الشعر الجاهلي، مستقبل الثقافة في مصر.

ثم تحدّثت عن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فاخترت كاتبين هما: أدونيس ومحمد شحرور، ثم أنهيت هذه الفقرة بكلام الدكتور طه عبد الرحمن الذي وضّح مجمل أهداف القراءات الحداثية للقرآن الكريم ولخّصها في ثلاثة أهداف: نزع القداسة، ونزع الغيبية، ونزع الأحكام المطلقة.

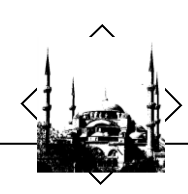
ثم تحدّثت في الأداة السادسة عن مشاريع أمريكية لتفتيت المنطقة وأبرزها مشروعا الشرق الأوسط الكبير والجديد، وتستخدم هذه المشاريع أدوات متعدّدة أبرزها التفتيت الطائفي.



والآن: بعد أن تعرّضت في الجولة السابقة إلى كيفية بناء الرسول ﷺ المسلم الصحابي والأمّة المسلمة والدولة الإسلامية، والعوامل التي أدّت إلى إسقاط الخلافة العثمانية القريبة منها والبعيدة، ثم انتقلت إلى استهداف الغرب للأمّة، قاصداً تفتيتها وتمزيقها، ومجتهداً في استئصالها وإلغائها، يأتي السؤال: هل سينجح الغرب في ذلك؟ الجواب: لا، نقول: لا بكل قوة مستندين في ذلك إلى عدّة حقائق:

أولها: ثقتنا بوعد الله بتمكين هذا الدين، وإظهاره على كل الأديان، إذ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩ ﴾ (الصف)، وثقتنا بتبشير الرسول ﷺ بأنه ستكون هناك خلافة على منهاج النبوة، فقد قال الرسول ﷺ: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم





سكت" [1]، وثقتنا بنبوءات الرسول بوجود طائفة ترعى الحق وتقوم عليه كما قال الرسول ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك" [1].

ثانيها: أزمة الحضارة الغربية الخانقة في تصادمها مع الفطرة في تحويل المقدّس إلى مدنّس والمدنّس إلى مقدّس، لقد كانت أوروبا في العصور الوسطى تقوم على ثنائية المقدّس والمدنّس، فقد كان المقدّس هو الله والعبادة والكنيسة والآخرة إلخ... والمدنّس هو الدنيا والمرأة واللّذة والشهوة والزواج إلخ... وكانت القنطرة للعبور من المدنّس إلى المقدّس هو الرهبنة، فلمّا كانت هذه المعطيات مناقضة للفطرة جاءت الثورة على هذه المعطيات الخاطئة تلبية للفطرة، لكنّ أوروبا لم تصحح المعادلة السابقة حسب معطيات الفطرة وهي أنّ الخطأ في مفهوم المدنّس، بل انتقلت إلى خطأ آخر هو تقديس المدنّس، وتدنيس المقدّس، فصارت الدنيا والمرأة واللّذة والشهوة والمال ليست شهوات فحسب بل أصبحت مقدّسة،

---

[1] حديث صحيح، رواه أحمد، الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة (34/1) حديث رقم (5).

[1] حديث صحيح، رواه مسلم، (36/10).

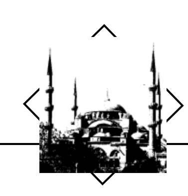


وأصبح المقدّس وهو الله والعبادة والآخرة والكنيسة والرهبنة مدنّساً، بمعنى أنها أصبحت محل الاضطهاد والاستنكار والاستخفاف، وأنها مرتبطة بالخرافة واللاعقلانية والأوهام إلخ...

ومازالت الحضارة الغربية تزداد انزلاقاً في تأليه الشهوات والدنيا والمال واللّذة والجنس والمنفعة والمصلحة، ويختفي مع مرور الزمن أيّ وزن للقِيَم المرتبطة بالإنسان مثل قِيَم الرحمة والحب والتعاون إلخ...

من الواضح أنّ مثل هذا الوضع الذي قلب معادلة المقدّس والمدنّس صار إلى حال أسوأ من السابق في معاداة الفطرة، لذلك فالنتيجة الطبيعية لمثل هذه المعادلة هي تغيّر الواقع لصالح الفطرة كما حدث أكثر من مرّة في مسار التاريخ السابق.

ثالثها: ثقتنا بأمّتنا وأنها ستتغلّب على مثل هذه المحاولات في تفتيتها وتمزيقها وشطب وجودها واستئصالها إلخ... وبخاصة أنّ أمّتنا مرّت بظروف أقصى من هذه الظروف، وهي الظروف التي جاءت بعد الحرب العالمية الأولى والتي أدّت إلى إسقاط الخلافة، وكما رأينا جاءت حكومات قومية مباشرة تؤمن بالنموذج القومي العلماني الغربي، وفرضت هذا النموذج على الناس بالحديد والنار، وبأقسى أنواع الأساليب كما حدث في تركيا مع



أتاتورك، وفي مصر مع سعد زغلول ثم جمال عبد الناصر، وكما حدث في العراق مع حكم الملك فيصل ثم مع حكم صدّام حسين، وكما حدث في الجزائر مع الاستعمار الفرنسي الذي استعمر الجزائر لمدّة 130 عاماً وأراد استئصال الدين والعروبة والإسلام إلخ...

إنّ الذي يجمع التجارب السابقة هو أنها فشلت جميعاً في استئصال الدين من حياة الناس، وفشلت في فرض النموذج الغربي مع أنها مارست أقسى أنواع الأساليب وأشدّها من أجل حمل الناس على الابتعاد عن الدين وعلى قبول النموذج الغربي بشقّيه: القومي الرأسمالي العلماني، والقومي الاشتراكي الماركسي، يجمعها جميعاً -كما قلنا- الفشل، إنّ هذا الفشل يعطينا -الآن- أملاً جديداً، هو أنّ هذه الأمّة التي قاومت استئصال الدين من حياتها، ورفضت فرض نموذج غربي عليها لا يتفق مع معطياتها الحضارية، ستُفشِل المحاولات القادمة في تفتيتها وتمزيقها وشطب وجودها واستئصالها، وستتغلّب على تلك المحاولات، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (يوسف). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.


تم بحمد الله

المصادر والمراجع حسب ورودها في الكتاب

1- القرآن الكريم.

2- صحيح الإمام البخاري.

3- صحيح الإمام مسلم.

4- مسند الإمام أحمد.

5- سنن ابن ماجه.

6- سنن الترمذي.

7- صحيح ابن حبّان.

8- السنن الكبرى للبيهقي.

9- المستدرك على الصحيحين للحاكم.

10- المعجم الكبير للطبراني.

11- سيرة ابن هشام.

12- صحيح سنن ابن ماجه باختصار السند، ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، 1988.

13- صحيح سنن الترمذي باختصار السند، محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى. تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، 1988.

14- سلسلة الأحاديث الصحيحة. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، 1985.

15- سلسلة الأحاديث الضعيفة. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي. الطبعة الخامسة، 1985.

16- صحيح الجامع الصغير وزيادته. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، 1988.

17- صحيح الترغيب والترهيب. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة الخامسة.

18- ظلال الجنّة في تخريج السنّة لابن أبي عاصم. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، 1993.

19- الموافقات في أصول الشريعة. الشاطبي، أبو اسحق ابراهيم بن موسى. تحقيق عبدالله دراز. دار المعرفة، [د.ت.] .

20- تاريخ الخلفاء. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. تحقيق أبو الفضل ابراهيم. القاهرة: دار النهضة، 1976.
21- جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي. د. التوبة، غازي (المؤلف). الكويت: دار الوطن، 1994.
22- التمهيد، الباقلاني. أبو محمد بن الطيّب. تحقيق الأب ريتشارد يوسف مكارثي اليسوعي. بيروت: المكتبة الشرقية، 1957.
23- الاقتصاد في الاعتقاد. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. القاهرة: مكتبة الحسين التجارية، [د.ت.].
24- الأمّة الإسلامية بين القرآن والتاريخ: دراسة وتحليل. د. التوبة، غازي (المؤلف). عمّان: دار البشير، 1999 .
25- محصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين من العلماء والحكماء والمتكلّمين. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، طبعة مكتبة الكلّيات الأزهرية، [د.ت.].
26- الأربعين في أصول الدين. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. تحقيق: أحمد حجازي السقا. بيروت: دار الجيل، 2004.
27- موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول. ابن تيمية. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1985.

28- اللّمع. الطوسي، أبو نصر السراج. تحقيق عبد الحليم محمود طه عبد القادر. القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1960.
29- الفتوحات المكية. ابن عربي، أبو بكر محمد بن علي بن أحمد. بيروت: دار صادر، [د.ت.].
30- الطبقات الكبرى. الشعراني، القاهرة: محمد علي صبيح، [د.ت.].
31- حلية الأولياء. الأصبهاني، أبو نعيم. القاهرة: الخانجي، 1932.
32- الرسالة. القشيري، عبد الكريم بن هوارن. بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.].
33- بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة. د. الجابري، محمد عابد. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، 2000 .
34- المِلَل والنِّحَل. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، 1968.
35- أصول الكافي. الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب. طهران، 1278م.
36- شرح كتاب أصول الكافي للكليني، لملا صدرا.

37- تاريخ الفلسفة الإسلامية. كوربان، هنري. بيروت: منشورات عويدات، تقديم موسى الصدر، 1966.
38- تأويل الدعائم. التميمي، النعمان بن محمد بن منصور (القاضي). تحقيق محمد حسن الأعظمي. القاهرة: دار المعارف، 1967.
39- مروج الذهب ومعادن الجوهر. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. تحقيق يوسف أسعد داغر. بيروت: دار الأندلس، 1965.
40- نقض رسالة الشافعي، هشام بن الحكم.
41- البداية والنهاية. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء. بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، 1985.
42- مقالات الإسلاميين. الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل. تحقيق محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1969.
43- الفَرق بين الفِرَق. البغدادي، عبد القاهر. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1973.
44- العثمانيون في التاريخ والحضارة. د. حرب، محمد. دمشق: دار القلم، 1989.

45- جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك. أبو غنيم، زياد. عمّان: دار الفرقان، 1983.
46- السلاطين العثمانيون. كتاب مصوّر، طبع في تونس.
47- عوامل نهوض وسقوط الدولة العثمانية. د. الصلابي، علي محمد محمد. القاهرة: مكتبة التابعين، 2001.
48- الدولة العثمانية: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ. د. جمال عبد الهادي، وفاء محمد رفعت جمعة، علي أحمد لبن. القاهرة: دار الوفاء، 1994.
49- محمد الفاتح. د. الرشيدي، سالم. جدة: الإرشاد، 1989.
50- في أصول التاريخ العثماني. مصطفى، أحمد عبد الرحيم. القاهرة: دار الشروق، 1986.
51- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. ياغي، اسماعيل أحمد. الرياض: مكتبة العبيكان، 1996.
52- تاريخ الدولة العلية العثمانية. فريد بيك المحامي، محمد. تحقيق د. إحسان حقي. بيروت: دار النفائس، 1981.
53- الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي. د. نصر، محمد.
54- المسألة الشرقية، مصطفى كامل.

55- المغـرب في بدايـة العصـور الحديثـة. د. العقـاد، صـلاح. القـاهرة: الأنجلو المصرية، 1966.
56- السلطان عبد الحميد الثاني. د. حرب، محمد. دمشق: دار القلم، 1990.
57- القضـية الفلسـطينية: الواقـع والآفـاق. د. التوبـة، غـازي (المؤلـف). بيروت: المكتب الإسلامي، 2005.
58- في الشـعر الجـاهلي. د. حسـين، طـه. القـاهرة: دار المعـارف، 1996.
59- مستقبل الثقافة في مصر، د. حسين، طه.
60- الثابت والمتحوّل. أدونيس، سعيد أحمد علي. بيروت: دار الساقي للطباعة والنشر، 1999.
61- الكتـاب والقرآن: قراءة معاصرة. د. شـحرور، دمشـق: دار الأهـالي للطباعة والنشر، 1992.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

من إصدارات المؤلف

- الفكر الإسلامي المعاصر (دراسة وتقويم) 1969م
- النكسة في بعدها الحضاري 1973م
- في مجال العقيدة (نقد وعرض) 1986م
- جذور أزمة المسلم المعاصر (الجانب النفسي) 1993م
- الجماعة في الإسلام (المشروعية والإطار) 1995م
- التغيير في العالم الإسلامي: أزمة موضوعية أم ذاتية؟ 1996م
- أبو الأعلى المودودي فكره ومنهجه في التغيير 1996م
- الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ 1999م
- إشكالية النهضة: بين الفكر القومي العربي والصحوة الإسلامية 2002م
- النفس المسلمة: صور من بنائها وأحوالها 2005م
- كتاب القضية الفلسطينية: الواقع والآفاق 2005م